

مكتبة
مدبولى
الفيلسوف
المسيحي
وا
تأليف
أ.د / إمام عبد الفتاح إمام
أستاذ ورئيس قسم الفلسفة
جامعة الكويت
Bibliotheca Alexandrina
01169559

الفيلسوف المسيحى .. والمرأة

تأليف

أ. د. إمام عبد الفتاح إمام

آستاذ ورئيس قسم الفلسفة
جامعة الكويت

الطبعة الأولى
١٩٩٦

مكتبة مدبولى

الفيلسوف المسيحى ... والمرأة

اسم الكتاب: **الفيلسوف المسيحى .. والمرأة**

(طبعة أولى)

المؤلف : أ . د . إمام عبد الفتاح إمام

مكتب الجمع : **آرمس للكمبيوتر**

ت : ٣٥٦٤٤٠٤ القاهرة

غلاف : **محمد لطفى**

الناشر : **مكتبة مدبولـــى**

٦ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة

مقدمة

إذا رأيتم المرأة فلا تحسبوا أنكم تشاهدون موجودًا بشريًا ، بل
ولا موجوداً متوحشاً ؛ لأن ما ترونه هو الشيطان نفسه .
وإذا تكَلَّمَتْ فما تسمعونه هو فحيح الأفعى ... ! » .

القديس بوناڤنتيرا ... St. Bonaventura
(١٢٢١ ـ ١٢٧٣)

مقدمة

هذا هو الكتاب الثالث فى سلسلة « الفيلسوف .. والمرأة » التى ظهر منها كتابان يتحدثان عن المرأة وعمالقة الفكر اليونانى : سقراط[1] ، وأفلاطون ، وأرسطو . وفى كتابنا الحالى نعرض للعلاقة بين الفيلسوف المسيحى والمرأة . وإذا كان فلاسفة اليونان قد عبّروا ، نظرياً ، عن التراث السائد فى مجتمعهم ، مصداقاً لقول هيجل « إنَّ الفلسفة هى عصرها ملخصاً فى الفكر » ـ فسوف نجد فى كتابنا هذا مثالاً جيداً لسيطرة العادات والتقاليد وطغيانها على الفكر الدينى !

فعلى الرغم من الأفكار الإنسانية والمواقف الجديدة التى جاء بها السيد المسيح بالنسبة للمرأة ، ومنها مثلاً : أنه لم ينظر إليها على أنها « جسد » ، وعلى أن صورتها « عورة » ، كما أنه لم يرفض الاختلاط بين الجنسين ، وعالج المرأة كما عالج الرجل سواء بسواء ... إلى آخر هذه المواقف الجميلة التى سنتحدث عنها بالتفصيل فيما بعد ـ فقد توارت كلها ليحل محلها التراث (اليهودى ـ الرومانى) ، الذى كان قائماً فى ذلك الوقت ، والذى كان يمثل الأرض التى عملت عليها المسيحية عندما ظهرت . ومن المعروف أن التراث الرومانى كان امتداداً طبيعياً للتراث اليونانى بما يحمله للمرأة من كراهية ونظرة دونية . فضلاً عن أن التراث اليهودى كان يتبنى النظرة نفسها مع إضفاء صبغة دينية عليها ؛ محاولاً أن يجعلها « إلهية » أو « مقدسة » ، حتى استسلمت لها المرأة اليهودية فى نهاية الأمر ، واعتبرتها قضاء الله الذى لا راد لقضائه ! .

وهكذا نتبيّن أن الخلفية التى عملت عليها المسيحية منذ ظهورها لم تختلف قط عن

---

(١) جاء الحديث عن سقراط ضمن كتب « أفلاطون ... والمرأة » ذلك لأن سقراط لم يكتب شيئاً فى حياته ، وكان الكتاب الثانى عن « أرسطو ... والمرأة » ، ولقد ظهر عن مكتبة مدبولى بالقاهرة .

تراث التاريخ الماضى ، وهو تراث كان يعبِّر عن مصلحة الرجل ومنفعته فى مجتمع أبوى «ذكورى» يعمد إلى السيطرة على المرأة واعتبارها فى مرتبة أدنى . أما إذا كانت زوجة فقد أراد لها أن تبتعد عن كل إثارة ؛ حتى يضمن سلالة من الأبناء من صُلبه نقية « خالصة » ليس فيها دماء غريبة ؛ حتى ترث ما يملك !.

فإذا صحَّ ما قاله عالم الأنثروبولوجيا الأمريكى « لويس هنرى مورجان L. H. Morgan» (١٨١٨ ـ ١٨٨١) من وجود رابطة قوية بين الملكية الخاصة ووضع المرأة (والزوجة بصفة خاصة) لكان فى ذلك تفسير بالغ الوضوح لعزلة المرأة (الزوجة أو من تصلح أن تكون زوجة) و « تعقيمها » ولفها فى ثياب كثيفة ؛حتى لا يظهر من جسدها شيء فيكون مدعاة للإثارة والفتنة وجذب الرجال ! فالمرأة هنا هى « وعاء الذرية » الذى لابد أن يظل نقياً خالصاً من الشوائب ، ومن هنا كان لابد من حجبها عن الأنظار ؛ حتى نضمن سلالة من صلب الزوج صاحب هذه الملكية (سواء أكانت ملكية مادية أو معنوية: كالمرتبة ، أو الوضع الخاص فى المجتمع ، أو امتيازات خاصة يورِّثها الآباء إلى أبناءهم على نحو ما كانت عليه الحال عند اليونان والرومان) .

ومعنى ذلك أن هذه القيود التى فرضها المجتمع الأبوىّ على المرأة من أجل توريث الملكية الخاصة لم تكن معروفة فى المجتمعات التى سادتها شيوع الملكية ، فكان كل شيء فيه مشاعاً بين أفراد القبيلة ، ومن ثمَّ قيل : إن هذه المجتمعات نفسها سادتها الشيوعية الجنسية أيضاً : فلا أهمية للحجاب ، ولا لتغطية الجسد كله ، أو بعضه ... إلخ[1] يشهد

---

(١) ولقد كانت تلك هى الحال أيضاً بالنسبة للجوارى ؛ لأن ابن الجارية لا يرث شيئاً : فالحجاب كان أيضاً للتفرقة بين « المرأة الحرة » التى يرث أبناؤها ، والجارية التى لابد أن تمتنع عن وضع الحجاب . ومن هنا رأينا عمر بن الخطاب يضرب الجارية بالدِّرة إذا تحجَّبت وهو يقول « أتتشبهين بالحُرة؟! » ، انظر العقد الفريد لابن عبد ربه ، ولسان العرب لابن منظور ـ وأحمد الحوفى « المرأة فى الشعر الجاهلى » وعبد السلام الترمانينى « الرق : ماضيه وحاضره » العدد ٢٣ من سلسلة عالم المعرفة نوفمبر ١٩٧٩ .

على ذلك أيضاً حق الليلة الأولى Jus Primae Noct[1] .

وحق الليلة الأولى « كان حقاً مكفولاً يستمتع به الرجل الإقطاعى ـ طوال عهود الإقطاع ـ (بالنسبة للجوارى فقط !) ، فى مقابل أن يترك إحدى جواريه تخرج عن إساره وتتزوج ! .

ـ كما تشهد عليه أيضاً عادة تقديم الزوجات إلى الضيوف ، وهى عادة شهيرة مارستها شعوب بدائية كثيرة مثل الإسكيمو . وهى عادة كان لدى العرب عادة شبيهة بها فى الجاهلية تحت اسم « الاستبضاع » : وعندما يريد الرجل أن يكون له ولد نجيب أو شجاع ، يطلب من زوجته أن تذهب إلى من اشتهرت عنه هذه الصفة (النباهة ـ الفحولة ـ جمال الجسم ... إلخ) لتستبضع منه ، فإذا ولدت نُسب الولد إلى زوجها . وهى عادة عُرِفت أيضاً فى اسبرطة ، حيث كان مشرّعهم الأكبر ليكورجوس Lycurgus يسخر من الغيرة ومن احتكار الأزواج لزوجاتهم ، ويقول : « إن من أسخف الأشياء أن يُعنى الناس بكلابهم وخيلهم ، فيبذلون جهدهم ومالهم ليحصلوا منها على سلالة جيدة ، ثم نراهم يبقون زوجاتهم فى معزل ليختصوا بهن » !

وقل مثل ذلك فى « المخادنة » ، وقد ذهب الجغرافى الشهير .. « سترابو Strabon إلى أن هذا النوع من النكاح كان يجرى عند العرب فى الجاهلية بين الإخوة : « يشتركون فى المال وفى المرأة ، فلهم زوجة واحدة ، فإذا أراد أحدهم الاتصال بها وضع عصاه على باب الخيمة ؛ لتكون علامة على أن أحدهم بالداخل . وأما فى الليل فتكون من نصيب الأخ الأكبر[2] » .

---

(١) (أى معاشرة رئيس القبيلة أو الكاهن أو الساحر للعروس فى الليلة الأولى لزوجها) ......
وقد كان هذا الحق يُمارس فى حفل عام ، كما كانت الحال فى جزر ساموا Samoa حتى عهد قريب جداً ـ على نحو ما كشفت عالمة الأنثربولوجيا الأمريكية مارجريت ميد M. Mead (١٩٠١ ـ ١٩٧٨) . فى كتابها « البلوغ فى ساموا Coming of Age in Samoa » عام ١٩٢٨ .

(٢) ـ د. عبد السلام الترمانينى : « الزواج عند العرب فى الجاهلية والإسلام » سلسلة عالم المعرفة ، العدد رقم ٨٠ ـ أغسطس ١٩٨٤ ، ص ٢٢ ـ ٢٣ .

وباختصار ، فإننا نستطيع أن نقول مع سيمون دى بڤوار : « إن اضطهاد المرأة يرجع إلى الرغبة فى تخليد الأسرة ، والمحافظة على الملكية الخاصة . وبمقدار ما تتحرر المرأة من الأسرة فإنها تحرر من التبعية ، فإذا حرّم مجتمع ما الملكية الخاصة ... فإن وضع المرأة يتحسن تحسناً كبيراً . . .»[1] .

لكن الغريب حقاً ألاّ تستطيع الأديان ـ رغم سماحتها وتقديرها للمرأة كموجود بشرى ـ أن تتغلب على هذه الظاهرة : طغيان الرجل وسيطرته ، بل وملكيته للمرأة[2] . وهكذا يضيع إنصافها للمرأة وسط خضَمّ العادات والتقاليد الذى تتوارى معه الأفكار الإنسانية الجديدة ، لتعاود أفكار التراث القديم الظهور مرة أخرى .

وفى هذا الكتاب مثال جيد لما نقول : فالتراث القديم الذى كان سائداً فيما قبل ظهور المسيحية ـ وهو التراث (اليونانى ـ الرومانى) من ناحية ، واليهودى من ناحية أخرى ـ يحجب أفكار السيد المسيح الجديدة عن المرأة ، حتى أن بولس الرسول اليهودى الذى عاش فى بيئة يونانية ـ رومانية يأتى ليدعم التراث القديم ، ويثبت أفكاره ، ويضع حجر الأساس فى بناء النظرية المسيحية عن المرأة التى سادت عصر الآباء الفلاسفة ، كما رددها فلاسفة العصر الوسيط أيضاً !

وسوف نلاحظ طوال هذا البحث أن نظرة اللاهوتيين والفلاسفة المسيحيين ـ كعادة رجال الدين دائماً ـ تركز على « الجنس » ؛ فالمرأة لا هى إنسانة ، ولا صديقة ، ولا زميلة .. إلخ ، ولكنها مجرد « وعاء للتناسل » كما سيقول القديس « أوغسطين » الذى مارس الزنى مع كثير من الغوانى فى شبابه ، حتى اختص نفسه فى النهاية « بغانية » أنجب منها ابناً سماه « ابن خطيئتى » ! ثم ندم على حياته الماضية ندماً شديداً حتى ود لو كان

---

(١) Simone de Beauvoir: The Second Sex Eng. Trans. By M. Parshley- Penguin Books 1987, P. 120-121 .

(٢) لا يزال عقد القران فى بعض المجتمعات العربية حتى الآن يسمى « عقد الملكة » !

«خصياً » ! يقول « .. آه ! لو أنى ارتضيت أن أكون خَصِياً ـ حُباً فى مملكة السماء ـ لكنتُ الآن أوفر سعادة »!

أما أورجين السكندرى Orgien (١٨٥ ـ ٢٥٤) ، فقد نفَّذ هذه الأمنية بالفعل عندما نذر نفسه للعفة الدائمة ؛ فقام ببتر أعضائه الجنسية فخصى نفسه ! لأنه لم يكن جامداً بليدَ الإحساس بحيث يصمد أمام مغريات الجسد على حد عبيره[1] .... !

وسوف يلاحظ القارئ طوال هذا البحث أمرين : كراهية الجسد ، وهى التى كانت فلسفية عند أفلاطون ، وقد أصبحت دينية عند الفيلسوف المسيحى . كما لو كان الجسد شيئاً منفصلاً عن الإنسان ! وهو موضوع فصَّلت فيه الفلسفة الوجودية المعاصرة ، وأجادت لفت الأنظار إلى أهميته . والأمر الثانى هو : الماضى « الملوَّث » لكثير من القديسين الذين تركوا الحبل « على الغارب » فى فترة الشباب ، ثم عادوا فى شيخوختهم إلى الندم والبحث عن « كبش فداء » يلقون عليه باللائمة ؛ فتكون « المرأة » : تلك الشيطانة الجميلة التى دعتنى فلبيت !

ومنهم من واصل النزوات حتى قام أهل الفتاة بقطع أعضائه الجنسية وهو نائم ! على نحو ما حدث للفيلسوف اللاهوتى الفرنسى بطرس أبيلارد P. Abelard (١٠٧٩ ـ ١١٤٢) الذى كان أعظم أستاذ للاهوت فى عصره ، وأعظم بطل للحب أيضاً ... ! فقد أحب تلميذته الصغيرة « هلويز Heloise » وكان ذلك عام ١١١٨ وهو فى سن التاسعة والثلاثين ، وكانت هى فى السابعة عشر من عمرها (ولدت عام ١١٠١ ـ وتوفيت سنة

---

(٢) يقول إدوارد جيبون : « كان هذا العمل الشاذ الذى قام به « أورجين » يدعو إلى الإعجاب أكثر مما يدعو إلى اللوم » وقد كان من عادة « أورجين » أن يؤوِّل الأسفار المنزلة ، لكن يبدو ـ لسوء الحظ ـ أنه ها هنا فقط لم يلجأ إلى التأويل ، بل اقتبس المعنى الحرفى . ! قارن مثلاً « اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » ترجمة محمد أبو درة ، ومراجعة أحمد نجيب هاشم ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر . المجلد الأول ص ٣٦٥ .

١١٦٤) وكانت بنت أخى فولبرت Fulbert كاهن كنيسة نوتردام . وكانت العلاقة فى البداية سرية ... إلى أن حملت الفتاة ، ثم ولدت ابناً سُمى « أسترولاب Astrolabe » . عندئذ قرر العم الانتقام من أبيلارد ؛ فكانت المؤامرة وهو نائم ! فقرر « أبيلارد » الاعتزال فى « دير سان دنى Saint - Denis » فى ضواحى باريس ، واندرجت حبيبته « هلويز » فى دير «أرجنتى Argentenil » ... !

وسوف يجد القارئ أمثلة كثيرة يمكن أن تفسر الكراهية « غير العادية » للجنس بردها إلى عوال نفسية وشخصية قد تجد تأويلاتها عند « فرويد S. Freud (١٨٥٦ ـ ١٩٣٩) ومدرسته !

وإنى لآمل أن أكون بهذه السلسلة عموماً ، وهذا الكتاب على وجه الخصوص ، قد أسهمتُ مساهمة متواضعة فى تحرير « الجنس الآخر » ، وفى تشغيل « الرئة المعطلة » ؛ حتى تتنفس كبقية خلق الله من الرجال ...

والله نسأل أن يهدينا جميعاً سبيل الرشاد ...

الكويت فى يونية ١٩٩٥

إمام عبد الفتاح إمام

الفصل الأول

« ما قبل ظهور المسيحية »

« ليس للنساء ولاية الأعمال ... بل لابد من جعلهن تحت الوصاية ، حتى إنْ بلغن سن الأهلية ؛ لطيشان عقولهن .. »

مدونة جوستنيان

« مَنْ ذا الذى يستطيع أن يعثر على امرأة فاضلة ؟ إنَّ ثمنها يفوق ثمن اللآلئ والياقوت ... ! »

سفر الأمثال - إصحاح ٣١ : ١٠

تمهيد

ظهرت المسيحية فى فلسطين فى عصر كانت فيه السلطة المدنية للرومان والسلطة الدينية لليهود ، وهكذا .. تنازعت الديانة الوليدة سلطتان متباينتان ومختلفتان فى كثير جداً من الأمور ، لكنهما تلتقيان عند شئ واحد هو :كراهية المرأة ، أو قل بتعبير أدق: « النظرة الدونية إلى المرأة[1] .

ومن المفارقات الغريبة أنه على الرغم من أن المسيحية قد أتت بأفكار جديدة وإنسانية عن المرأة ، وربما استطعنا أن نقول إنها أنصفت المرأة فى كثير من المواقف ، على نحو ما سنرى بعد قليل فى مواقف السيد المسيح مع نساء عصره ـ أقول رغم هذه المواقف الجديدة فإن السلطتين السابقتين ـ بما لها من نظرة عدائية تجاه النساء ـ استطاعتا التغلب على ما أتت به المسيحية من عناصر الإنصاف ، بل طمست هذه الجوانب تماماً ، لتعود النظرة العدائية القديمة مرة أخرى ، مرتدية ثوباً مسيحياً على يد القديسيين من الفلاسفة : سواء فى عصر الآباء الذى يمثل طلائع الفلسفة المسيحية ، أو فى بداية العصور الوسطى على يد القديس أوغسطين St . Augustine (٣٥٤ ـ ٤٣٠) ، أو فى نهايتها على يد القديس توما الأكوينى St . Thomas Aqunas (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤) .

ولقد ورثت المسيحية عن اليهودية نظرتها إلى الأنثى ، وما فيها من استخفاف بعقلها ، وبُغض لعواطفها وانفعالاتها ، واحتقار لجسدها الذى اعتبرته : مكمن الداء ، ومصدر الفساد

---

(١) الرأى القائل بأن البيئة التى ظهر فيها السيد المسيح كانت بيئة وثنية : وأن جهده التبشيرى الأول كان فى المناطق الوثنية لا اليهودية وأن جموع الفلاحين العرب فى شمال فلسطين وجنوب لبنان هى التى كانت تحتشد حوله حينما بدأ يبشر » فكور سحاب : « العرب وتاريخ المسألة المسيحية » دار الوحدة . بيروت ١٩٨٦ ص٢٠ ـ ذلك كله لا يطعن فيما يقول ؛ لأن الديانات كانت بدورها تحمل نفس القدر من الكراهية للمرأة . وما نريد إبرازه هو أن الفكرة المسيحية التى جاء بها السيد المسيح عن المرأة، رغم طرافتها ، لم تستطع أن تتغلب على التقليد الموروث .

فى المجتمع ، وأصل الشر فى الكون ، وبداية انحراف السلوك الإنسانى منذ بدأ الخلق . ثم أضافت إليها من عناصر الفكرين : الإغريقى ، والرومانى ما عضّد تلك النظرة وجعلها متماسكة ، ولاسيما بعد أن استعار آباء الكنيسة نظرية أرسطو عن المرأة[1] .

(تلك التى سبق أن عرضنا لها فى شئ من التفصيل فى العدد السابق من هذه السلسلة) وحاولوا من خلال أرسطو تحديد العلاقة بين كل من الذكر والأنثى تحديداً هيراركياً تصاعدياً ، بحيث يكون الذكر هو الأعلى ؛ لأنه : الصورة ، والماهية ، والفكر ، والعقل . فى حين أن الأنثى هى : المادة ، والجسد ، والانفعال ، والعاطفة .

ولقد سبق أن رأينا كيف أن الجنين عند أرسطو يتخلق من الحيوانات المنوية للذكر وحده ؛ فهو العامل الفعال والمؤثر فى التلقيح ، ولا يتعدى دور المرأة تقديم المادة المتمثلة فى دماء الطمث ، وضم الجنين إلى رحمها ، وإمداده بالغذاء :كالدم ، وبقية العناصر المفيدة للجسم . ولما كان الذكر هو الأساس فى عملية التكوين ، فإن الأصل فى الجنين أن يكون ذكراً، لكنه يتحول إلى أنثى إذا ما طغت المواد الأنثوية السفلية على المواد العلوية التى يقذفها الذكر ـ وهكذا تكون الأنثى ذكراً ناقص التكوين ـ ... ولقد أفاض القديس توما الأكوينى فى شرح هذه الفكرة الأرسطية على نحو ما سنعرف خلال هذا البحث .

على أن أهم ما أضافته المسيحية (ولا سيما مسيحية بولس) لإعلاء قيمة الذكور والغض من مكانة الإناث هى حقيقة التثليث والخلاص : فالمخلص المنقذ للبشرية هو ابن الرب، الذى جاد بنفسه على الصليب لينتزع العالم من براثن الشرور التى أو قعته فيها خطيئة البشر الأزلية ، بعد أن عصت المرأة (حواء) أوامر الرب ، وأغوت الرجل (آدم) على التمرد ، مستجيبة ومستسلمة للشيطان (الحية) .

ومن الطبيعى أن تكون النتيجة المباشرة لتلك العقيدة هى : إعلاء مكانة الرجل المسكين الذى أضلته الأنثى ! أما منزلة المرأة فقد ازدادت انحطاطاً عما كانت عليه من قبل !! .

---

(١) راجع العدد الثانى من سلسلة الفيلسوف والمرأة بعنوان أرسطو والمرأة مكتبة مدبولى بالقاهرة .

القسم الأول : الخلفية المدنية الرومانية :

لم تختلف الأمور فى روما القديمة كثيراً عما كانت عليه فى أثينا ، بصفة خاصة ، وفى الثقافة اليونانية بصفة عامة ؛ فالمدينة هى الوحدة السياسية . ودولة المدينة تتألف من مواطنين رومانيين أحرار متساوين فى الحقوق والامتيازات ، أما بقية الرعايا فهم : إما أجانب ، وإما عبيد . أما الأجانب فليست لهم حقوق ، ولا امتيازات إلا بقدر ما يقدمه إليهم المواطنون الرومان طواعية . ثم هناك ـ كما هى الحال فى جميع المدن القديمة ـ عدد ضخم من العبيد : رجال ونساء ، جاءوا ـ فى الأعم الأغلب ـ عن طريق الأسر[1] .

وعلى ذلك ففى استطاعتنا أن نقول إن هناك ثلاث فئات من السكان :ـ

الأولى : المواطنين الرومان الأحرار ، وهم أصحاب الحقوق والامتيازات الكاملة .

الثانية : الأجانب ، وهم رعايا بغير حقوق ولا امتيازات .

الثالثة : العبيد الذين يُنظَرُ إليهم على أنهم ملكية خاصة لسادتهم .

ولقد كانت تلك هى الحال تماماً فى المدينة اليونانية القديمة بتصنيف سكانها . غير أن تطور المدينة الرومانية اتخذ مساراً يختلف عن مسار المدينة اليونانية ؛ فقد مد الرومان امتيازاتهم ، بالتدريج ، وتوسعوا فيها حتى تحول شعب المدينة إلى أمة ، ثم أصبحت فى النهاية هى العالم المتحضر . ولم يكن للأجانب شخصية متميزة فى روما ـ على نحو ما كانوا فى أثينا ـ اللهم إلا إذا نظرنا إلى العامة والغوغاء على أنهم أجانب ، لكن مع مرور الزمن تحول كثير من هؤلاء العامة والرعاع إلى مواطنين ، واختفى كل ما يميزهم عن المواطنين الأصليين ، فضلاً عن أنه كان للرقيب Censor[2] الحق فى أن يضع اسم

---

(١) James Donaldson : Wonan : HER Position and Infleuence in Ancient Greece and Rome, and Among the Early Christians Gordon Press, New York 1973, P. 77 .

(٢) اثنان من القضاة فى روما القديمة يقومان بإحصاء وتسجيل المواطنين ، ومراقبة الأخلاق العامة ، وسلوك الأفراد .

الأجنبى فى قائمة المواطنين ، ولا شك أن كثيراً من الأجانب قد تحولوا بهذه الطريقة إلى مواطنين رومانيين .

أولاً : المرأة فى روما القديمة :

بناء على القسمة الثلاثية السابقة لفئات السكان فى روما القديمة كان المجتمع الرومانى يشتمل على ثلاث طبقات من النساء على النحو التالى :

(أ) المواطنة الرومانية الحرة ، وهى: الزوجة، والأم ، وربة المنزل أو السيدة Domina .

(ب) المرأة الأجنبية : وهى مثل الرجل الأجنبى ، بلا حقوق أو امتيازات[١] .

(جـ) الجوارى: وهن ملك خاص لسيدهن[٢] .

وسوف نسوق كلمة عن كل طبقة .

أ ـ المواطنة الرومانية الحرة :

ربما أعطتنا مدونة جوستنيان فى قسم عنوانه تقريرات خاصة بالنساء والزواج[٣] فكرة واضحة عن وضع المرأة فى المجتمع الرومانى ، علماً بأن المقصود بالمرأة هنا : المواطنة الرومانية الحرة لا الأجنبية ولا الجارية. تقول المدونة[٤] :

(١) ليس للنساء ولاية الأعمال العامة .

(٣) رأى القدماء جعل النساء تحت الوصاية ، ولو بلغن سن الأهلية لطيشان عقولهن.

(١١) على النساء الخضوع لأزواجهن .

---

(١) J . Donaldson : Op . Cit . P . 78

(٢) Ibid, P . 80 .

(٣) مدونة جوستنيان فى الفقه الرومانى ـ نقلها إلى العربية عبد العزيز فهمى ـ عالم الكتب ، بيروت ص ٣٩٨ .

(٤) أبقينا على الأرقام الأصلية للبند كما هى فى المدونة .

(١٣) على المرأة أن تتبع زوجها مالم يكن أفَّاقاً .

(١٤) الرجال قوَّامون على نسائهم .

(١٦) المرأة دون الرجل فى كثيرٍ من أحكام القوانين .

(١٧) تجوز المقايضة على المهر أثناء قيام الزوجية متى كان هذا فى صالح المرأة .

(١٨) من صالح الجمهورية احتفاظ النساء بمهورهن ؛ ليكون ذلك عوناً لهن على التزوج مرة أخرى .

وهكذا يتضح لنا ـ من قراءة بعض المواد القانونية التى جمعتها مدونة جوستنيان ـ أنه على الصعيد القانونى لا وجود إلا للرجل .[١] أما المرأة فتظل تحت الوصاية طوال حياتها ، كما أن الرجل هو الذى يهيمن أيضاً على الحياة الدينية ؛ فالأب هو رب الأسرة وكاهنها الأكبر ، وهو وحده المخول بتأمين استمرار عبادة الأجداد .

ونحن نلاحظ فى المادة الأولى من مدونة جوستنيان السابقة أنه لا ولاية للنساء على الأعمال العامة ، فهى فى الحياة العامة ، مثلاً ، مستبعدة من سائر الوظائف العامة التى يطلق عليها لهذا السبب اسم « الوظائف الذكورية » ، أو « وظائف الرجال Officia Virilia » . ولم يحدث قط أن قام المجتمع الرومانى بتشجيع النساء على القيام بنفس الأنشطة التى يقوم بها الرجال[٢] .

أما القول بأن النساء لابد أن يخضعن للوصاية ولو بلغن سن الأهلية لطيشان عقولهن فإننا نستطيع أن نقول : إن السبب فى هذا الطيشان العقلى يرجع فى الواقع إلى عادة الرومان

---

(١) ربما كان اختفاء النساء ظاهراً منذ تأسيس روما ـ انظر مثلاً ملاحظة مونييك بيستر ذات المغزى «... رضع مؤسسا روما : رومولس Romulus ، وشقيقه ريموس Remus ـ كما تقول الأسطورة ـ من ثدى ذئبة . أما أمهما البشرية فذكراها ممحوة » المرأة عبر التاريخ ترجمة هنريت عبود ص٧٧ .

(٢) Sarah B. Pomperoy " Goddess, Whores, Wifes, and Slaves : Women In Classical Antiquity " Shocken Books N . Y . P X .

عقد قرانهم على شابات صغيرات ، بل على فتيات لم يبلغن بعد ؛ فقد كان سن الزواج القانونى للفتاة اثنتى عشرة سنة. وهناك قصة شهيرة رواها (بلوتارك) عن كورنيليا Cor-nelia والدة الشقيقين جراكوس Grachus ، نستطيع أن نقف فيها على مأساة الزواج المبكر للفتاة فى المجتمع الرومانى فلقد أمسك زوجها تبريوس Teberius بثعبانين فى فراشه ، وراح يستشير العرافين فى أمرهما ، فأخبروه بعدم قتلهما وتركهما لحال سبيلهما ؛ ذلك لأنه إذا قتل الثعبان « الذكر » مات هو نفسه ، أما إذا قتل الثعبان « الأنثى » فسوف تموت زوجته كورنيليا . ولكن الرجل قتل الثعبان الذكر، ولم يشأ أن يقتل الثعبان الأنثى خوفاً على زوجته التى كانت تصغره بسنوات كثيرة . وبعد هذه الحادثة بفترة وجيزة توفى مصداقاً للنبوءة، وترملت زوجته كورنيليا وهى فى الخامسة والعشرين من عمرها ، فى الوقت الذى كانت فيه أماً لاثنى عشر ولداً (١) .

ومن هذه القصة نتبين أن كورنيليا تزوجت فى الثانية عشر أو الثالثة عشرة من عمرها، أى مجرد طفلة لا تعى شيئاً ، فليس غريباً إذن أن يذهب المشرع إلى طيشان العقل أو خفته عند النساء .! بل ربما تحدد مصير الفتاة وهى لا تزال فى المهد ، عندما كانت تُعقد اتفاقات الزواج بين الآباء الذين يرغبون فى توسيع رقعة تحالفهم ، أو فى تأمين الدعم المطلوب لعملهم أو وظائفهم .

ولعل نظام الوصاية يوضح أيضاً وضع المرأة التى كانت تخضع لعبودية الرجل ، وهى فتاة فى منزل والدها ، ثم لعبودية الرجل ، وهى زوجة فى منزل زوجها : فهى هنا تصبح بمثابة بنت من بناته ؛ فتنقطع علاقاتها بأسرتها انقطاعاً تاماً ، ويحل زوجها محل أبيها .

غير أننا لا بد أن نشير إلى أن المرأة الرومانية لم تكن تعانى من سلبيات الفصل الصارم بين الجنسين الذى طبع المجتمع اليونانى بقسوة فى العصر الكلاسيكى(٢) ، رغم وجود

(١) James Donaldson : Woman: Her Position and Influence ... P . 85

(٢) راجع بصدد العصر الكلاسيكى عند اليونان ـ العدد الأول من هذه السلسلة بعنوان « أفلاطون والمرأة » مكتبة مدبولى بالقاهرة .

«الحريم» كذلك فى الأسرة الرومانية ـ فقد كانت الفتاة الصغيرة تربى مع شقيقها ، وتحصل على تعليم مماثل لتعليمه ،كما كانت المدارس الرومانية مختلطة ، وكانت الزوجة ـ هى السيدة Domina ـ تتناول طعامها مع زوجها ، كما كان للأم دور تربوى هام تمارسه حتى مع أبنائها ، كما تشهد بذلك أمثلة كورنيليا والدة الشقيقين جراكوس التى تحدثنا عنها منذ قليل ، فقد ألهبت حماس أبنائها ، بعد وفاة زجها ، لمواجهة الشرور التى تهدد الدولة ، ،لم يفتر حماسها عندما علمت أنهما قد يواجهان الموت فى سبيل قضية بلادها[١].

ومع اعترافنا بذلك كله ، إلا أن الزوجة الرومانية كانت أيضاً تخضع خضوعاً كاملاً لسيطرة زوجها ، وإن بدأت هذه السيطرة تضعف بالتدريج نتيجة لعوامل متعددة ومؤثرات كثيرة سوف نتحدث عن بعضها بعد قليل . فالفكر الرومانى يجعل من الأب مستبداً له سلطة الحياة والموت على أولاده الذين لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً دون موافقته. وتلك هى الحال أيضاً بالنسبة للأطفال الذكور ، حتى بعد أن يبلغوا سن النضج . ولقد كانت النساء عند الرومان القدامى ـ بصفة عامة ـ أطفالاً يحتجن طوال حياتهن إلى : توجيه ، ورعاية ، وحماية ، ويستحيل أن يتحررن من قبضة الرجل المستبد .

ومن ثم فقد كان على الفتاة الرومانية عندما تتزوج أن تختار بين نوعين من الزواج : الزواج بوضع اليد Cum Manu : وهو زواج يتبعه وضع العروس وما تملك تحت سلطان زوجها أو والده ، وهنا يقوم الأب بنفسه بتسليم الفتاة إلى يد زوجها أو وضعها تحت سيطرته . أما النوع الثانى من الزواج فهو : الزواج بدون تسليم Sin Manu ، وفيه تظل الفتاة وما تملك تحت سلطان والدها. وكان هناك نوع ثالث يعرف بالزواج بطريقة « الكنفرياشيو Confarretion ـ ومعناها أكل الكعك معاً ـ وكان هذا النوع الأخير يتطلب حفلاً دينياً خاصاً تجرى مراسيمه أمام مذبح إلاله چوبتر Jupiter بحضور كاهنه الأعظم وعشرة شهود ، وهو زواج لا يتم فى العادة إلا بين الأشراف والنبلاء .

(١) J . Donaldson : Op . Cit . P . 120 .

وكانت مراسيم الزواج ، عموماً ، تبدأ بانقطاع اشتراك الفتاة فى طقوس عائلتها إذا ما طلبها الشاب للزواج ، فتكف فى الحال عن الاشتراك فى هذه المراسم الدينية الخاصة بعائلتها ؛ لكى تشترك فى مراسم عائلة من سيتزوجها. ويقام حفل الزواج فى المنزل ، ويقدم والد الفتاة ذبيحة للأسلاف ، ثم يعلن فى نهاية الحفل عن تسليم ابنته إلى الشاب طالب الزواج منها ، ثم يقود الشاب زوجته إلى داره وهى محجبة ويسير خلفها حملة المشاعل وهم يرتلون أناشيد الزواج على أنغام المزامير ، فإذا وصلوا إلى عتبة الدار تظاهرت الزوجة بالامتناع عن الدخول ، فيتقدم منها العريس ويسألها : من أنت ؟ فتجيب بعبارة بسيطة تشعره بوفائها وانضمامها إليه : حيث تكون أنت جايوس ، أكون أنا جايا Ubi Tu Gaius, EgoGaia : أى حيث تكون أنت السيد أكون أنا السيدة . عندئذ يتقدم منها العريس ويحملها بين ذراعيه ليرفعها فوق عتبة المنزل ـ إذ لا يجوز أن تلمس قدمها عتبة الباب ـ ويقدم لها المفاتيح ، ثم يضع عنقه وعنقها تحت نير واحد (إشارة إلى الرابطة المشتركة بينهما) وأخيراً : تشترك العروس فى الصلاة لآلهة الأسرة الجديدة التى انضمت إليها معلنة بذلك دخولها فى ديانة الزوج وانفصالها تماماً عن أسرتها القديمة[١] .

وكثيراً ما كانت الفتاة تفضِّل الزواج بوضع اليد الذى تنتقل فيه من سلطة والدها إلى يد زوجها . وفى هذه الحالة كانت تشغل نفس المنزلة التى تشغلها ابنة الزوج ، أعنى : أن تصبح خاضعة للزوج وتحت رحمته .

وفى منزل الزوجية كان عليها أن تقوم بواجب إدارة المنزل ، والإشراف على العبيد وتمريضهم ، وأعمال الغزل والنسيج ، والحياكة .. إلخ وعليها أن تكون حذرة فى سلوكها ؛

---

(١) هناك تفصيلات كثيرة للزواج الرومانى : أنواعه وطرقه ... إلخ انظر مثلاً ما يقوله «ول ديورانت» فى قصة الحضارة المجلد التاسع ترجمة محمد بدران ص١٤١ وما بعدها . وأيضاً الأستاذ عبد الهادى عباس : المرأة والأسرة فى حضارات الشعوب وأنظمتها ـ المجلد الثانى دار طلاس بدمشق ص٧٠٩ وما بعدها وكذلك مونييك بيتر : المرأة عبر التاريخ . ترجمة هنريت عبود ، دار الطليعة ، بيروت ص٧٩ وما بعدها .

ذلك لأن أقل حماقة ترتكبها يمكن أن تكون عقوبتها الإعدام ، فى حين أن الرجل يستطيع أن يفعل ما يشاء ، ومن هنا يقول كاتو الأكبر Cato the Censor[1] :

« إذا وجدت زوجتك تزنى فإن القانون يتيح لك أن تقتلها بلا محاكمة . أما إذا فاجأتك ، مصادفة ، وأنت ترتكب هذه الجريمة نفسها فليس لها أن تَمَسَّك حتى بأطراف أصابعها ؛ لأن القانون يحرم عليها ذلك ... »[2] كما كان القانون الرومانى أيضاً يحرم على الزوجات شرب الخمر فإذا غامرت الزوجة بارتكاب هذه الجريمة ، وُقِّعَتْ عليها أقسى العقوبات ؛ ذلك لأنها بشربها للخمر فإنها تُدخل فى جسدها مادة سرية لا يمكن معرفة نتائجها ؛ ولهذا كان من حق الزوج الذى يضبط زوجته وهى تعاقر الخمر أن يضربها حتى الموت ؛ ويروى المؤرخون أحداثاً كثيرة تدل على الوضع المتدنى للمرأة الرومانية ـ على الأقل فى عصورها الأولى ـ فهذا زوج يطرد زوجته من بيته لأنه رآها تسير فى الشارع دون خمار، وذاك يطرد زوجته لأنه رآها تتحدث سراً مع امرأة كانت جارية وأعتقت حديثاً ، فوقفت الزوجة تتبادل معها الحديث فى الطريق العام فارتكبت بذلك جريمة لا تغتفر . وثالث يطرد زوجته لأنها جرؤت على الذهاب إلى المباريات العماة دون إذنه[3] .

وليس فى استطاعتنا أن نتتبع تطور المرأة الرومانية ومسار تحررها ، لكننا نستطيع أن نشير إلى بعض المؤشرات الاجتماعية فى هذا الاتجاه :

أولاً : تشير السجلات الرومانية أنه كان من الخطأ أن يستهين الرجال بمشاعر النساء الرومانيات ؛ فقد أثبتن أن لهن شخصية قادرة على اتخاذ القرار وتنفيذه كالرجال سواء بسواء ، وفى استطاعتهن الإقدام على خطوات هامة وجريئة دون الاكتراث بالنتائج ، فى محاولة للبرهنة على أنهن إذا ما عوملن برقة ، وبألفاظ مهذبة كن أفضل الزوجات .

---

(١) كاتو الأكبر (٢٣٤ ـ ١٤٩ ق . م) أوكاتو الكنسور ، سياسى رومانى اشتهر بالتمسك بالتقاليد اليونانية القدية كان يهاجم الترف والإسراف والعادات الجديدة التى اقتبسها الرومان من الإغريق .

(٢) Outed by James Donaldson : Woman : " Her Position ... " P . 88 .

(٣) Ibid, P. 89 .

أما إذا استخدم الأزواج سلطانهم التقليدى ، واندفعوا بحماقة نحو السيطرة الكاملة عليهن فإن النساء قد تقاوم بل وتتحدى فى شجاعة و إقدام . ولعل القصة الآتية تكون أبلغ رد على كل من يتساءل : لماذا لم نسمع عن محاولة للرد من النساء ؟ ولماذا استسلمن فى خشوع وجبن حتى ظهر من الرجال من يدعو إلى تحريرهن ؟ ولماذا لم نسمع عن ثورة النساء فى روما كما سمعنا عن ثورة العبيد ؟ لماذا لا تحاول المرأة النهوض للدفاع عن كرامتها وعن حقوقها ؟ ويجيب التاريخ الرومانى عن هذه الأسئلة عندما يلقى الضوء على هذا الجانب من شخصية المرأة مبيناً أنها كثيراً ما تلجأ إلى الانتقام العنيف عندما يتمادى الأزواج فى سيطرتهم واستبدادهم وغطرستهم . وإليك هذه القصة[1] :

فى عام (٣٣١ ق . م) انتشر فى روما مرض غريب لم يسمع عنه أحد من قبل، وقد هاجم هذا المرض مجموعة كبيرة من المواطنين ـ من بينهم عدد كبير من النبلاء والأشراف الرومان وكانت أعراض المرض المجهول واحدة عند الجميع تقريباً ،كما كانت النتيجة واحدة أيضاً : الموت ، ومن ثم هلاك الجميع . ! وأحاط الغموض بهذه القضية التى تحدثت عنها روما كلها ، وظل فترة طويلة سراً مجهولاً لا يعرفه أحد ، إلى أن ذهبت خادمة إلى الشرطة الرومانية ذات صباح ، وقالت إنها تستطيع أن تفسر أصل هذا المرض المنتشر ؛ فهى تعرف أسبابه ، لكنها لن تفعل ذلك ما لم يضمن لها أولو الأمر الحماية الضرورية ويضمنوا أنها لن تعانى ألماً أو ضرباً أو تعذيباً نتيجة إفشاء السر . ولما عُرض الأمر على القنصل، ومستشار مجلس الشيوخ ؛ أصدر المجلس قراراً بحماية الخادمة ، عندئذ كشفت الخادمة عن سر هذا الوباء الذى اجتاح روما وهو : أن الزوجات فى لحظة تمرد ضد أزواجهن مزجن الخمر بنوع معين من أنواع السموم وهذا هو السبب فى هذه النسبة العالية من الوفيات : إنها نتيجة التسمم . واستطاعت الخادمة أن تصحب معها بعض المسؤولين ليذهبوا خلسة لرؤية إحدى

---

(١) روى هذه القصة أشهر مؤرخى روما ؛ تيتوس ليفوس Titus Livius الشهير بليفى Livy (٥٩ ق . م ـ ١٧ م) انظر المرجع السابق ص٩١ .

ربات البيوت وهى تقوم بعملية مزج الخمر بالسموم . واستطاعت هذه اللجنة أن تكشف أمر أكثر من عشرين سيدة من ربات البيوت تقوم بتحضير هذا السائل الغريب ومن الطريف أن الزوجات بعد أن افتضح أمرهن ، تداولن الأمر فيما بينهن ، وتقدمن فى جرأة وثبات وتجرّعن كميات كبيرة من هذا السم أودت بحياتهن فى الحال .! وبعد ذلك عقد مجلس الشيوخ « جلسة » يبحث هذا الموضوع على نطاق واسع ، وكان من نتيجة ذلك أن اكتشف أن هناك أكثر من ١٧٠ سيدة مذنبة! .

الغريب أن الرجال فسروا هذه الحادثة على أنها ضرب من الجنون والخبل النسائى ، وإن كان من المؤكد أنهم على علم تام بالأسباب التى جعلت النساء تلجأ إلى مثل هذه الإجراءات العنيفة ، والخلاصة : أن الزوجات الرومانيات لم يستسلمن أو يخضعن لطغيان الأزواج بلا مقاومة ، أو دون أن يبذلن الجهد لوضع نهاية لهذا الطغيان بطريقة أو بأخرى[1].

ثانيا : من ناحية أخرى فقد وقعت حادثة مشابهة عام ١٨٠ ق . م لكن الطاعون ـ فى هذه المرة ـ كان حقيقياً ، واستمر ثلاث سنوات يهدد إيطاليا كلها . وكان الخلاف قد نشب بين الرجال والنساء فيما يتعلق بالأسرار الباخوسية[2] ؛ إذا اتخذ الرجال ضدهن إجراءات مشددة عندما حل الطاعون بالبلاد ؛ فشعرت النساء كما لو أن انتشار المرض قد أتاح لهن الفرصة المناسبة لاستخدام السم . ويرى ليفى Livy « المؤرخ » أنه فى هذا العام مات البريطور Praetor[3] ، والقنصل Consul[4] ، وعدد كبير آخر من رجالات روما

---

(١) J . Donaldson : "Woman : Her Position ... " . P 90 - 91 .

(٢) نسبة إلى الإله باخوس Bachus إله الخمر والنشوة عند الرومان (وهو نفسه ديونسيوس عند اليونان) كان النساء شديدات التعلق باحتفالاته المعربدة حيث يهجرن دورهن وأعمالهن ويهمن فى الجبال ، وهن يرقصن رقصات هستيرية يدُرْنَ فيها حول أنفسهن «كرقص الزار عندنا الآن» .

(٣) منصب القاضى عند الرومان ، وكان ينتخب كل عام ، ويقوم أحياناً بمهام القنصل .

(٤) كان يحكم روما القديمة عادة قنصلان ينتخبان سنوياً ، وكانت لهما سلطة عليا إبان الجمهورية الرومانية .

البارزين . وعُيِّنَ أحد القضاة للبحث فى أسباب هذه الوفيات ، وبصفة خاصة : لدراسة حالات التسمم ، ولا يروى المؤرخون ما أسفرت عنه هذه التحقيقات ، لكن ما نعرفه أن زوجة القنصل تمت محاكمتها وأُدينت ، وحُكم عليها بالموت .

ثالثاً : بعد هذه الحادثة بست وثلاثين سنة قُتِل شخصان فى مرتبة القنصل بطريقة واحدة ، وهى نفس الطريقة السابقة (أعنى أن تضع الزوجة السم لزجها فى الشراب) حتى لقد أصبح السم فى عصور تالية أمراً شائعاً ولاسيما فى السنوات الأولى من الإمبراطورية الرومانية . واتهمت فيها ربات البيوت . ومن الطريف أن النساء أَعْلَنَّ أمام المحكمة أنهن سيواصلن دس السم للرجال للتخلص منهم ، سواء أكانوا أزواجاً أو أبناء ، أو حتى من يرتبط بهم من الرجال، بما فيهم الأجانب أيضاً .

وسواء أكانت هذه القصص حقيقية أم من نسج الخيال ، فإن الأمر المهم حقاً هو أن الرومان كانوا يعتقدون بصحتها ، ويجسدون « بروايتها » الإيمان الرومانى بما تستطيع المرأة أن تفعله ، أو ما نسميه نحن الآن : كيد النساء ، ولكنها على كل حال بالنسبة لنا مجرد إشارات إلى ما كانت شعر به ربة المنزل الرومانية فى كثير من الأحيان نحو أولئك الذين كانوا يعاملونها معاملة سيئة ، وهى دعوة إلى التمرد : فلا ينبغى عليهن تحمل هذه المعاملة السيئة ، وعليهن المقاومة ، والانتقام بشتى السبل ، بما فى ذلك : دس السم ! .

(ب) المرأة الأجنبية :

إذا كانت روما قد اهتمت بالمرأة الرومانية ، وأولت رعاية خاصة لطهارتها وعفتها ؛ حتى تنجب ذرية رومانية ترث ما للرجل الرومانى من ممتلكات بالمعنى الواسع للكلمة الذى يشمل الأرض والمال والعقار ، كما يشمل الامتيازات والحقوق السياسية التى لا تُمنح لأحد غيره ، وجعلت هدف الزواج نفسه إنتاج « جنس من المواطنين » ينتمى فيه الأب

والأم إلى فئة « المواطن الرومانى » صاحب الحقوق والامتيازات ـ فإنها لم تكن تهتم أدنى اهتمام بسلوك الرجل الرومانى : فهو من حقه أن يمارس الجنس مع المرأة الأجنبية (وكذلك الجارية) لكن ذريته من هذه المرأة غير معترف بها ؛ فهى لا ترث شيئاً لأنها لا تعد من المواطنين الرومانيين . ومن ثم فإن الدولة لا تكترث على الإطلاق بالعلاقات التى تنشأ بين المواطن الرومانى والنساء الأجنبيات أو الجوارى ،كما أن المجتمع بدوره لا يقيم لها وزناً .

ولقد ظهر عدد قليل من النساء الأجنبيات فى تاريخ روما المبكر ، ولعبن دوراً مرموقاً . لكن لا تكاد الأجنبيات يظهرن فى أحقاب التاريخ المجيد لروما[١] .

(جـ) الجارية :

لم يكن للجوارى فى روما أية حقوق ؛ لأن الجارية كانت تعامل ـ ببساطة شديدة ـ على أنها مجرد حيوان ، أو هى بقرة كما وصفها بعض الكتاب . إنها ملكية خاصة لسيدها ، وإذا ما أنجبت ذرية قوية صحيحة البدن نالت رضا سيدها الذى لم يكن يهتم بمن يكون والد هذه الذرية . وليس من حق الجارية أن تتزوج لإنها وأطفالها ملكية خاصة للسيد وقد يضطر الجوارى والعبيد إلى الحياة معاً فى معيشة أقرب إلى الزواج لكنهم إذا أنجبوا أطفالاً لم يكن لهم حق فى هؤلاء الأطفال ، وإذا كانت الجارية خصبة ومنتجة ، أعنى : ولوداً ، فإنها تعامل معاملة رقيقة . وفى العصور القديمة لروما كانت الجارية التى تنجب ثلاثة أطفال تعفى من الأعمال المنزلية الشاقة . وكثيراً ما كان الرومان يعاملون الرقيق الذين يولدون فى منازلهم ملة كريمة ، ويربونهم مع أعضاء الأسرة الذين هم فى مثل أعمارهم . من هنا كانت تنشأ بينهم علاقات حميمة ، وكثيراً ما كانت هذه العلاقات الحميمة

---

(١) James Donaldson : " Woman : Her Position " P. 79 .

تخفف من الشعور بالملكية المطلقة ؛ إذ ينظر إلى الجارية فى هذه الحالة نظرة خاصة . ولا شك أنه تحت هذه المؤثرات تحسنت أحوال الجارية ، حتى إذا ما وصلنا إلى عصر الإمبراطورية ظهرت قوانين لحمايتهن، وكثيراً ما وهبْن الحرية[١] .

ثانياً : الرجل :

يتضح مما سبق أن السمة الرئيسية التى كان يتميز بها القانون الرومانى هى : منح الرجل سلطاناً لا حد له على زوجته وأبنائه ، بل إن القصص السابقة التى تُروى عن تمرد النساء تدل دلالة واضحة على ما كانت تعانى منه المرأة من قهر وظلم وتعسف ؛حتى أنها تلجأ إلى دس السم للرجل ، وربما لأبنائه وأصدقائه ومعارفه ، ثم تلجأ إلى الانتحار الجماعى فى حالة يأس كامل من الحياة المهينة التى تحياها ؛ ولهذا السبب فإن الأسرة الرومانية توصف بأنها تقوم على سلطة الأب Patrio Potesta أو أنها أسرة أبوية بطرياركية ، من حيث إن الأب هو وحده المسيطر ، منذ البداية حتى النهاية ، على مقدرات هذه الأسرة .

وعلى ذلك فإنك تجد الرجل هو السيد فى جميع المجالات : فعلى الصعيد الدينى تجد الرجل هو المهيمن ، وهو وحده المخول بتأمين استمرار عبادة الأجداد ؛ لأن ديانة الأسرة تنتقل من جيل إلى جيل عبر الذكور ، ورب الأسرة Pater Familia هو الكاهن الأكبر. وعندما تتزوج الفتاة ـ كما سبق أن رأينا ـ فإن عليها أن تعلن ارتدادها عن دين والدها ؛ لكى تعتنق الديانة التى يؤمن بها زوجها ، وتمارس طقوسها وشعائرها . بل إن أسلاف الزوج يصبحون أسلافها[٢] على نحو ما فصلنا الحديث فيما سبق عن المواطنة الرومانية .

أما على الصعيد السياسى فإننا نجد أن الرجل هو وحده الموجود على الساحة ؛ فليس

---

(١) Ibid . P. 80 P 81 .

(٢) Sarah B. Pomperoy : " Goddess, Whores, Wifes and Slaves " N.Y P.152 .

للمرأة حقوق سياسية ، ولا يسمح لها بالاشتراك في أي عمل سياسي[1] ، بل إنها مستبعدة من سائر الوظائف العامة التي يطلق عليها ـ لهذا السبب ـ «وظائف الذكور» أو «وظائف الرجال Officia Virilia»[2] ولم يحدث قط أن قام المجتمع الروماني ـ كما سبق أن ذكرنا ـ بتشجيع النساء للقيام بنفس الأنشطة التي يقوم بها الرجال[3] ، بل نجد ـ على العكس ـ عمليات إحباط مستمرة ، وضغوط شديدة أدت إلى الانفجار في النهاية ! .

لكن كيف يظهر سلطان الأب منذ البداية ؟ الجواب : منذ لحظة الميلاد . فإذا وُلِدَ له طفل مُشوَّه أو معوق على أية صورة من الصور كان من حقه أن يتخلص منه بالطريقة التي يراها مناسبة : كأن يغطسه في الماء ليموت غرقاً ، أو يتركه في العراء فوق قمة جبل من الجبال لتلتهمه بغاث الطير ، أو تفترسه وحوش البرية .. إلخ .فإذا ما كانت المولودة أنثى فمن حقه أيضاً خنقها ـ إذا أراد ـ أو تركها في العراء لتموت ، أو أن يستخدم إحدى الطرق التي يراها مناسبة للتخلص منها . أما في غير تلك الحالات فقد كان الأب يرحب بمولد الطفل، وعلامة قبوله : أن يحمله بين ذراعيه ويرفعه إلى أعلى أمام الشهود بعد ولادته[4] .

وفضلاً عن ذلك ، فقد كان لرب الأسرة ـ دون سائر أعضائها ـ حق الملكية ؛ فهو الذي يشتري الممتلكات ويحتفظ بها أو يتصرف فيها ، وله أن يحرم الأبناء كلهم أو بعضهم من الميراث ، وأن يزوجهم ، ويطلقهم ، ويفصل بين الابن وزوجته .كما كان من حقه أن يحاكم زوجته إذا ما اتهمت في جريمة وأن يحكم عليها ، وأن ينزل بها العقاب كما سبق أن رأينا وعندما استشهدنا بعبارة كاتو الأكبر التي تتحدث عن حق الزوج في قتل زوجته إذا ضبطها متلبسة بجريمة الزنى .كما كان في مقدوره أن يحكم عليها بالموت إذا ما ضبطها

---

(١) كان يطلق على أعضاء مجلس الشيوخ اسم «مجلس الآباء» ، وكان سلطان الدولة في روما يقوم على هؤلاء الآباء .

(٢) مونييك بيتر «المرأة عبر التاريخ» ترجمة هنريت عبودى ـ دار الطليعة بيروت ص٧٧ .

(٣) Sarah B. Pomperoy : Goddess, Whores, Wifes ... P.X .

(٤) مونييك بتير ـ المرجع السابق ص٧٩ .

وهى تسرق مفاتيح مخزن الخمور ، كما كان له على أبنائه حق الحياة والموت ، أو يبيعهم فى الأسواق بيع الرقيق . وكان كل ما يكسبه الابن يصبح فى نظر القانون ملكاً خاصاً لأبيه ، أو كما تقول الأمثال العربية: أنت وما ملكت يمينك لأبيك، والعبد وما ملكت يداه لمولاه[1].

وإذا كان للرجل حق الحياة والموت على أطفاله ، فقد كانت المرأة فى نظر الرومانيين طفلة تحتاج إلى توجيه وإرشاد ورعاية ، وربما جاء ذلك من زواجها المبكر كما سبق أن ذكرنا ولعل ذلك أيضاً هو السبب فى تحريم تذوق الخمر على النساء ، فإذا ما غامرت إحداهن وشربت الخمر ، وقِّعت عليها أقسى العقوبات ، وهم يبررون ذلك بدخول مادة سرية إلى جسدها لا يمكن التنبؤ بنتائجها ، فى الوقت الذى لا يحدث فيه ذلك للرجال! ومن هنا كان من حق الزوج إذا ما ضبط زوجته تعاقر الخمر أن يضربها حتى الموت دون أن يلومه أحد[2] . ومن هنا أيضاً كانت النساء ممنوعات منعاً باتاً من دخل القبو الذى تُخَزَّنُ فيه الخمور فإذا ما سرقت الزوجة مفاتيح المخزن ، أو قلدته بمفاتيح مزورة ، كانت بذلك ترتكب جريمة بشعة يمكن أن تُعَاقب عليها بالموت أو الطلاق ، بل إن كاتو الأكبر يذهب فى إحدى خطبه إلى أنه ينبغى على الرجل تقبيل النساء فى الفم ـ حتى من ذوى القربى ممن تربطه بهن علاقات الدم ـ حتى يتشمم رائحته ليعرف ما إذا كان هناك أثر لرائحة الخمر فى أنفاسهن ، أما إذا زوجن فذلك حق مطلق للزوج[3] . غير أن الأرجح أن يعود تحريم الخمر على النساء إلى نظرة الرومانى إلى المرأة على أنها طفلة لا يجوز لها أن تشرب ما هو مُسْكِر أو ما يذهب بعقلها لا سيما وأنها أصلاً (طائشة) ، أو خفيفة العقل ، كما رأينا فى نص مدونة جوستنيان ! .

---

(١) عبد الهادى عباس : «المرأة والأسرة فى حضارات الشعوب وأنظمتها » الجزء الثانى ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ـ دمشق ص٧٠٧ ـ وأيضاً مونييك بيتر «المرأة عبر التاريخ »ترجمة هنريت عبودى ، دار الطليعة ، بيروت ص٧٧ وما بعدها .

(٢) Sarah B. Pomperoy : Op. Cit. P. 153 .

(٣) Ibid .

ونود أن نختتم هذا القسم بقضيتين رواهما المؤرخ الرومانى الكبير ليفى Livy الذى عاش فى عصر الإمبراطور أغسطس ، وهما تعبران بدقة عن سلطان الأب الرومانى المطلق :

الأولى : تدور حول فتاة تدعى « هوراشيا Horatia » كانت مخطوبة لشاب من عائلة كيرياتى Curiatii ، ثم وقع شجار وصراع بين أشقائها وبين الكيرياتين ؛ فقتل الأشقاء ثلاثة منهم - كان بينهم خطيب هوراشيا - كما قُتِل فى المعركة اثنان من أشقاء الفتاة . وحزنت هوراشيا حزناً شديداً علي مصرع خطيبها . غير أن شقيقى الفتاة اللذين ظلا على قيد الحياة ضايقهما أشد الضيق حزن الفتاة على خطيبها ؛ فقام أحدهما بطعنها بخنجر وهو يقول : هكذا لا بد أن تموت كل امرأة رومانية تحزن على عدو » . وعلى الرغم من أن هذا الشقيق أجبر على تقديم كفارة يعبر بها عن ندمه على سلوكه الطائش ، إلاّ أن الأب عبّر عن رضاه التام عن سلوك ابنه مؤكداً أنه لو لم يكن ابنه قد أقدم على قتلها لقتلها هو بنفسه بالسلطة المخولة له ، (بوصفه والدها) [1] ! .

الثانية : أما القصة الثانية فتقول : كان أبيوس كلوديوس Apius Claudius واحداً من نبلاء روما الذين تصدروا الحملة لإصدار قانون يحرم زواج النبلاء من العامة ، لكن ما كاد القانون يصدر حتى وقع هو نفسه فى غرام فتاة جميلة من العامة اسمها ڤرجينيا Verginia ، وحاول أن يجعل منها عشيقة له حتى لا ينتهك القانون ، لكن الفتاة رفضت فى البداية، وبذل والدها جهوداً شتى ليمنع سقوط ابنته فى حبائل أبيوس . غير أن فتاة صغيرة وفقيرة لم تكن قادرة على حماية نفسها طويلاً من نبيل عظيم مثل أبيوس . ومن ثم فقد خشى الوالد سقوطها فى براثنه ، وحلاً للمشكلة لم يجد والدها أمامه سوى أن يذبحها معلناً أنه إذا كانت ابنته لن تستطيع الحيـاة بشرفها فإنه يقتلها لكى يقدم لها على أقل تقدير : ميتة شريفة ، رغم أنها مؤسفة[2] .

---

(١) Sarah B. Pomperoy : Ibid, P. 152 - 3 .

(٢) Ibid, P. 153 .

وأثار الحادث ضجة كبرى فى البلاد أدت إلى إلغاء القانون الذى يجرم زواج النبلاء والأشراف من عامة الشعب . وهكذا يصدق ما قاله بلوتارك من أن المرأة الرومانية لم يكن لها ملجأ تأوى إليه سوى الرجل ، وهو فى النهاية صاحب التصرف فى أمرها : زوجاً أو أباً[1] .

(١) Ibid. P. 154 .

القسم الثانى : الخلفية الدينية اليهودية :

منذ العدد الأول من هذه السلسلة ـ أعنى « أفلاطون .... والمرأة » ونحن نحاول إبراز أهمية العامل الاقتصادى ـ الثروة أو الملكية الخاصة ـ فى تحديد وضع المرأة فى المجتمع . فكلما هيمن الرجل على الثروة وأصبحت له ساد النظام الأبوى ، ونشأت الأسرة البطريركية ، وانحدر النسب عن طريق الأب ، وتمتع هذا الأخير بسلطة كبيرة داخل الأسرة ، وتركزت أنظاره على الوعاء الذى ينجب الذرية ، وحاول عزله بعيداً فى مكان مظلم من الدار ؛ حتى لا يراه أحد ، ويظل نقياً فلا ينجب نسلاً تخالطه دماء غريبة .

ولقد كانت الحال على هذا النحو عند بنى إسرائيل ؛ فلم تخرج أنظمتهم عن الأنظمة السائدة لدى قبائل الرعى ، وفى مقدمتها : النظام الأبوى ؛ فالولد ينسب إلى أبيه ويلتحق بعشيرة الأب . وهكذا استأثر الرجال من بنى اسرائيل بحق الانتساب إلى اليهودية ؛ فهم وحدهم اليهود . أما النساء فهن بنات اليهود أى (تابعات لهم) رغم أن اليهودى هو المولود من أم يهودية .ولهذا يحتفى القوم لبلوغ أولادهم ـ دون فتياتهم ـ سن الحلم ، وينظمون بهذه المناسبة احتفالاً دينياً هاماً .

ومن هنا فلم يكن البيت العبرى هو الأسرة الزوجية بمعناها الحديث ، أى التى تقتصر على الزوج وزوجته وأولادهما المباشرين ـ بل هى الأسرة البطريركية المعروفة لدى قدماء الرومان ؛ إذ يتكون بيت إسرائيل من : الرجال ، وعدد من الزوجات ، والسرارى ، والأولاد من الزوجات والجوارى ، وزوجات الأولاد ، والأحفاد ، بالإضافة إلى العبيد[1] . فهو فى الواقع «عائلة» يرأسها الأب الذى يسمى « روش » أى رأساً ، ويتمتع بسلطات قضائية مطلقة ، ويختار وريثه فى حرية تامة ، ويستطيع التصرف فى أبنائه كما يشاء : فله أن يبيع ابنته أَمَةً لمن يرغب فى شرائها على نحو ما جاء فى سفر الخروج : « إذا باع رجل ابنته أمة

---

(١) د . ثروت أنيس الأسيوطى « نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين : الجماعات البدائية ـ بنو اسرائيل » دار الكتاب العربى بالقاهرة . ص١٥٣ .

لا تخرج كما يخرج العبيد ... إلخ » (٢١ : ٧) بل إن الرجل يملك على أولاده حق الحياة والموت : يقتلهم إذا شاء ، أو يقدمهم قرباناً للرب . ويمتد هذا الحق إلى كل من يعيش فى كنف الأب، فله أن يحرق زوجة ابنه المتوفى إذا زنت ، لى نحو ما فعل يهوذا فى « ثامار » «فها هى حبلى من الزنى ، فقال يهوذا أخرجوها فتحرق » (تكوين ٣٨ : ٢٤) .

وهكذا تنحدر المرأة فى التراث اليهودى إلى أدنى مستوى حتى تكاد تقترب من مستوى الحيوانات والأشياء ؛ فهى جزء من البيت الإسرائيلى ، كما كانت جزءاً من الأسرة الرومانية ، أى : ضمن التركة المكونة من العبيد والأموال . فالبيت عند بنى إسرائيل يشمل : المرأة ، والعبيد ، والجوارى ، والثور ، الحمار ، والأشياء الأخرى . والرجل يسمى بعل Baal [1] أى : السيد وتخاطبه الزوجة بعبارة «سيدى» [2] وتعم الفرحة عند مولد الابن ، لكن الأمر يختلف إذا كانت المولودة أنثى .

والواقع أن تراث العهد القديم يلخص الوضع المتدنى للمرأة فى عصره ؛ فقد كان كتَّابه رجال عصرهم ـ بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ـ فمن السذاجة أن نظن أنه كان فى استطاعتهم أن يتحرروا تماماً من الميول المتحيزة ، والأحكام المبتسرة التى سادت العصر الذى عاشوا فيه(٣) . فالرجل اليهودى يصلى فى صلاة الصبح دايعاً وشاكراً لله : « أحمدك يارب أنك لم تخلقنى امرأة » [4] . أما المرأة اليهودية فكانت تصلى مستسلمة : « أحمدك يارب ؛ لأنك خلقتنى كما تريد .. » [5] .

---

(١) أحد الآلهة السامية الكنعانية فى شمال فلسطين ولبنان ثم فى مصر . ثم أصبحت الكلمة فى اللغة العربية تعنى « الزوج »

(٢) قارن « ان كان بعل امرأة تخرج امرأته معه » « سفر الخروج (٢ : ٣) « وأيضاً وضحكت سارة فى باطنها قائلة : أبَعْدَ فنائى يكون لى تنعم سيدى وقد شاخ » تكوين (١٨ : ١٢) .

(٣) Dictionary of the History of Ideas, Vol. 4, P. 523 .

(٤) وهى عبارة تروى فى التراث الفلسفى اليونانى ويقال إنها وردت على لسان سقراط الذى كان يحمد الله كثيراً لأنه خلقه « أثينيا وليس بربرياً ، حراً وليس عبداً ، رجلاً وليس امرأة ! »

(٥) Simone de Beauvoir : The Second Sex Trans. by H. M. Parshley Penguin Books, P. 22.

ويحرم على الرجال التشبه بالنساء في الملبس والمسلك ، والعكس صحيح أيضاً ، جاء في سفر التثنية « لا يكون متاع رجل على امرأة ، ولا يلبس رجل ثوب امرأة ؛ لأن كل من يعمل ذلك مكروه لدى الرب إلهك » (الإصحاح الثاني والعشرون : ٥) .

وكانت الزوجة الفاضلة عند اليهود قريبة الشبه من ربة الدار عند أرسطو : فالزوجة الكاملة هي المسؤولة عن رخاء الأسرة ، وهي المسؤولة عن حاجاتها المباشرة . وفضلاً عن ذلك، فإنه من الحكمة ألا تشارك الزوجة الفاضلة في حياة المجتمع العقلية والروحية .

وتعبّر أغاني الزواج عن هذه الفكرة نفسها ـ وهي الأغاني المعروفة باسم أناشيد أو أغاني سليمان أو « نشيد الإنشاد » ـ التي كتبت تقريباً في القرن التاسع قبل الميلاد . ففي الإصحاح الحادي والثلاثين يتساءل المؤلف « من ذا الذي يستطيع أن يعثر على امرأة فاضلة؟ إن ثمنها يفوق ثمن اللآلئ والياقوت » (سفر الأمثال : إصحاح ٣١ : ١٠) ثم يستمر ليضع مواصفات الزوجة الفاضلة النادرة : التي يثق فيها قلب زوجها بأمان ، فلا يحتاج إلى أسلاب وغنائم . تصنع له الخير ، ولا تصنع له الشر طوال حياتها . تطلب الصوف والكتان ، وتشتغل بيدين راضيتين . سراجها لا ينطفئ طوال الليل تمد يديها إلى المغزل ، وتمسك كفاها بفلكة المغزل » (أمثال ٣١ : ١١ ـ ١٩) .

ويقول صاحب سفر الجامعة : « وجدت أمرّ من الموت : المرأة ، التي هي شباك ، وقلبها شراك ، ويداها قيود . الصالح قدام الله ينجو منها ، أما الخاطئ فيؤخذ بها .. » (الإصحاح السابع : ٢٦) .

والواقع أن الكتاب المقدس في عهده القديم يحوى أموراً كثيرة تهز مشاعر المرأة الحديثة التي اعتادت أن تظن نفسها ـ إلى حد ما ـ شخصية مستقلة قائمة بذاتها ؛ إذ فيه تظهر النساء مستعبدات بوصفهن موجودات دنيا . وعلى الرغم من أن الزوجة اليهودية لم تكن في مستوى الرقيق فإن وضعها المتدني كان يحتم عليها أن تخاطب زوجها كما يخاطب العبد

سيده أو الرعية مليكها . بل إن الشريعة اليهودية ضيقت الخناق حول المرأة لإذلالها وإبقائها قاعدة فى قعر بيتها ؛ فأكرهتها على إجابة دعوة زوجها إلى فراشه حتى ولولم يكن لديها ميل لذلك . فإذا ما أعرضت عن فراشه أو رفضت العمل فى خدمته ، أو فى داره عدت ناشزاً ويطبق عليها أحكام المرأة الناشز .

وفرضت الشريعة اليهودية على الزوجة أن تغطى شعرها علامة على ملكية الزوج لها وعلى خضوعها وانقيادها وانكسار شوكتها ، وذهب بعضهم إلى حد إرغامها على ستر جسدها كله بملاءة عدا ثقباً واحداً تنظر من خلاله لترى الطريق .

كما استحدث اليهود الحجاب الساتر فى المعابد للفصل بين الرجال والنساء ، وحرموا مصافحتهن . وجعلوا لهن مدخلاً خاصاً إلى المعبد ، وألزموهن الصمت فى دور العبادة توقيراً لجماعة الرجال ـ على أساس أن صوت المرأة عورة ـ كما منعوهن من ارتقاء المنصة خلال الصلاة لتلاوة التوراة بصوت مرتفع . وتعللوا لحجب النساء أن شعر المرأة مدعاة للفتنة ، ومصدراً للغواية ؛ لأن النساء مواضع قضاء شهوة الرجال وهن ضعيفات الحول لا يسلمن من الطيش ، وخفة العقل ، وهن مائلات بفطرتهن إلى الشر ! .

ولإحكام السيطرة على النساء وضمان مسلكهن وضعتهن الشريعة اليهودية تحت ولاية الذكور من أهلهن : فالفتاة فى مطلع حياتها ملك أبيها ، يحق له إنكاحها لمن شاء لقاء أن يقوم العريس بخدمته . وقد خدم يعقوب عند خاله « لابان » سبع سنوات ليتزوج من ابنته الكبرى ليئة (رغم أنه كان يحب الصغرى) ثم سبع سنوات أخرى ليتزوج من حبيبة قلبه راحيل (تكوين ١٩ : ١٥ ـ ٢٠) . وللأب أن يزوج ابنته لمن يشاء ولأى رجل ، ربما مكافأة له على بسالته وجرأته « من يضرب قرية سفر ويأخذها أعطية عكسة ابنتى امرأة» (يشوع ١٥ : ١٦) دون أن يكون على الأب فى جميع الحالات أن يعرف رأى الفتاة . وللأب أيضاً أن يهبها لمن يشاء أو يبيعها أَمَةً ، لكن « إذا باع رجل ابنته أَمَةً ، فلا تخرج كما يخرج العبيد» (خروج ٢١ : ٧) وإذا كان يمكن للأب أن يبيع ابنته كما جاء فى

سفر الخروج ، فإن عليه أن يهتم « بالبكارة » لأن ثمن البكر ضعف ثمن الثيب . ومن هنا فقد حرص اليهود حرصاً تاماً على عذرية بناتهم ، واشتدوا فى معاقبة زنى النساء دون الرجال، فالمرأة هى موضع التعاقد فى النكاح وليس أحد طرفيه ، حتى إذا انتقلت إلى دار زوجها آلت ولايتها إليه ، وصارت فى عداد ممتلكاته : كالدار ، والعبد ، والمال .

وكما كان اليونان ـ والرومان من بعدهم ـ ينظرون إلى المرأة على أنها ملكية خاصة للرجل ، فقد نظر اليهود إلى المرأة على أنها جزء من ممتلكات الرجل . ومن هنا فإننا نجد زوجة الرجل اليهودى تُصنَّفُ فى الوصايا العشر بين ممتلكاته « لا تشته بيت قريبك ، ولا تشته امرأة قريبك ، ولا عبده ، ولا أمته ، ولاثوره ، ولا حماره ، ولا شيئاً مما لقريبك » (سفر الخروج : ١١٧) .

وفى تثنية الاشتراع « لا تشته امرأة قريبك ، ولا تشته بيت قريبك ، ولا حقله ، ولا عبده، ولا أمته ، ولا ثورة ، ولا حماره ، ولا كل ما لقريبك » (إصحاح ٥ : ٢١)

وعلى حين أن من حق زوجها أن يطلقها ـ لأن ذلك امتياز للزوج وحده ـ كما أن من حقه أن يرفض الاعتراف بها إذا كانت مقترفة إثماً ـ له أن يفارقها فى أى قت يشاء وبدون إبداء الأسباب . وله أن يطردها من بيته ؛ لأن الدار داره وهى مملوكة له فى هذا البيت ؛ فليس للزوجة أى من هذه الحقوق ، فهى لا تستطيع أن ترفض الطلاق . وإذا انحرف سلوك الزوجة ، أو أتت ما يشين ، فإنها تعاقب بقسوة ، فى حين أن خيانة الزوج ، أو عدم إخلاص الرجل بصفة عامة ، يعاقب إذا كان يعنى انتهاكاً لحقوق رجل آخر : كأن يمارس الزنى مع امرأة متزوجة ، أو يتخذ منها خليلة

وفى استطاعة الرجل أن يبيع ابنته ـ كما سبق أن ذكرنا ـ كما يبيع عبيده سواء بسواء، وإذا لم ينجب الزوجان أطفالاً فإن المسئولية فى هذه الحالة تقع على عاتق الزوجة ؛ إذ لا بد أن يكون بها عيب ما ، وباختصار : فى استطاعتنا أن نقول إن نساء العبرانيين كن محترمات كأمهات ، وفى هذه الحالة يعاملن معاملة رقيقة فى الأعم الأغلب ، ومع ذلك

فإن وضع المرأة بصفة عامة من الناحية الاجتماعية والقانونية كان وضعاً مهيناً ؛ فهى لا استقلال لها على الإطلاق ، بل هى تابعة للرجل . ومن هنا فإن الرجل اليهودى يصـــلى لله ـ كما سبق أن ذكرنا ـ ويشكره لأنه خلقه رجلاً وليس امرأة .

ولعل ذلك هو السبب فى أن المؤلفين المسيحيين قد أعطوا ، عبر القرون ، أهمية كبرى لقصة خلق حواء التى رواها الإصحاح الثانى من سفر التكوين ، كما أنهم ربطوا بينها وبين قصة السقوط ؛ فبدا ذلك شهادة لا تدحض على انحطاط المرأة من الناحيتين العقلية والأخلاقية . والواقع أنه عبر قرون مسيحية طويلة ظل التراث المعادى للمرأة فى الثقافة المسيحية يبرِّر نفسه باعتماده ـ إلى حد كبير ـ على قصة السقوط ، والسلوك الذى سلكته الأم الأولى التى أوقعت الرجل فى أول وأعظم خطيئة . ولم تكن هذه القصة تفهم على أنها أسطورة أو مجرد رمز ، بل واقعة تاريخية . ولقد قام أحد علماء التحليل النفسى بدراسة آداب الكتاب المقدس ولَخَّصَ الموقف فى عبارة واحدة بقوله : « إن قصة الكتاب المقدس عن مولد حواء هو الخدعة التى تتكرر آلاف الأعوام »[١] .

* * *

تلك كانت الأرض التى عملت عليها المسيحية عند ظهورها : التراث الرومانى الذى هو استمرار للتراث اليونانى والذى يحمل نفس الكراهية للمرأة من ناحية ، والتراث اليهودى الذى يضفى على هذه النظرة صبغة دينية من ناحية أخرى . وهما نظرتان تعبران فى الواقع عن منفعة الرجل ، ومصلحته ، وتطلعه للسيطرة على المرأة ـ ولا سيما زوجته ـ حتى يضمن سلالة نقية ليس فيها دماء غريبة ترث ما يملك من ثروة .

---

(١) Dictionary of the History of Ideas Vol. 4, P. 524 .

ومن العجيب حقاً أن يطغى هذا التراث الرومانى ـ اليهودى على الفكر المسيحى ويسيطر عليه ، حتى تختفى مواقف السيد المسيح تماماً ، وتعود النظرة الدونية للمرأة للظهور من جديد، ابتداء من أقوال القديس بولس ، حتى يقوم فلاسفة المسيحية بتنظيرها والبرهنة على صحتها ، مستخدمين « العقل » ومستعينين بآيات الكتاب المقدس ولا سيما العهد القديم ، دون أن يذكر أحد مواقف السيد المسيح ، وكلماته ، ونظرته الجديدة المنصفة للمرأة ، وهى التى كان يمكن ـ كما قال أحد الباحثين ـ أن تحدث ثورة فى وضع المرأة !

* * *

الفصل الثانى

« النظرة المسيحية للمرأة »

« من أجل قساوة قلوبكم ، أُذِن لكم أن تطلقوا نساءكم ، ولكن من البدء لم يكن كذلك ... »

المسيح : (متى ١٩ : ٨)

« أقول لغير المتزوجين وللأرامل : إنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا .. »

رسالة بولس الأولى إلى كورنثوس (٧ : ٨ - ٩)

أولاً : السيد المسيح

الحق أن موقف السيد المسيح من المرأة كان أنضج كثيراً من موقف أتباعه من الحواريين والرسل ، بل من موقف الكنائس المسيحية كلها بعد ذلك ، ولقرون طويلة . ففى هذا الوقت المبكر من المسيحية ـ عصر المسيح ـ تطالعنا الأناجيل بمجموعة كبيرة من المواقف الجديدة التى لا يشعر فيها القارئ بأية نظرة دونية للمرأة[1] . فهناك شخصيات نسائية رئيسية تعامل معها السيد المسيح وامتدحها ، وكشف عن مواقف إنسانية جديدة :

ـ فقد كان يعالج النساء كالرجال بلا تفرقة ، فها هو « يايرس Jairus » يخر عند قدميه قائلاً : ابنتى الصغيرة على آخر نسمة ، ليتك تأتى لتضع يدك عليها لتشفى ... وأمسك «يسوع» بيد الصبية وقال لها : طليثا قومى (أى : يا صبية أقول لك قومى) فقامت الصبية ومشت . (مرقس : الإصحاح الخامس ٢٢ ـ ٣٣ وكذلك ٤٠ ـ ٤٣) .

ـ وكما يعالج الصبية الصغيرة يعالج المرأة العجوز : « ولما جاء يسوع إلى بيت بطرس ، رأى حماته مطروحة ومحمومة ، فلمس يدها فتركتها الحمى » (متى ٨ : ١٤) .

ـ ومن المواقف الإنسانية الجديدة التى خالف بها المسيح التراث الثقافى الموروث فى عصره أنه يعالج المرأة التى ظلت تنزف اثنتى عشرة سنة ، وكانت فى نظر اليهود نجسة لا يجوز أن يلمسها أحد ، تماماً كالمرأة الحائض التى لا يجوز مصافحتها ، لكن المسيح لم يمانع أن تأتى إليه وتسير من ورائه « وتمس ثوبه » فللوقت جفَّ ينبوع دمها[2] .

---

(١) Charles Seltman : " Women In Antiquity " London, Thomas and Hudson, 1965, P. 184 .

(٢) إنجيل مرقس الإصحاح الخامس : ٢٥ وانظر كذلك إنجيل متى : الإصحاح التاسع ٢٠ ـ ٢٣ .

ـ وهو يمتدح سلوك « الأرملة الفقيرة التى ألقت فلسين (فى الخزانة) فدعا تلاميذه وقال لهم : الحق أقول لكم إن هذه الأرملة الفقيرة ألقت أكثر من الجميع .. فمن عوزها ألقت كل ما عندها[1] .

ـ وهو لا يفرق بين المرأة اليهودية والسامرية ، بل إنه يتخطى النواهى والمحرمات التقليدية الموروثة عن الديانة اليهودية عندما مكث طويلاً إلى جانب السامرية ، وطلب منها أن يشرب « المرأة السامرية » « قال لها يسوع أعطنى لأشرب وعجبت من قوله ، وقالت له : كيف تطلب منى أن تشرب وأنت يهودى وأنا سامرية ، واليهود لا يعاملون السامريين» (يوحنا ٤ : ٨ ـ ١٨).

ـ « عند ذلك جاء تلاميذه وكانوا يتعجبون أنه يتكلم مع امرأة » (يوحنا ٤ ـ ٢٧).

وحدث أن كان السيد المسيح يخطب فى جمع من الناس ، وفيما هو يتكلم رفعت امرأة صوتها من بين الجمع وقالت له : «طوبى للبطن الذى حملك ، وللثديين اللذين رضعتهما » (لوقا ١١ : ٢٧) فلم يعتبر صوتها عورة ، ولم يلزمها بالصمت على نحو ما سيفعل القديس بولس فيما بعد ، لكنه أجاب « بل طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه » (لوقا ١١ : ٢٨) .

وعندما ذهب يسوع إلى « بيت عنيا Bethany » وهى قرية قريبة من أورشليم ليوقظ لعازر (الذى كان قد توفى منذ أربعة أيام) كان كثير من اليهود قد جاءوا إلى «مرثـــا» «و مريم » ليعزوهما عن أخيهما (يوحنا ١١ : ١٧ ـ ٢٧) . وها هنا نرى المسيح يناقش ـ مع « مرثا » أولاً وهى التى استقبلته على مشارف القرية ، ثم مع شقيقتها « مريم » بعد ذلك ـ موضوعات كثيرة رفيعة المستوى تتعلق بالإيمان ، والبعث ، والقيامة ، والحياة ، والموت .. إلخ إلخ[2] .

---

(١) إنجيل مرقص الإصحاح الثانى عشر : ٤٣ ـ ٤٤ .

(٢) James Donaldson : " Woman : Her Position ... " P. 148 .

ـ وهناك المرأة التى ظلت تشكو من ضعف فى عمودها الفقرى ثمانى عشرة سنة ، ولا تستطيع أن تنصب قامتها ، فوضع يده عليها وهو يقول : « يا امرأة إنك محلولة من ضعفك.. ففى الحال استقامت » (لوقا ١٣ : ١١ ـ ١٣) .

وعلى حين أن اليهود كانوا يتحرَّجون من مصافحة النساء لنجاستهن ـ ولا سيما الحائض منهن ـ فقد سمح لهن المسيح بالاقتراب منه ، بل لقد ترك امرأة خاطئة تبلل قدميه بدموعها وتمسحهما بشعر رأسها ، وتقبلهما ، وتدهنهما بالطيب ، بل إنه اعتبرها أكثر إيماناً من الفريسى الذى أدخله بيته : « وسأله واحد من الفريسيين أن يأكل معه فى بيته ، فدخل بيت الفريسى ، واتكأ . وإذا امرأة فى المدينة كانت خاطئة .. إلخ (لوقا ٧ : ٣٦ ـ ٤٠) بل إنه يتقبلها ، ويغفر لها خطاياها نظراً لإيمانها ، ولهذا قال لها : «مغفور » لك خطاياك .. إيمانك قد خلصك ، اذهبى بسلام ، (لوقا ٧ : ٣١ ـ ٥٠) .

ـ وفضلاً عن ذلك كله فقد ظهر المسيح أول ما ظهر ، بعد موته لمريم المجدلية التى كان « قد أخرج منها سبعة شياطين » (مرقس ١٦ : ٩) (إنجيل يوحنا ٢٠ : ١ ـ ١٧) .

ونود أن نختم هذا القسم بموقف السيد المسيح مع المرأة الزانية التى جاء بها اليهود من الكتبة والفريسيين ، فى الهيكل ، وقالوا له : « أوصانا موسى أن مثل هذه تُرْجَمُ ، فماذا تقول أنت .. ؟ قال لهم : من كان منكم بلا خطيئة ، فليرمها بحجر .. فخرجوا واحداً واحداً وبقى يسوع وحده والمرأة ، فقال لها : ولا أنا أدينك ، اذهبى ولا تخطئ[1] ... » .

وأغلب الظن أنه كان يوافق على اختلاط الجنسين واجتماعهما معاً ، سواء فى اللقاءات الدينية أو الاجتماعية ؛ فهو يحضر احتفالات العرس حيث كانت أمه موجودة ، ولا شك أيضاً فى وجود نساء أخريات .

* * *

(١) إنجيل يوحنا الإصحاح الثامن : ٣ ـ ١١

هذه المواقف الإنسانية الرائعة كان يمكن أن تشكل ثورة ثقافية واجتماعية هائلة ، وترفع مكانة المرأة عالياً ، أو على الأقل يمكن أن تنتشلها من الحضيض الذى كانت تعانى منه . ولقد ذهب البعض بالفعل إلى القول بأن « المرأة ارتفع وضعها ، وعلت منزلتها بفضل الديانة المسيحية وتأثيرها فى العقلية التوتنية Teutonic[١] » لكن يبدو لى أن فحص وقائع التاريخ تكشف لنا أنه لم تكن هناك أية دلائل على هذه الثورة فى القرون الثلاثة الأولى من العهد المسيحى ، إن وضع المرأة بين المسيحيين كان منحطاً بل يمكن لنا أن نقول : إن الأفكار عن النساء قد تدنت عـما كانت عليه من قبل[٢] . وربما كان ذلك أمراً ملفتاً للنظر : فقد أسرعت الكثير من النساء إلى الانضمام إلى الدين الجديد الذى شعرت فيه بشئ من الإنصاف ، بل ربما قلنا « رد الاعتبار » ، أو إعطائهن قيمةً ، وكرامةً ، واحتراماً لم يكن لهن عهد به من قبل . ومع ذلك كله فإن الخلفية الثقافية والبيئة الاجتماعية التى ظهرت فيها المسيحية هى التى طغت ، وسيطرت ، ووأدت الأفكار الجديدة التى أتت بها الديانة الوليدة ، وهكذا توارت هذه الأفكار – رغم أنها دينية – لتعاود الكراهية الاجتماعية المتأصلة للمرأة – الظهور من جديد متلبسة هذه الديانة الجديدة ، ومضيفة قداسة دينية على الآراء الرجعية الموجودة من قبل . وربما عاد ذلك – فى جانب منه على الأقل – « إلى أنك لا تجد فى الأناجيل نظرية مشروحة بوضوح عن وضع المرأة ومكانتها ... »[٣] لن تجد سوى عبارات مقتضبة ، ومواقف عملية قام بها السيد المسيح ، وذلك يختلف تمام الاختلاف عن وضع المرأة فى الكتابات التى كتبها القديس بولس : فها هنا نجد آراء وشروحاً تتعلق بالزواج وسلوك المرأة ، وهى آراء تعبرّ عن أفق بالغ الضيق[٤] .

---

(١) الجنس التوتونى يشمل : الألمان ، والدنماركيين ، وجيرانهم ، بل الإنجليز أيضاً .. إلخ .

(٢) J. Donaldson : Woman : her Position ... P. 148 .

(٣) J. Donaldson : Ibid, P. 149 .

(٤) Ibid, P. 150 .

ن الملفت للنظر حقاً أن تظل النظرة الدونية للمرأة التى سادت التراث اليهودى والرومانى كما هى ، وتبقى الشريعة الرومانية هى مصدر القوانين فى العصور المسيحية الأولى ، وفى شطر كبير من العصور الوسطى ، وفضلاً عن ذلك ، فإن هذه النظرة الدونية إلى المرأة قد اصطبغت بصبغة دينية مستمدة من الخطيئة الأولى ، واعتبار المرأة مصدر الغواية ، وبوابة الشر . إلى آخر ما سوف نعرض له بعد قليل .

وأخيراً إليك هذا المثال :

لا شك أن السيد المسيح دعا إلى قدسية الرابطة الزوجية بحيث يصبح الاثنان (الزوج والزوجة) جسداً واحداً « والذى جمعه الله لا يفرقه إنسان » (متى ١٩ : ٤) وعندما جاءه الفريسيون سائلين « هل يحل للرجل أن يطلق امرأته لأى سبب ؟ (متى ١٩ : ٣) أجاب : من أجل قساة قلوبكم أُذِنَ لكم أن تطلقوا نساءكم » (متى ١٩ : ٨) . وفى هذه الكلمات الرقيقة دعوة صريحة وواضحة لمعاملة الزوجة بغير قسوة ، أعنى : بحب واحترام وتقدير . وهنا أيضاً يقف السيد المسيح إلى جانب المرأة ويحميها من الطلاق ، وتعسف الرجل معها ، وقسوته فى معاملتها . بل إنه يلزم الرجل بالإبقاء على زوجته ، حتى ولو كانت عاقراً، فى عصر كان الطلاق فيه بالغ السهولة بالنسبة للرجل . وقد سبق أن رأينا كيف كان الزوج الرومانى يطرد زوجته من منزله لمجرد أنه رآها تسير فى الشارع بلا خمار . أو لأنها تبادلت الحديث فى الطريق العام مع جارية أُعْتِقَت حديثاً ، فارتكبت بذلك جريمة لا تغتفر . أو لأنها جرأت على الذهاب إلى المباريات العامة دون إذن منه[1] . دع عنك أن تعاقر الخمر أو حتى تهبط إلى القبو الذى يقوم بتخزين خمره فيه .

ولهذا يذهب بعض الباحثين إلى أن السيد المسيح بموقفه من الرابطة الزوجية وتشديده على أهميتها قد أمنَّ بذلك مستقبل الزوجات ؛ إذ لم تعد الرابطة هشة يمكن أن تنقطع فى أى وقت ، وفى أية لحظة ؛ بسبب تسلط الرجل واستعلائه . ويرى بعض الباحثين أن هذا

(١) راجع فيما سبق : الخلفية المدنية الرومانية لاسيما المواطنة الرومانية الحرة .

الموقف بالذات كان السبب الذى جعل النساء يدخلن أفواجاً فى دين المسيح ـ منذ أن بدأت دعوته ـ وينجذبن إلى رسالته ، بل ويتحملن صنوف العذاب والألم ، ثم الاستشهاد كالرجال سواء بسواء ، فى سبيل الذود عن الديانة الوليدة(١) .

لكن هل ظهرت هذه النظرة الجديدة عند الفيلسوف المسيحى أم طغت عليه العادات والتقاليد ، فقام بتنظير تراث عصره ؟ ! دعنا قبل أن نتحدث عن الفيلسوف المسيحى نعرض أولاً لرجل وضع حجر الأساس فى النظرية المسيحية التى نظرها الفلاسفة بعد ذلك ـ أعنى : القديس بولس .

ثانياً : القديس بولس

فى استطاعتنا أن نقول : إن ما نجده طوال العصور الوسطى ، بل فى الثقافة الغربية بصفة عامة من تركيز على الذكر ، وحطٌ من شأن الأنثى ، يضرب بجذور بعيدة فى الثقافة اليونانية التى كانت تكنُّ كراهية عميقة للنساء . ثم واصلت مسيرتها فى الثقافة الرومانية مرتدية زياً دينياً بعد ذلك فى العهدين القديم والجديد .

ولقد كان القديس بولس أو « رسول الأمم » من « طرسوس » بآسيا الصغرى مواطناً يهودياً من أهل مدينة غير دينية من «كِيلِيكِيَّة Cilicia » (أعمال الرسل ٢١ : ٣٩) وذلك يفسر لنا إلمامه التام باللغة اليونانية . وقد اكتسب المواطنة الرومانية بحق المولد . ولم يعد ثمة شك فى أنه تلقى تعليمه بالمنزل قبل أن يسافر إلى أورشليم ليجلس بين يدى الحاخام جماليل Gamaliel . ومعنى ذلك أنه كان يحمل معه التراث اليهودى واليونانى

---

(١) يقول العقاد عن السيد المسيح إنه :

كان عظيم الأثر فى نفوس النساء ، يتبعنه حيث سار ، ويصغين إليه فى محبة ووقار .. ص ١٢٧ .

معاً عندما ذهب إلى أورشليم[١] . كما كان حبراً من أحبار اليهود ، تربى في مدارسهم ، وتشبع بمبادئهم وعاداتهم ، وحفظ طقوسهم وشعائرهم حتى قبل أن يصبح تلميذاً للفريسي اليهودي الحكيم « جماليل Gamaliel » الذي واظب على دروسه في أورشليم (القدس) طيلة خمسة عشر عاماً ؛ وفي هذه الفترة ؛ وقع في غرام ابنة أستاذه الجميلة ، وأراد الزواج منها ، لكنها رفضته . ومن الباحثين من يعتقد أننا أمام خيط واضح يفسر كراهيته للمرأة[٢] . فقد تكون هذه الخبرة السيئة التي مر بها في هذه الفترة قد ترسبت في أعماقه ، وجعلته حريصاً أشد الحرص أن يذكر النساء بصفة مستمرة بأوضاعهن الدنيا بالنسبة للرجال ؛ إذ المعروف تاريخياً أنه عندما رُفِضَ كُلِّيَّةً للزواج استشاط غضباً حتى أنه كتب ضد « الختان » باعتباره شعيرة دينية من الشعائر اليهودية[٣] . كما كتب ضد يوم السبت ــ يوم الراحة عند اليهود ــ وضد الناموس أو الشريعة اليهودية . وذلك يعني أن تجربة الحب التي مرَّ بها مع ابنة «جماليل » كانت مؤلمة غاية الألم بالنسبة له . وربما كانت الشرارة الأولى التي ظلت جذوتها تعمل في أعماقه حتى أخرجته من اليهودية تماماً ، وألقت به في أحضان المسيحية التي ظل يحاربها بشدة إلى أن وقع له الإنقلاب الروحي العنيف وهو في طريقه إلى دمشق ، فأصبح المدافع الأول عنها !.

(١) كان اسمه في الأصل شاءول ، وقد غيرَّه إلى بولس عندما اعتنق المسيحية . وعلى الرغم من أنه لم ير المسيح قط ، فقد تعصب له بشدة . وأدخل عناصر جديدة ، وأفكار كثيرة ، وتأويلات شتى ـ لأقواله ، حتى لتجد من الباحثين من يفرق بين « مسيحية المسيح » ، و« مسيحية بولس » انظر مثلاً :
Jame : Donaldson : Op. Cit. P. 153 .

(٢) بناء على المبدأ الشهير في علم النفس الذي يقول « إن الكراهية الشديدة لا بد أن تكون ناجمة في الأصل عن حب شديد لم يُشْبَعْ ، أو رغبة عنيفة لم تتحقق وتم إحباطها » سوف نجد لهذا المبدأ أمثلة كثيرة طوال هذا الكتاب .

(٣) عادة الختان التي هي إحدى الشعائر الدينية عند اليهود ، وتنسبها التوراة إلى إبراهيم (تكوين : الإصحاح السابع عشر : ١ ــ ١٣) هي في الواقع عادة فرعونية كانت تُمارس في مصر القديمة منذ زمن بعيد ، وقد نقلها اليهود عن المصرينن القدماء أثناء وجودهم في مصر ، ثم أصبحت بعد ذلك شعيرة مقدسة في بعض الديانات .

ويرى بعض الباحثين أيضاً أنه ربما عادت كراهيته للمرأة إلى شخصية النساء في موطنه الأصلي « طرسوس » وتأثيرهن عليه ، فقد كانت العادات والتقاليد في هذه المدنية تُحتِّمُ على المرأة أن تغطى جسدها تماماً بحيث لا يكون في استطاعة الرجل رؤية أى جزء من جسدها: لا من الوجه ولا من بقية الجسم ، على أن يكون هناك ثقب في الرداء ، لا ترى منه أثناء سيرها سوى الطريق . واستمرت هذه العادات الاجتماعية في عصر القديس « يوحنا فم الذهب » (٣٤٥ ـ ٤٠٧) ـ الذى كثيراً ما كان يتحدث عن هذه العادة « الهامة » ويعتبرها « بقايا » عفة وطهارة لم يعد لها أثر ؛ ذلك لأن الدنس أو التلوث يندفـــع ـ فى رأيه ـ مسرعاً إلى النساء عبر الأذن مثلما يندفع من خلال العين ، وهكذا تصل الإباحية والفساد إلى معظم النساء ؛ ولهذا نراه يقول : « إن النساء يسرن فى الشارع بوجوه مغطاة ، لكن بأرواح مكشوفة، بل قل إنها فى الواقع أرواح مفتوحة على مصراعيها[١] ... » . هذا التراث الاجتماعى ـ اليونانى اليهودى ـ هو الذى شكل أفكار القديس بولس عن النساء ، وهى أفكار كان لها أثر قوى فى تشكيل فكر الكنيسة المسيحية الأولى ، ثم فى العصور الوسطى بعد ذلك ، عن المرأة[٢] . والواقع أن هذه الأفكار تحولت لتصبح القاعدة الأساسية للشكل الأكليروسى لعداء المرأة ، بل كثيراً ما نهل منها الفلاسفة من آباء الكنيسة ، وفقهاؤها ولا هوتيو القرون الوسطى .

ويمكن أن نجمل أفكار القديس بولس عن المرأة ، وهى التى كان لها هذا التأثير الهائل فى ثلاثة أفكار رئيسية على النحو التالى :ـ

(١) الرجل هو الوسيط بين الله والمرأة :

هذه هى الفكرة الأولى من الأفكار الرئيسية التى تشكل رأى بولس عن المرأة ، وهناك

---

(١) Quoted by J. Donaldson : Woman : Her Position .. P. 150 .

(٢) Ibid .

نصوص كثيرة ذكرها القديس بولس تدعم هذه الفكرة . أشهرها ذلك النص الذى ورد فى رسالته إلى « أهل كورنثوس » حيث نجده فى هذه الرسالة يحث النساء على تغطية رؤسهن فى التجمعات المسيحية ؛ لأن هذه الغطاء هو رمز لخضوعهن للرجل « فإن الرجل لا ينبغى أن يغطى رأسه لكونه صورة الله ومجده . أما المرأة فهى مجد الرجل .. لهذا ينبغى أن يكون لها سلطان على رأسها »[1] .

وعلى هذا النحو يسعى القديس بولس جاهداً لبحث عن مبررات لاهوتية للعادات الاجتماعية القائمة بالفعل ، وهو ما سيفعله الفلاسفة واللاهوتيون بعد ذلك فى محاولة لإضفاء صفة « القداسة » الدينية على هذه العادات الاجتماعية ـ ومن ذلك ما يقوله هنا عن غطاء الرأس ؛ « فللرجل أن يسير حاسر الرأس ، أما المرأة فلا يحق لها أن تفعل ذلك » ، ويربطها بالدين عندما يتساءل فى استنكار « وهل يليق بالمرأة أن تصلى إلى الله وهى غير مغطاة .. » ؟ (كرونثوس الأولى ١١ : ١٣)[2] .

ومن ناحية أخرى فإن على الرجل أن يُعلّم المرأة ـ كما يقول القديس بولس ـ لا العكس . والبيت ـ كما سيقول الإمام الغزالى أيضاً ـ هو المكان المناسب لتتعلم الزوجة من زوجها مبادئ الدين . ـ يقول بولس « لتصمت نساؤكم فى الكنائس . ألا إنه ليس مأذوناً لهن أن يتكلمن، بل يخضعن كما يقول الناموس أيضاً . لكن إن كُنّ يردن أن يتعلمن شيئاً فليسألن رجالهن بالبيت[3] ... » . ولا بد أن نلاحظ أن بولس هنا يعبر عن الفكرة اليهودية التى كانت تقول : « إن صوت المرأة عورة » وهو مالم يقله المسيح قط ! فضلاً عن ذلك

(١) رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنثوس : الإصحاح الحادى عشر ٧ ـ ١٠ .

(٢) Dictionary of Ideas, Vol. 4, P. 524, Charles Scribner's Sons, N.Y. 1944 .

(٣) الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس : الإصحاح الرابع عشر (٣٤ ـ ٣٦) ، وقارن فيما سبق ما قالته الديانة اليهودية من أنه يجوز للمرأة أن تتعلم لا أن تعلم ، وأيضاً المدخل العام الذى صدرنا به هذه السلسلة فى الكتاب الأول منها بعنوان « أفلاطون ... المرأة » . مكتبة مدبولى بالقاهرة .

فإن القديس بولس ، يردد ـ من ناحية أخرى ـ ما كان يقوله اليونانيون من أن تاج المرأة هو الصمت . وفضيلتها الخضوع للرجل . لكنه الآن يقدم لنا مبررات دينية لهذه الظاهرة : منها أن الله خلق آدم أولاً ، وتلك ميزة تجعل الرجل يتفوق على المرأة[1] . ومنها أن الحية أغوت حواء وليس آدم[2] . يقول : «لتتعلم المرأة بسكوت في كل خضوع ولكن لست آذن للمرأة أن تعلم ولا تتسلط على الرجل ، بل تكون في سكون ؛ لأن آدم جبل أولاً ثم حواء . وآدم لم يُغْوَ ولكن المرأة أغويت فحصلت في التعدى[3] » .

(٢) المرأة موجود ثانٍ خُلِقَ من أجل الرجل :

يذهب القديس بولس إلى أن الوضع الثانوى ـ بل المتدنى ـ للمرأة ينسجم تماماً مع النظام العام للكون ، وهو فى ذلك يشبه أرسطو فيما ذكره عن الهيراركية (أو الترتيب التصاعدى) القائمة فى الأشياء والموجودات التى يزخر بها الكون . ومن ثم فقد أقام المعلم الأول دونية المرأة على أساس ميتافيزقى وهكذا يفعل القديس بولس . يقول « أما المرأة فهى مجد الرجل ؛ لأن الرجل ليس من المرأة ، بل المرأة من الرجل[4] ... » .

والواقع أن القديس بولس كان يُلَخِّصُ الوضع الاجتماعى ، بل والاقتصادى للمرأة فى عصره . وربما لم يكن ذلك جديداً . لكن الجديد ، والخطير معاً ، أنه يضفى عليه صبغة

---

(١) أدار الأديب الساخر « برناردشو » حواراً طريفاً بين آدم وحواء حول موضوع هذه الميزة التى تتردد كثيراً ، جاء فيه :ـ

ـ آدم : أنا أفضل منك ؛ لأن الله خلقنى أولاً !

ـ حواء : كلا ، أنا أفضل منك ؛ لأن الله خلقك فى البداية لتكون فى شرف استقبالى .

(٢) من المهم أن تتذكر أن الإسلام لا يُحَمِّلُ المرأة وحدها عبء هذه الخطيئة (أى الأكل من الشجرة المحرمة) بل يجعل المسؤولية مشتركة بينها وبين زوجها «وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغداً حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها ، فأخرجهما مما كانا فيه ... » (البقرة ٣٥ ـ ٣٦) .

(٣) رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيماثوس : الإصحاح الثانى ١١ ـ ١٤ .

(٤) الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس : الإصحاح الحادى عشر ٧ ـ ١٠ .

دينية . فضلاً عن أنه يبتعد عن المواقف الإنسانية الجديدة التى جاء بها السيد المسيح ـ وهى مواقف كان يمكن أن تتطور ، وأن تؤثر ، ومن ثم تغيير ـ ولو قليلاً ـ من وضع المرأة المتدهور . إلا أن العادات والتقاليد (فضلاً عن مصلحة الرجل بالطبع .) كانت للأسف أقوى تأثيراً وأشد فعالية . حتى أن القديس بولس نظر إلى هذا الوضع اللا إنسانى » للمرأة على أنه « أمر طبيعى » وظاهرة واقعية[1] . أرادها الله وصدّق عليها البشر كما قال المؤرخ اليونانى زينوفون قديماً[2] ومن هنا نراه يشدد على ضرورة الحجاب : فهو يأمر النساء أن يأتين للصلاة ، ودور العبادة محجبات ؛ لأن شعرهن يعد من أكبر المغريات ، وكان يخشى أن يفتتن به الناس والملائكة أنفسهم أثناء الصلاة[3] .

وإلى جانب ذلك فقد اهتم القديس بولس اهتماماً كبيراً بمسألة « النظام » فى المجتمع المسيحى بصفة خاصة . وكان مما له أهمية كبرى عنده ألا تأخذ النساء مكان السيادة فى التجمعات المسيحية ، وألا يتحدثن إلى الجمهور وهن حاسرات الرأس ، أو أن يسرن فى الشارع بغير خمار ؛ لأن ذلك سيكون ـ فى رأيه ـ فضيحة للدين الجديد الذى يواجه بالفعل بتهم اللاأخلاقية ، والتخنث . ومن هنا نراه يشدد بإصرار على أهمية السلوك الجنسى القويم ، ومن سماته الرئيسية : خضوع الزوجات لأزواجهن[4] « أيتها النساء اخضعن

---

(١) قارن أيضاً قول القديس بولس « أو ليست الطبيعة نفسها تعلمكم إن كان الرجل يرخى شعره فهو عيب له؟ رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس : الإصحاح الحادى عشر ١١ ـ ١٤ .

(٢) Quoted by Anderson in His " Xenophon" P. 17 .

(٣) راجع عادة الحجاب التى كانت منتشرة فى المجتمع اليونانى « أفلاطون ... المرأة » كما ظهرت أيضاً عند العرب فى الجاهلية ، وكذلك ما ذهب إليه الفقهاء المسلمون من أن شعر المرأة عورة ، وكذلك صوتها . سوف نرى بعد قليل أن القديس « جيروم » كان يدعو المرأة إلى قص شعرها كله امتثالاً لقول القديس بولس « المرأة إن كانت لا تتغطى فليقص شعرها ، وإن كان قبيحاً بالمرأة أن تُقَصّ أو تحلق فلتتغطى كورنثوس الأولى ، الإصحاح الحادى عشر : ٦ .

(٤) Dictionary of the History of Ideas, Vol 4 . P.523 .

لرجالكن كما يليق بالعيشة فى الرب »[1] . ويكرر الوصية نفسها إلى أهل أَفْسُس : « أيتها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب ؛ لأن الرجل هو رأس المرأة ،كما أن المسيح هو رأس الكنيسة »[2] .

ـ وفضلاً عن ذلك فإننا نرى القديس بولس يستخلص من القصة الرمزية التى وردت فى سفر التكوين عن خلق حواء من ضلع آدم دليلاً على أن المرأة موجود ثانٍ ، خُلِقَ من أجل الرجل . وهى فكرة سوف يتولاها ، فيما بعد ، بالشرح والتفصيل : اللاهوتيون والفلاسفة الآباء، وشارحو الكتاب المقدس ـ مهملين فى الوقت ذاته ، المحاولات التى قام بها بولس نفسه للتخفيف من حدة أفكاره وقسوتها . من ذلك ما يسوقه من تأملات مسيحية لإحداث شئ من التوازن ، كقوله مثلاً : غير أن الرجل ليس من دون المرأة ، ولا المرأة من دون الرجل فى الرب ؛ لأنه كما أن المرأة هى من الرجل ، هكذا الرجل أيضاً هو بالمرأة . ولكن جميع الأشياء هى من الله[3] .

(٣) المرأة أصل الخطيئة :

كان للفكرة التى تقول إن المرأة أصل الخطيئة أثر بالغ فى تشكيل النظرية المسيحية عن المرأة فى القرون المسيحية الأولى ـ والتى تسمى عادة بعصر الآباء ـ ثم فى العصور الوسطى بعد ذلك ، ولقد بدأت هذه الفكرة من كلمات القديس بولس الذى كان يردد الفكرة اليهودية التى تقول إن المرأة هى أصل الغواية ، وإنها هى التى انحرفت بآدم ، وأخرجته من الجنة عندما أطاعت الحية فأكلت من الشجرة المحرمة . ولم يكن ذلك الخطأ مرتبطاً بحواء فقط، بل امتد إلى بناتها أيضاً واستمر معهن ، فأصبحت المرأة دائماً مصدر غواية للرجل . وهى بما ترتديه من ملابس ، وما تتزين به من حُلِىّ ، وما تضعه من أصباغ على وجهها ..

---

(١) رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسى ٣ :١٨ .

(٢) الرسالة الأولى إلى أهل أفسس : الإصحاح الخامس : ٢٢ ـ ٢٤ .

(٣) رسالة القديس بولس إلى أهل كرونثوس : الإصحاح الحادى عشر ١١ ـ ١٢ .

إلخ تلقى بشباكها لإيقاعه فى حبائلها ! ولهذا نراه ينصح النساء بعدم التزين ولاسيما بالحلى أو الملابس الثمينة . يقول « النساء يزين ذواتهن بلباس الحشمة مع ورع وتعقلٍ ، لا بضفائر ، أو ذهب ، أو لآلىء كثيرة الثمن ، بل كما يليق بنساء متعهدات بتقوى الله ، وبالأعمال الصالحة »[1] .

فمنذ غواية حواء صار جنس النساء مصدر كل إثم . ولذا فخلاص المرأة أن تعلو على طبيعتها الأنثوية ، وأن ترفض متعة الجسد ، وأن تقبل المسيح زوجاً لها بدلاً من أن تخضع لواحد من البشر !

ولكى يتم ذلك ، وكجزء من التخطيط العام للنقاء والبعد عن أدوات الجسد ، يدعو القديس بولس الرجال للابتعاد عن النساء بقدر المستطاع «فيحسن للرجل ألا يمس امرأة » (كورنثوس الأولى ٧ : ١) كما يدعو الابن « الصريح فى الإيمان » تيموثاوس إلى الابتعاد عن الغرائز والشهوات فيقول له : « أما الشهوات الشبابية فاهرب منها ، واتبع البر ، والإيمان، والمحبة ، والسلام مع الذين يدعون الرب من قلب نقى ... »[2] ولا شك أن فى ثنايا كلمات بولس دعوة إلى التبتل والرهبنة ، والبعد عن ممارسة الجنس ، فذلك أفضل ؛ لأن : « غير المتزوج يهتم فى ما للرب ، وهدفه كيف يرضى الرب ، أما المتزوج فيهتم فى ما للعالم ، وهدفه كيف يرضى امرأته .. » (كورنثوس الأولى ٧ : ٣٣) . ومن هنا فإننا نراه أحياناً يُصرِّح بهذه الفكرة بوضوح فيقول : « إن بين الزوجة والعذراء فرقاً ، فغير المتزوجة تهتم فى ما للرب لتكون مقدسةً : جسداً روحاً ، أما المتزوجة فهى تهتم فى ما للعالم وهدفها كيف ترضى رجلها » (كورنثوس الأولى ٧ : ٣٤) .

غير أن القديس بولس ـ بالطبع ـ لا يدعو المسيحيين إلى الإضراب عن الزواج : فالزواج

---

(١) رسالة القديس بولس الأولى إلى تيموثاوس الإصحاح الثانى ٩ ـ ١٠ .

(٢) رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس : الإصحاح الأول : ٢٣ ـ ٢٤ .

مرغوب فيه لكن العزوبة أفضل لمن استطاع ، ومن تزوج فحسناً يفعل ، ومن لا يتزوج يفعل أحسن (كورنثوس الأولى ٧ : ٣٨) . « أقول لغير المتزوجين وللأرامل : إنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا ، ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا ؛ لأن التزوج أصلح من التحرق ... » (كورنثوس الأولى ٧ : ٨ ـ ٩) و. باختصار : إن تزوجت لم تخطئ ، وإن تزوجت العذراء لم تخطئ . ولكن مثل هولاء يكون لهم ضيق فى الجسد . وبسبب الزنا ليكن لكل واحد امرأته . ليكن لكل امرأة رجلها (٧ : ٢) . ثم يقول : «ليس للمرأة تسلط على جسدها ، بل للرجل » (٧ : ١ ـ ٤) وهكذا جعلها لا تستطيع التسلط على جسدها ، بل جعل التسلط على هذا الجسد من حق الرجل وحده .

* * *

تلك كانت الأفكار الرئيسية الى جاء بها القديس بولس . ومن الواضح أنها تتسق مع التراث (اليهودى ـ الرومانى) أكثر مما تتفق مع مواقف السيد المسيح الإنسانية بالنسبة للمرأة التى كانت تتحدث فى حضوره ، وعلى مسمع من الجميع ـ بطريقة طبيعية جداً ـ دون أن يقول: « فلتصمت نساؤكم » ، أو أن يعتبر صوتها عورة . ولم ينظر إليها قط على أنها موجود أدنى من الرجل .كما أنه لم يرفض الاختلاط بين الجنسين ، وقد حضر هو نفسه عرس « قانا الجليل» المختلط الذى كان يحضره عدد كبير من الرجال ، ومن النساء وكان من بينهن أمه السيدة مريم(١) .

وكانت الجموع تتبعه من المدن رجالاً ونساءً « ولما خرج يسوع أبصر جمعاً كثيراً

(١) وفى اليوم الثالث كان عرس فى «قانا الجليل » وكانت أم يسوع هناك . ودعى أيضاً يسوع وتلاميذه إلى العرس . ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له : ليس لهم خمر ... إلخ إنجيل يوحنا ـ الإصحاح الثانى : ١ ـ ٤ .

فتحنن عليهم وشفى مرضاهم » ، دون أن يفرق بين ذكر وأنثى فهو يعالج المرأة كما يعالج الرجل سواء بسواء ! بل كثيراً ما كان يمد يده نحو تلاميذه ويقول : « ها أمى وأخوتى . لأن من يصنع مشيئة أبى الذى فى السموات هو أخى وأختى وأمى » (يوحنا ١٢ : ٤٩) .

وباختصار لقد كان السيد المسيح ـ كما سبق أن رأينا ـ يعامل النساء بلطف ، ويتحدث إليهن بمودة ، ولم ينظر أبداً إلى المرأة تلك النظرة التى تنم عن كراهية أو بغض ، خلافاً للعرف السائد يومئذ ، « حتى أن تلاميذه كانوا يتعجبون أنه يتكلم مع امرأة » (يوحنا ٤ : ٢٧) ؛ لأن ذلك شئ جديد لم يعهدوه من قبل . وكانت المرأة تبشر برسالته حتى آمن به تلك المدينة كثيرون بسبب كلام المرأة التى كانت تشهد له (يوحنا ٤ : ٣٩) ، ومن ثم استبشرت النساء خيراً من تلك الديانة الوليدة التى جاءت لتخرجهن من حضيض العيش إلى مستوى الحياة الإنسانية الكريمة ، وأسرعن إلى الإيمان بالمسيحية والدخول فى رحابها أملاً فى الخلاص من قيود الوثنية ، وسجن اليهودية ـ فماذا كانت النتيجة؟ طغيان العادات والتقاليد القديمة ، وسيادة تامة للتراث اليهودى الرومانى ، الذى عمّده آباء الكنيسة وفلاسفتها ليصبح هو بنصه التراث المسيحى . وقد بدأ هذا الانقلاب الغريب على يد القديس بولس الذى وضع حجر الأساس فى النظرية المسيحية عن المرأة التى ظلت سائدة طوال العصور الوسطى بما تحمله من كراهية ودونية . لكن كيف يمكن أن نفسر موقف « رسول الأمم » ؟

يذهب « تشارلز سيلتمان Charles Seltman » **إلى أن هناك سببين :**

الأول : أن بولس كان من «طرسوس »، وأنه نشأ فى أسرة يهودية محافظة تعتز بالتراث اليهودى ، وتحافظ على طقوس هذه الديانة . ومن ثم فقد كان إصراره على صمت النساء فى الكنيسة ، وتغطية جسدهن ـ جزءاً لا يتجزأ من الخلفية الثقافية التى تربى فيها ، وأثراً من آثار التراث اليهودى الرومانى ، بل واليونانى أيضاً .

الثانى : أن رسائل القديس بولس التى تحدث فيها بكثرة عن النساء ، وكشف فيها عن مواقف متشددة للغاية ـ كانت كلها ـ تقريباً ـ موجهة إلى أهل كورنثوس . ولقد

كانت مدينة «كورنثة Corinth »مدينة يونانية تقع على خليج كورنثة ، أسسها الدوريون فى القرن التاسع ، وسرعان ما أصبحت ميناء هاماً ، ومقراً لآلهة ، الحب ، والجمال ، والجنس « أفروديت Aphrodite » التى ولدت من زبد البحر ، وخرجت على شواطئ هذه المدينة حيث أقيم معبدها ويبدو أن الميناء الذى يفد إليه المسافرون والبحارة ــ كان يغص بالعاهرات ، والغوانى اللائى كن يشكلن جانباً من ديانة الإلهة أفروديت . ولقد صدم هذا النوع من السلوك الدينى مشاعر القديس بولس ، وتصوره عن المرأة الفاضلة . ومن هنا فقد راح يؤكد فى رسائله إلى أهل كورنثوس نظرة اليهود المحافظة تجاه المرأة الفاضلة(١) .

ويمكن أن نسوق ملاحظتين على هذا التفسير :

الملاحظة الأولى : أن هذا التفسير يؤكد ما سبق أن ذكرناه أكثر من مرة بصدد طغيان التراث اليهودى الرومانى ، وسيطرته على فكر القديس بولس ، لكنه لا يفسر لنا ــ وهذا هو المهم ــ لم ابتعد فكر القديس بولس عن المواقف الإنسانية الجديدة التى أتى بها المسيح ، مع أن المفروض أنه « رسول المسيح إلى الأمم » وليس رسول اليهودية إليها ؟ كيف تجاهل تماماً الأفكار الجديدة ، وعمد إلى طمسها حتى قيل إن هناك مسيحية خاصة باسمه هى «مسيحية بولس » التى تختلف فى كثير من جوانبها عن « مسيحية المسيح » ؟

الملاحظة الثانية : أن هناك من الباحثين مَن يجعل لغرامه الأول لابنة أستاذه الحاخام جماليل ــ دوراً بارزاً فى كراهيته لكل النساء ولا سيما وأن هذا الحب كان فى فترة مبكرة من عمره ، فجاء رفض الفتاة للزواج منه صدمة عنيفة جعلته ينفر من الزواج عموماً ، ويفضل « الرهبنة » والعذوبة ، ويدعو المسيحيين إليها . وفى ذلك مثال آخر للمبدأ الشهير فى علم النفس ــ الذى سبق أن ذكرناه ــ والذى يقول : إن الكراهية الشديدة لابد أن تكون ناتجة فى الأصل عن حب شديد لم يشبع ، أو رغبة عنيفة لم تتحقق وتم إحباطها ».

---

(١) Charles Seltman : Women in Antiquity " London and New York : Thomas and Hudson 1956 P.184 .

الفصل الثالث

« عصر الآباء الفلاسفة »

« لا شئ مخز ، أو شائن ، عند الرجل الذى وهبه الله العقل . لكن المسألة ليست على هذا النحو بالنسبة للمرأة التى تجلب الخزى والعار ، حتى عندما تفكر فى طبيعتها ، وماذا عساها أن تكون »

كلمنت السكندرى

« أنت بوابة الشيطان .. أكلت من الشجرة المحرمة ، وأغريتِ الرجل الذى لم يستطع الشيطان نفسه غوايته على نحوٍ مباشر .. أنت ، أيتها المرأة حطمتِ بسهولة صورة الله التى هى الرجل »

ترتوليان

« جسد الأنثى ليس شيئاً جذاباً ، بل هو موضوع قذر ، وإنجاب الأطفال ليس مدعاة للبهجة والفرح ، بل هو علامة على الانهيار والتدهور »

القديس جيروم

« إن جمال المرأة لهو الشرك الأعظم ! ابتعد عن الفتاة الشابة مثلما تبتعد عن النار »

القديس يوحنا فم الذهب

تمهيد

على الرغم من أن المسيحية لم تأت إلى العالم ـ فى بدايتها ـ كمذهب نظرى أو فلسفة مجردة ، بل كديانة منزلة قدمها المسيح على أنها ديانة فداء ، وخلاص ، ومحبة ، وبعث رسله ليعظوا الناس بالخلاص لا ليشغلوا كراسى أساتذة الفلسفة فى الجامعات المختلفة ، رغم ذلك كله فقد كان عليها أن تشكل لنفسها مجموعة من الأفكار النظرية لترد على الفلسفات ، والمذاهب ، والمدارس القديمة ، ولا سيما اليونانية .

وصحيح أيضاً أن الرسل والحواريين أرادوا هداية العالم ، وتحويله إلى الديانة المسيحية ، وتمهيد « الطريق » أمام الناس للوصول إلى الله ، وليجتازوه عملياً وليس نظرياً ، فإنه كان عليهم ـ رغم ذلك ـ أن يدخلوا فى معارك لاهوتية مع اليهود ، وفلسفتهم ومع غيرهم ، بل ربما اضطروا فى بعض الأحيان إلى الدخول فى مواجهة مع فلاسفة اليونان بالمعنى الأكاديمى لهذا اللفظ ولقد عبر القديس بولس عن أول مواجهة مع اليهود واليونانيين معاً بقوله : « لأن اليهود يسألون آية ، واليونانيين يطلبون حكمة ، ولكننا نحن نكرز بالمسيح مصلوباً : لليهود عثرة ولليونانيين جهالة »[1] ثم توالت المعارك .

لقد كانت المسيحية تمد جذورها ، وتثبت أقدامها وسط جو من الشك والريبة ، بل والعداء أيضاً ، لا من اليهود فحسب ، بل من السلطات السياسية الرومانية أيضاً ، ومن المفكرين والمثقفين الوثنيين كذلك ، وتعددت أسباب الهجمات التى شنت على الديانة الوليدة فبعضها كان نتيجة الشك والريبة ـ كما قلنا ـ وبعضها جاء من الخوف من المجهول ، وبعضها الثالث من سوء الظن بالدين الجديد . وكان على المسيحية أن تواجه هذه الهجمات إذا أرادت أن تبقى ، كما كان عليها أن تستخدم الحجج اللاهوتية والفلسفية فى

(١) رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس : الإصحاح الأول : ٣٢ ـ ٤٢ .

آن واحد . ومن هنا جاءت العناصر الفلسفية فى كتابات الآباء الأول فى المسيحية وتسميتهم بالفلاسفة[١] .

وهكذا ظهر جيل من المفكرين الأوائل شكلوا ما سمي باسم عصر الآباء الفلاسفة ... Patristic Philosphers Period الذى امتد من القرن الأول حتى وصل إلى قمته فى القرن الرابع عند القديس أوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠) St. Augustine الذى يختم عصر الآباء ، حيث تبدأ أوربا بعده فى الدخول إلى العصور الوسطى ، من القرن الرابع حتى القرن الرابع عشر[٢] .

والخلاصة أن ظهور الآراء الفلسفية المسيحية كان يرجع فى بدايته إلى عناصر خارج المسيحية هى على وجه التحديد الهجمات المعادية . وهناك ـ بالطبع ـ إلى جانب ذلك عنصر مسيحى مستقل عن الهجمات الخارجة وهو شعور المثقفين ، والمفكرين المسيحيين برغبة قوية فى النفاذ إلى معطيات الوحى ، وتشكيل وجهة نظر شاملة عن العالم والحياة البشرية ، على ضوء الإيمان الجديد[٣] ، بما فى ذلك سلوك الإنسان فى حياته اليومية وعلاقته مع الآخرين ، ثم علاقة الرجل بالمرأة ، ومن هنا بدأت النظرة الفلسفية المسيحية عن المرأة تتشكل منذ عصر الآباء : فماذا قالوا عن المرأة ؟ وما هى الأفكار التى أشاعوها ثم اعتمدتها الكنيسة المسيحية طوال العصر الوسيط ، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من التراث المسيحى فى تلك الفترة ؟ .

* * *

---

(١) Fredrick Copleston : " A History of Philsophy " Vol.2 Search Press P. 13 .

(٢) قارن فى تقسيم هذه العصور التاريخية د . إمام عبد الفتاح إمام « مدخل إلى الفلسفة » الطبعة السادسة ص ١٧ .

(٣) F. Copleston : Op. Cit. P.14.

أولاً : كلمنت السكندرى (١٥٠ - ٢٢٣)

Clement of Alexandria

أب من آباء الكنيسة ، ومن أوائل الفلاسفة المسيحيين فى نهاية القرن الثانى وأوائل القرن الثالث - يعتبر مع تلميذه أوريجين من أهم فلاسفة الإسكندرية - والقدر الضئيل الذى نعرفه عن حياته نستخلصه إما من كتبه ، وإما من كتب المؤرخين من أمثال يوزيبوس Eusebius ، وفوتيوس Photius .

(١) حياته :

ولد حوالى عام ١٥٠ ميلادية . ربما كان الأرجح أن نقول إنه ولد فى أثينا لا فى الإسكندرية (رغم أن هناك من يقول إنه ولد فى الإسكندرية) .كان والداه من الوثنيين المثقفين . وربما كانا ميسورى الحال مما سهل له السفر ، والتنقل بين عدة مدن قبل أن يحط رحاله فى مدينة الإسكندرية ويستقر بها[١] .

تلقى تعليمه المبكر فى أثينا حيث كان مغرماً بالفلسفة اليونانية والآداب الكلاسيكية . وربما رجع تحوله إلى المسيحية إلى تأثير المعلمين فيه ، فقد سافر إلى الإسكندرية ، بعد اعتناقه الديانة المسيحية ، وهناك تلقى دروسه على يد بانتينوس Pantaenus رئيس المدرسة التى كانت تسمى مدرسة السؤال والجواب .. Catechetical ، ثم خلف أستاذه رئيساً لهذه المدرسة ربما حوالى عام ٢٠٠ ، ويذهب بعض الباحثين إلى أن الفيلسوف « أوريجين Origen » كان واحداً من تلاميذه . ثم رُسِّم كلمنت قسيساً فى هذه الفترة ، ولقد كتب معظم كتاباته - فى الأعم الأغلب - فى أثناء إقامته فى مدينة الإسكندرية . ثم فر منها أثناء اضطهاد الإمبراطور الرومانى « سبتموس سفيروس Deptimius Severus » حوالى ٢٠٢ - ٢٠٣[٢] ولا نعرف شيئاً عن السنوات المتبقية من حياته ، وربما قضاها واعظاً فى أورشليم وأنطاكية ، ومات حالى عام ٢٢٣ .

---

(١) Encyclopedia Americana Vol. 7. P . 49 .

(٢) إدوارد جيبون « إضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » ، ترجمة لويس إسكندر ومراجعة أحمد نجيب هاشم . الهيئة المصرية العامة للتأليف ، الترجمة ، النشر - القاهرة عام ١٩٦٩ص ١٧١ من المجلد الأول .

وفي الإسكندرية كتب كتاباً في « التربية » وفي هذا الكتاب يقوم «كلمنت » بإرشاد الرجل المسيحي في جميع شؤن حياته العامة والخاصة مبيناً له كيف ينبغي عليه أن يسلك في أدق التفصيلات ، بل ربما كانت أموراً غاية في البساطة ، أو حتى أشياء لا قيمة لها ـ على الأقل من وجهة نظر المفكر الجاد ـ فهو مثلاً لا يرى غضاضة في الحديث عما يجب على المسيحي أن يفعله أثناء تناوله الطعام ، فيطلعه على آداب المائدة ، ثم يعرفه ثانياً بأنواع الطعام والشراب التي ينبغي عليه تناولها ، وعدد الساعات التي يجب أن ينامها . ونوع الملابس التي يجب أن يرتديها ! ثم كيف ينبغي عليه أن يسلك داخل الكنيسة .

(٢) كلمنت ... والمرأة

وهو بالطبع لا يفوته أن يتحدث عن واجبات النساء ، لكنا ها هنا نراه يرفض استخدام ألفاظ « مهذبة » أو رقيقة (حتى وهو يتحدث عن أشياء بغيضة على حد تعبيره .) فهو يريد أن يكون صريحاً ، وصادقاً ؛ لأن الشدة إما أن تكون شدة وإما أن تتحول إلى رياء وكذب ونفاق . وهو يرى أن الله خلق الرجل والمرأة كما خلق كل عضوٍ عندهما : « ومن ثم فلا ينبغي أن يخجل أحد من تسمية مالم يخجل الله من خلقه ! » . فها هنا يكون التخفي والمداراة عملاً يدل على عدم احترام الخالق .

وفضلاً عن ذلك فقد رأى أنه من الأهمية بمكان أن توجه تفصيلات الحياة المسيحية طبقاً لتعليمات العقل الإلهي . ومن ثمَّ فسوف يعتبر إهمالاً وتقصيراً في واجبه إن لم يناقش كل ما يتعلق بشؤن المرأة ، صغيرة أو كبيرة ، ووظيفتها ، ودورها ، وأعمالها ! . غير أن آداب الحديث في عصرنا الحاضر تميل إلى استخدام ألفاظ مهذبة رقيقة وتحرم الالتجاء إلى ما يسمى « بالأدب المكشوف » ! . ومن هذا المنظور فإن المترجم الإنجليزي يقول مثلاً : «عندما قررنا ترجمة مؤلفات كلمنت السكندري إلى الإنجليزية . وجدنا أقساماً منها لا تتفق على الإطلاق مع الآداب العامة ، والأفكار الحديثة عن الاحتشام ، والتهذيب ، واللياقة ، فرأينا أنه ربما كان من الأفضل الإبقاء عليها في صياغتها اللاتينية بدلاً من ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية .. »[١] .

---

(١) James Donaldson : Woman : Her Bosition P. 152 .

ولم يكن كلمنت السكندرى بدعاً فى ذلك ، فإننا نستطيع أن نقول الشئ نفسه عن كتاب آخر هو « مأدبة العذارى العشرة » ، بقلم القديس ميثوديوس (٨٢٧- ٨٦٩) - Methodius ، وفيها يصور الأب المبجل « مأدبة » على غرار مأدبة أفلاطون الشهيرة ، لكنا بدلاً من أن نجد سقراط ، وأجاثون ، وغيرهما من المفكرين والأدباء فى محاورة الفيلسوف اليونانى - نجد هنا عشرة فتيات عذارى يمتدحن العذرية والبكورة ، وتكشف الفتيات العذارى عن معرفة دقيقة بتشريح المرأة ، وفسيلوجية الأنثى ، فضلاً عن انحرافات النساء .

والملاحظ أن اللاهوتيين ورجال الدين عموماً ، مغرمون بالحديث عن المسائل الجنسية بطريقة فجة ومفتعلة بحجة المصارحة ، والصدق ، والأخلاق ، ومن باب أنه لا حياء فى الدين ! « ولا يعتقدون أن فى حديثهم فحشاً من أى نوع . أيكون ذلك لأنه عندما يدخلون فى معركة مع شهوات الجسد لا ينتصرون فيها إلا ظاهرياً فحسب فى حين تظل الغلبة لهذه الشهوات ؟ إلا فكيف نفسر تلك المأساة التى وقعت فى مدينة الإسكندرية أيضاً - بعد ذلك بقرنين من الزمان - عندما قامت مجموعة من الرهبان باعتراض طريق « هيباشيا » فيلسوفة الإسكندرية وأنزلوها من عربتها ، وقام بطرس قارئ الصلوات بذبحها بعد أن جردها الرهبان «أنقياء القلب » من ملابسها قبل اغتيالها[١] . أيكون تجريدها من ملابسها قد تم حتى يتمكن الرهبان « أنقياء القلب » من « معاينة » جسد العذراء الجميلة وهو عارٍ تماماً قبل الذبح ، ألا يعنى ذلك أن شهوات الجسد كانت لا تزال طاغية فأرادوا أن يمتعوا « القلب النقى » بمشهد الجسد العارى ؟! أسئلة حائرة لكنها هامة تخطر على ذهنى كلما وجدت «الحديث الفاحش» عن الجنس من اللاهوتيين ورجال الدين ![٢] .

---

(١) قارن : إمام عبد الفتاح إمام « هيباشيا .. فيلسوفة الإسكندرية » ، دراسة فى مجلة عالم الفكر - المجلد الثانى والعشرون يناير ١٩٩٤ .

(٢) علينا أن نلاحظ دائماً المبدأ السيكلوجى الذى ذكرناه من قبل ، والذى يقول : « إن الكراهية الشديدة تنتج عن حب شديد .. » فقد يكون للإحباط والكبت ، والمحاولة اليائسة لقهر الشهوات .. إلخ دور ها فى هذه الآراء .

ولقد دافع بعض الكتاب والباحثين عما كتبه كلمنت السكندرى وذهبوا إلى أنه : «فى حالة كلمنت فلا أحد يشك فى صفاء ذهنه ، وبساطته ، وما كتبه ــ رغم أن بعض علماء اللاهوت يتبرأون منه ــ يخلو تماماً من أى نوع من أنواع الشبق . وإذا كان هناك قدر من « العهر » فى كتاب « مأدبة العذارى العشر » الذى كتبه القديس مثيوديوس ــ فإن عبارات كلمنت ، ولغته تستهدف الطهارة . واختلافنا معه يرجع إلى أن عواطفنا ومشاعرنا الحديثة قد تغيرت ، أكثر مما يرجع إلى ضاعة الشخصية التى كتبتها[1] .

لكن ما هو رأى كلمنت السكندرى ــ أول الآباء الفلاسفة فى المرأة ، ووظيفتها ودورها ــ كما يقول ؟

من الشذرات المتبقية من كتاباته نستطيع أن نستخلص أراءه على النحو التالى :

يبدأ كلمنت بالتفرقة بين الرجل المرأة على أساس العقل الذى مُنح للرجل ، وهو سبب مجده « لا شئ مخزٍ أو شائن عند الرجل الذى وهبه الله العقل . لكن المسألة ليست على هذا النحو بالنسبة للمرأة التى تجلب الخزى والعار ، حتى عندما تفكر فى طبيعتها ، وماذا عساها أن تكون .. »[2] .

وهكذا نجد كلمنت يقول صراحة إن المرأة موجود أدنى من الرجل بسبب العقل الذى هو تاج الرجل ، وهو يحافظ عليه نقياً دون أن تشوبه شائبة « العقل أمانة عند الرجال لا يلحقه خطأ ، ولا يعتريه عيب أو قصور .. أما عند المرأة فإننا نجدها بطبيعتها شيئاً مخزياً ومخجلاً حقاً ... » . فكيف يتعامل الرجال إذن ، مع هذه المخلوقة ؟ أفضل وسيلة هو إسكاتها ، وإغلاق الدار عليها، فواجبها أن تبقى فى المنزل ، وألا تجعل أحد يراها فى أى مكان ، ولا ينبغى لها أن تذهب إلى الموائد ؛ ذلك لأن نظراتها سوف تخلق فى أذهان الرجال أفكاراً شريرة ، ولا سيما أولئك الذين اعتادوا الإسراف فى الشراب . ولا ينبغى لها أن

---

(١) Quoted by J. Donaldson : Woman: HerPosition. P. 183 .

(٢) Ibid .

تحضر احتفالات الزواج ، إذ ربما أدت الأحاديث ، والأغانى فى الأفراح إلى شئ من الإباحية ولا ينبغى لها بالطبع أن تتجول فى الشوارع بحثاً عن النظريات الزائفة التى ترشق جسدها ، ولا أن تذهب إلى المسرح، ولا الحمامات العامة ، ولا إلى المباريات الرياضية العامة . وإذا كانت تريد ممارسة الرياضة فإن كلمنت السكندرى يقدم للنساء برنامجاً محدداً :

عليهن ممارسة رياضة الغزل والنسج . والإشراف على شؤن المطبخ ، فتلك أمور ضرورية - ثم يضيف - وفى استطاعة النساء أن يجلبن من المخزن ما يحتجن إليه .. وليس من العار عليهن استعمال المطحنة بأنفسهن ، فهى رياضة هامة ، وليس مما يجلب اللوم للزوجة أن تشغل نفسها بأمور الطبخ ، وإعداد الطعام الجيد الذى يكون سائغ المذاق لزوجها . وإذا ما رتبت فراش الزوج ، وأحضرت له الماء كلما أحس بالظمأ ، إذا ما أعدت مائدة الطعام بترتيب جيد قدر استطاعتها ، فإنها بذلك تكون قد قامت بتمرينات تجعلها صحيحة البدن(١) . أما فى المناسبات التى تترك فيها منزلها لعيادة مريض ، أو للذهاب إلى الكنيسة ، فلابد أن تضع الخمار على وجهها ، بحيث لا يُرى منه شئ قط ، وعليها أن تظل محجبة طيلة تواجدها فى الكنيسة أيضاً يقول فيلسوفنا : « لابد للمرأة أن تغطى جسدها تماماً ، مالم تكن موجودة فى بيتها لأن هذا الطراز من اللبس وقور ، وهو يحميها من حملقة العيون فى جسدها . وفضلاً عن ذلك فهى حينما تضع الخمار على وجهها لا يمكن أن تدعو غيرها إلى الخطيئة . تلك هى مشيئة الكلمة Logos ، منذ أن جاءت لتصلى وهى محجبة(٢) .

ولعل القارئ يلاحظ النظرة الجنسية الصارخة للمرأة ، وهى نظرة سوف تستمر عند اللاهوتيين ، ورجال الدين عموماً ، الذين لا يعرفون عن المرأة سوى الجنس ، فلا هى زميلة ، ولا زوجة ، ولا صديقة ، ولا أم ، ولا معلمة ، ولا طبيبة .. إلخ لا شئ سوى

---

(١) Ibid, P. 184 .

(٢) Ibid .

الجنس . ولهذا فلا يجوز لها أن تتزين على أى وجه « فليس جيداً عند الله ، أن تتزين المرأة المسيحية المؤمنة .. وهدف تغطية الجسد هو الدفاع عن هذا الجسد ، وصيانته من الإفراط فى البرودة أو شدة الحرارة .

ولما كان تزين المرأة السيحية ليس عملاً جيداً أمام الله ، فإن عليها ـ لهذا السبب ـ أن تودع حرائر الهند ، والملابس المطرزة بالذهب ، فتلك أمر ممنوعة بتاتاً ، فالمرأة محرم عليها ارتداء الزينة الذهبية أياً كان نوعها ، كما أن عليها أن تتجنب الملابس المصبوغة ، لأن الصبغة ضارة للصحة ، كما أنها تثير العيون النهمة ، فضلاً عن أنها مصطنعة وكاذبة ، ولو أن الله أراد أن تكون ملابس الصوف أرجوانية لخلق الخراف أرجوانية اللون . ولابد لنا من أن ندين بقوة أية محاولة لخداع النفس . يقول كلمنت :

« التزين فى غطاء الرأس ، وتنوع هذا الغطاء ، وزركشة الضفائر ، والنماذج التى لا نهاية لها من زى الرأس ، والمرآة الباهظة الثمن التى يرتبن بها هندامهن ـ تلك خصائص الأفعال الى تقوم بها النساء اللائى فقدن كل حياء .. » وإذا كان فيلسوفنا يدين زينة الجسد الطبيعى على هذا النحو ، فإن الوسائل الصناعية ، والحيل المصطنعة التى لا حد لها ، والتى تستخدمها السيدات اليونانيات والرومانيات هى كلها مكروهة ، بل هى فى الواقع ممقوتة من وجهة نظره . « وليس فى استطاعتك أن ترى الله ما دامت عيونك ملونة ، فهى ليست هى العيون التى خلقها ، بل العيون التى أفسدها الشيطان .. لقد اتبعته فقلدت العيون الحمراء عند الأفعى ، وتزينت بزى العدو ، ولهذا فسوف تدفنين بجواره .. » . ويلخص الخطاب الذى يوجهه إلى العذراء « فلتبق هيئتك كما هى بغير فساد ، وعنقك بلا زينة ، وشكلك بسيطاً ، ولا تخرمى أذنيك أو تؤذيها بالجروح . ولا تجعلى السلاسل الثمينة ، ولا السوار أو العقد النفيس يطوق ذراعك أو عنقك . حررى قدمك من القيود الذهبية ، ولا تلطخى شعرك بالأصباغ ، هكذا تصبح عيناك جديرتان بالنظر إلى الله .

ويروى كلمنت السكندرى قصصاً مرعبة عن بعض العذارى « لهذا السبب فإن

الكنيسة كثيراً ما تتجمع فى عذاراها . وهى لهذا تئن عندما تسمع بقصصهن الفاحشة المقززة . وهكذا تذبل زهرة العذراء وتذوى . وهكذا يضيع شرف العفة والاحتشام ، ويتدنس مجد الكنيسة وكرامتها . ومن هنا تجئ الدعوة إلى ضبط النفس ، والمثابرة على تحقيق المثل الأعلى وهى الطهارة ، لا الجسدية فحسب ، بل التى تمتد لتشمل نطاق الحياة بأسرها ... إذ سيكون من العبث الاحتفاظ بأعضاء الشهوة طاهرة نقية دون اللسان ، أو الاحتفاظ بنقاء اللسان من دون نظرات العين ، أو همسات الأذن ، أو لمس اليد وأخيراً سيكون من العبث الاحتفاظ بهذه الأعضاء نقية من دون الروح التى يلوثها الكبرياء والغضب »(١) .

ولا شك أن كلمنت السكندرى كان من أوائل الفلاسفة المسيحيين الذين بدأوا فى شن الحملات ضد الزواج وبيان مساوئه ، وسوف يتابعه بعد ذلك « ترتوليان » على نحو ما سنعرف بعد ذلك ، وهو يصور لنا آلام الطفل ، وصراخه عند قدمه للعالم لأول مرة لعلنا نعتبر ونمتنع من الزواج ، بالتالى عن إنجاب الأطفال :

« أواه يا أمى ! لماذا أتيت بى إلى هذا العالم ، وإلى تلك الحياة التى ينتهى طول العمر فيها ـ إن آجلاً أو عاجلاً بالموت ؟ لماذا أتيت بى إلى هذا العالم المضطرب الذى تكن فيه أول خبرة أمر بها بعد مولدى هى رباط القماط وقيوده ؟ لماذا ولدتنى وجلبتنى إلى حياة كهذه يضيع فيها الشباب ، ويرثى له قبل الشيخوخة .. ونصل فيها إلى شيخوخة محكوم عليها بالموت؟ ما أبشع مسار الحياة يأماه ! حياة يكون الموت ـ فى النهاية ـ هو هدف كل من يجرى فيها . وما أمر طريق الحياة الذى نسافر فيه ، ويكون القبر هو النُزل الذى يهبط فيه عابر السبيل! » .

وأخيراً ، فإن كلمنت السكندرى يقول عن القُبلة :

« لا يقاس الحب بالقبلة ، بل بالمشاعر الرقيقة ، لكن هناك من لا يفعل شيئاً سوى

---

(١) Ibid, P. 188 .

جعل الكنيسة تضج بالقبلات ، وهذا هو الاستخدام الفاحش للقبلة ، التى ينبغى أن تكون صوفية فلا تثير شكوكاً حمقاء ولا آراء شريرة ... !

لكن علينا قبل أن نغادر كلمنت السكندرى أن نحمد له دفاعه عن الفلسفة . فقد كان أول مفكر مسيحى يدافع عن الفلسفة ، بل ويدعو إلى دراستها ، وذلك فى معارضة الحركة التى قامت ضدها فى أرجاء الكنيسة المسيحية ، والتى وصفت الفلسفة بأنها بدعة شيطانية أثيمة ابتدعها إبليس الخبيث لتسميم حياة البشر ! يقول كلمنت : « يرى بعض الناس ـ ممن يظنون فى أنفسهم الذكاء ـ الاقتصار على الإيمان ، والانصراف عن الفلسفة والعلم . وهؤلاء ـ فى الواقع ـ مثلهم مثل من يأبى أن يتعهد الكرم ، ويريد أن يجنى منه بعد ذلك عنباً .. ! لقد كانت الفلسفة ضرورية لليونان قبل مجئ الرب حتى يطبقوا العدالة ، هى الآن مفيدة للتقوى، كما أنها تمهيد ضرورى للدين ، أعنى لأولئك الذين يصلون إلى الإيمان عن طريق الاستدلال العقلى ! » .

* * *

ثانياً : ترتوليان[1] (١٦٠ - ٢٣٠)

Tertullian

مع ترتوليان وصلت الكراهية المسيحية للمرأة إلى ذروتها ، وتحولت إلى عقيدة تقبلها الكنيسة قبولاً عاماً . فقد كان موقفه من المرأة حقودى وانتقامى بشكل غير مألوف ! وتتألف عناصر هذا الموقف على النحو التالى : تصور منحط عن غرائز المرأة ووظائفها ، استخفاف من وظيفة الأمومه وانتقاص من قدرها ، رعب من جاذبية الأنثى ، وقلق من غوايتها ، والتشديد على مسؤليتها عن السقوط وهى عناصر سوف نجدها منتشرة عند خلفائه وأتباعه ، والفلاسفة المسيحيين من بعده[2] .

(١) حياته :

ولد ترتوليان عام ١٦٠ فى قرطاجة (قرب مدينة تونس الحالية) ، وهو واحد من أشهر الآباء الفلاسفة فى عصره . ولد من أبوين وثنيين ، وتلقى تعليمه فى هذه المدينة ، وكان تعليماً أدبياً وقانونياً مكنه من ممارسة مهنة المحاماة ، فهو محام كبير من أهل قرطاجة . وقد كان اندماج الجانب الأدبى من ناحية ، والقانونى من ناحية أخرى سبباً فى شهرته .

ويعترف ترتوليان نفسه فى مؤلفاته بالخطايا التى اقترفها فى شبابه إذ يقول إنه قارف الزنى ، وتردد على أماكن الفسق والفجور . وكان كثير المجون حتى بلغ الثلاثين من عمره ، فتحول إلى المسيحية عام ١٩٠ - ربما أثناء مقام له فى روما - وتحمل تلميحاته أنه انفعل انفعالاً شديداً يومئذ لبطولة المسيحيين وهم يساقون إلى الموت ، فقدرتهم الهائلة على الإقناع قد أدخلت فى روعه أنهم يجسدون الحقيقة التى لا تقاوم ، فانصرف إلى التأليف فى

---

(١) اسمه الكامل باللغة اللاتينية هو :
Ouintus Septiius Florens Tertullian .
أى كوانتكس سبتميوس فلونس ترتوليانوس

(٢) Susan G. Bell; Woen : Fro The Greeks to the French Revolution.

الدين ، وكان كاتباً مجيداً ، ولاهوتياً عميقاً ، ضليعاً فى اللغتين اليونانية واللاتينية ، كتب باليونانية **أولاً** ، ثم عاد وترجم ما كتب إلى اللاتينية ليوسع مجال انتشارها ، إذ أن اليونانية قليلة الذيوع فى بلده واستمر على الكتابة باللغة اللاتينية ، فكانت مصنفاته إلى الكتب المسيحية بهذه اللغة كتب « دفاع عن المسيحيين Apologeticus » أثاره فى نفسه الاضطهاد الذى قام به الإمبراطور الرومانى « سبتميوس سيفيروس » هرباً كما سبق أن رأينا

ويبين ترتوليان فى هذا الكتاب عدم مشروعية الاضطهاد ، ويحتج على قسوة الإجراءات التى يقوم بها حكام الولايات الرومانية ضد المسيحيين ، ويرى أنها لن تجد فتيلاً ، بل على العكس سوف تزيدهم قوة وصلابة يقول فيما يشبه التحدى : « إننا نتكاثر إذ تحصدوننا ، وإن دم المسيحيين لبذرة ، وإن لكم فيما تأخذونه علينا من عناء لعبرة . فمن ذا الذى يشهده ولا يتزعزع ، ثم لا يبحث عن السرفيه ؟ ومن ذا الذى يبحث فلا ينضم إلينا ؟ ومن ذا الذى ينضم إلينا فلا يتوق العذاب والموت فى سبيل الحصل على النعمة الإلهية كاملة ، والعفو شاملاً ؟ .. »[1] .

(٢) ترتوليان ... المرأة :

يبدو أن فترة الشباب التى عاشها ترتوليان فى فسق ومجون ، قد أصابته بتأنيب الضمير، وجعلته يندم أشد الندم . لا شك أن هذه التجربة ساهمت بدور كبير فى تشكيل رأيه عن المرأة لما كان يشعر به من ألم . وعلى الرغم من أنه تزوج فقد كان يشعر بأن ضميره مازال يؤنبه لاقترافه هذه « الزلة » أيضاً وقد دفعه ذلك إلى الدخول فى سلك الرهبنة الصارم الذى جعله لا يتبرأ من الجنس فحسب ، بل من المرأة نفسها ! . ذهب ترتوليان فى أول بحث له إلى أن النساء تحكمهن دوافع حقيرة ، فالمرأة لا تهتم بإمكان الحب الصادق ، أو الجاد فى

---

(١) اقتبسه يوسف كرم فى كتابه تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط « ـ دار القلم بيروت لبنان ١٩٧٩ ـ ص١٦ ـ وانظر أيضاً جورج طرابيشى « معجم الفلاسفة » دار الطليعة بيرت ١٩٨٧ ، ص٢٠٨ .

الزواج . ومن هنا فقد راح ينصح زوجته في رسالة بعث بها إليها بعد أن سلك الرهبنة ، بأن لا تقدم على الزواج مرة أخرى إذا مات قبلها ، وهو يضع أمامها الدوافع المحتملة كالرغبة الجامحة ، أو الشهوة ، ثم الرغبة في السيطرة على منزل رجل آخر وإنفاق ما جمعه من مال بعد طول كد وعناء : « وإن أنت اشتقت إلى الأطفال ، فينبغي عليك أن تتذكرى أولئك الذين يعيشن بلا أطفال . إن أولئك الذين يعيشون بدون ثمرة الزواج المرهقة التي ينتفخ بها الرحم ، ولا شئ في صدورهم ، أولئك هم القادرون على خدمة الرب عند مجيئه للمرة الثانية »[1] .

ويكتب ترتوليان في « كراسات دينية » صغيرة عن « ملابس النساء » كما فعل كلمنت السكندرى من قبل . لكنه لا يدين الزينة ، والملابس فحسب ، بل يدين جنس الأنثى بصورة عامة وواضحة . رغم أنه يوجه حديثه إليهن بعبارة رقيقة « إلى الأخوات المحبوبات » ! ويجعل العنوان «كسوة النساء » ! لكنه سرعان ما يتخلى عن هذه الرقة المزعومة ، فيقول : « إن أية امرأة تتحقق من وضعها كأنثى فإنها سوف تولع بحقارة الظهور (وهو يرى أن مجرد العناية بالظهور مسألة ضيعة) سوف تسير مثل حواء ، نادمة منتحبة لدرجة أنها بكل ما تحمله من ثياب التوبة والندم لن تكفر عما ورثته من حواء أعنى : خزى الخطيئة الأولى ، وعار الهلاك البشرى ! »[2] .

لقد كان حكم الإدانة الذى أصدره الله على المرأة هو ... أكثر إتعاب حبلك ، بالوجع تلدين أولاداً ، وإلى رجلك يكون اشتياقك ، وهو يسود عليك (تكوين ٣ : ١٦) والواقع أن هذا الحكم يستمر حتى يومنا الراهن ، ومن هنا كان إثمها وإدانتها . يقول ترتوليان مخاطباً النساء عموماً : –

« ألا تعلمن أن كل واحدة منكن هى حواء ، وأن حكم الله على جنسكن مازال

---

(١) Simone De Beauvoir : The Second Sex P 129 & 199 .

(٢) Ibid .

قائماً حتى هذه اللحظة . وبالتالى فالجريمة قائمة : أنتن الباب المفضى إلى الشيطان ، أنتن اللائى أكلن من الشجرة المحرمة . فالمرأة هى التى أغوت الرجل لا العكس ، وأول من عصى الله ، وخالف الشريعة الإلهية ، وأطاع الشيطان ، هذا الشيطان الذى لم يجد فى نفسه الشجاعة والجرأة لغواية الرجل على نحو مباشر ! لكنكِ أنتِ ، أيتها المرأة ، حطمت بسهولة ويسر صورة الله التى هى الرجل « الصورة الإلهية فى الإنسان على نحو ما تجسدت فى الرجل .. وبسببك دخل الموت إلى العالم . وبسببك أيضاً كان لا بد لابن الإله أن يموت ، فينبغى عليك أن تنتحبى على الدوام ، مرتدية ثوب الحداد . أما الكسوة فأنا أنصحك أن لا ترتدى سوى أسمالٍ بالية »(١) .

علينا أن نتوقف هنا قليلاً لنلاحظ بعض الأمور فى هذا النص :

الأمر الأول : أننا نجد كراهية التراث القديم (اليهودى الرومانى بل اليونانى أيضاً) تطل برأسها من جديد متخطية تماماً المواقف الإنسانية الجديدة التى جاء بها السيد المسيح . بل إننا نجد الكراهية الأفلاطونية للجسد ترتدى زياً دينياً ، فالشهوة أو الرغبة الجنسية الجامحة ، وهى خاصية حيوانية تماماً ، هى النغمة التى يعرف عليها رجال الدين بصفة عامة ، وهم يميلون إلى إظهار الرجل بمظهر الحمل الوديع ، فى حين أن المرأة هى « بوابة الشيطان » هى شباكه ، وحبائله أو هى الشيطان نفسه وربما كانت أقوى منه ؛ لأنه لم يستطع غواية الرجل بل لم يجرؤ على ذلك مباشرة .

فكانت وسيلته المرأة تغويه ، وتغريه ، وتوقعه فى حبائلها . أى أن الرجل لو ترك بذاته لكان طاهراً عفيفاً نقياً بلا رغبة ، ولا شهوة و، لا ميل إلى الجنس على الإطلاق ! أو أنه فى أحسن الأحوال سوف يتمكن من التغلب على هذه « الدوافع الشيطانية » ، ويصل بقدراته الخاصة إلى بر الأمان .

---

(١) J. Donaldson : Op.Cit .

الأمر الثانى : أننا كثيراً ما نجد « القديس » الذى أنفق شبابه فى الفسق والمجون ، وأقترف الزنى ، وصادق الغوانى والعاهرات ... إلخ يلجأ إلى التوبة ، ويشن فى نهاية حياته ـ عندما يرتدى مسوح الرهبان ، ويتحلى بالعفة والقداسة ـ حملة بالغة العنف على « المرأة » ، ذلك الشيطان البشرى الذى أوقعه فى جميع هذه الخطايا ، وساقه إلى طريق الرذيلة والشر ، كأنه يبرر لنا مواقفه السابقة ويعتذر عنها ، لكن لا تكون لديه الشجاعة فى تحمل مسؤلية ما فعل، بل يلقى باللوم كله على المرأة ، ولسان حاله يقول : « ماذا كنت أفعل وهذه الشيطان الجميلة تدعونى إليها ، وتدغدغ غرائزى وشهواتى حتى أفلت الزمام منى ، ولم أعد أستطيع السيطرة على شئ ! لكنى وقد هدأت الغرائز وخفت الرغبة ، وضعفت الشهوة ، أبصر الموقف على حقيقته فأجدها مسؤلة مسؤلية تامة عما حدث ! » .

الأمر الثالث : أننا كثيراً ما نجد اللاهوتيين والقديسين ، والآباء ، ورجال الدين عموماً ، يميلون إلى وصف « جسد » المرأة وكأنهم يشعرون بمتعة ، ولاسيما فى سن الضعف ، بالحديث ، ولو مجرد الحديث عن جماله وتناسقه كنوع من التعويض النفسى عما فقدوه[1]

ولهذا فأنت تراهم يتحدثون عن عيون « المها » وصبغة العين ، وعن الشعر الفاحم ، والخد الناعم ، والفم المرسو ، والقوام الممشوق ، والصدر الناهد ... إلخ . ثم يطالبون المرأة بإخفاء هذه المفاتن ، وكأنهم لا يتحدثون عن هذه الأجزاء من جسدها إلا لينصحوها بطمسها وإخفاء معالمها .

من هذا المنطلق يواصل الأب الفيلسوف « ترتوليان » حملته ضد المرأة ، فيرى أنه ينبغى عليها ، لا فقط أن تكف عن التبرج فى مظهرها أو إبراز مفاتنها ، على نحو مادعا كلمنت السكندرى من قبل ، بل إن عليها : « أن تعمل على إطفاء هذه المفاتن ، وإهمال

(١) انظر فيما بعد عبارات القديس جيروم وهو يؤنب امرأة رومانية على صدرها المكشوف !! .

الجمال الطبيعى ، بل العمل على محو آياته ، ذلك لأن جمال المرأة الطبيعى بالغ الخطورة ، لكل من يراها أو يتصادف أن يسوقه حظه العاثر للوقوع فى طريقها ».

وعلى حين أنه يعترف بأن الجمال الطبيعى ليس جريمة فى حد ذاته ، فإنه مخيف ومرعب ، لأنه عنيف ضار لمن يعشقه أو يطلب وده[١] .

وهكذا يصدر ترتوليان حكماً قاطعاً وحاسماً : «كل امرأة ينبغى عليها أن تضع حجاباً ، وخماراً على وجهها (أو أن عليها أن تخفى وجهها وراء نقاب ..)[٢] الأم من أجل أبنائها ، والأخت من أجل أخواتها ، والابنة من أجل أبيها ، مادامت هى نفسها بشخصها تعرض جميع الأعمار للخطر .. »[٣] .

أما موضوع الجمال فهو هبة من الله ، ولا دخل للمرأة فيه . لكن ترتوليان يرى مع ذلك ضرورة العمل على إخفائه بشتى الطرق ، كما لو كان « عورة » لا يجوز لها أن تظهر ! ومن هنا فإننا نراه يتساءل : « هل المرأة جميلة؟ تلك هبة طبيعية لا بد من طمسها ، وذلك عن طريق تجاهلها وإهمالها ، بوصفها أمراً خطيراً على عيون الناظرين ! » ولهذا فلابد للمرأة ـ ولا سيما الجميلة أن تغطى نفسها من قمة الرأس إلى أخمص القدم !

وعلى حين أن موقف ترتوليان تجاه النساء كان موقفاً انتقامياً حقداً غير مألوف ـ كما سبق أن ذكرنا ـ تدفعه إليه تجاربه المجونية فى شبابه ، ثم توبته وندمه بعد ذلك ، فإن جميع عناصره مثل : التصور الحقير لدوافع المرأة ووظائفها ، والحط من قدر الأمومة والاستخفاف

---

(١) Ibid .

(٢) لم تكن مشكلة الحجاب والنقاب وليدة اليوم أو الأمس القريب ، بل هى تضرب بجذورها فى الماضى الموغل فى القدم ، لا فقط فى العصور المسيحية ولا الرومانية ، بل ترتد إلى التراث اليهودى . فقد جاء فى نشيد الإنشاد « للنبى سليمان » : «جميلة أنت يا حبيبتى : جميلة عيناك من وراء نقابك خداك كفلقة رمانة من راء النقاب » . الإصحاح الرابع : ١ ـ ٤ .

(٣) Quoted by : Ketherine M. Rogers : Op. Cit.P. 17 .

بها ، والرعب من جاذبية الأنثى وغواتها ، والتأكيد المستمر ، وبإلحاح ، على مسؤلية المرأة عن السقوط ـ جميع هذه العناصر موجودة عند معاصريه من آباء الكنيسة ، فالقديس جرجورى ثاومتيرجس Gregory Thaumaturgu (حوالى ٢١٣ ـ ٢٧٠) وهو أحد آباء الكنيسة الشرقية ، والذى كان أسقفاً فى مسقط رأسه فى مدينة قيصرية الجديدة Neo - Caesarea [١] يقول :

« كلما بحثت بين النساء جميعاً عن العفة المناسبة ، فإننى لا أجد منها شيئاً . إن المرء قد يجد رجلاً عفيفاً بين ألف رجل . لكنه لن يجد ذلك قط بين النساء » . ثم يضيف إنهن يخدعن عقول الرجال بوسائل تزينهن ، ويقطرن لهم السم بنظرة من عيونهن ، ثم يأسرونهم بأفعالهن » . من ثم فإن على الرجل الحذر أن يوجه مشاعر الحقد والكراهية نحو النساء جميعاً بغير استثناء ! ثم يقول : « لقد أظهرنى ملاك الرب على أن ما تفعله النساء بسحرهن يسيطر على الملك والشحاذ على حدٍ سواء . هن يسلبن من الملك مجده . ومن الرجل الشجاع قوته وبسالته ، بل حتى من الشحاذ قدرته على تحمل فقرة »[٢] .

وسوف نجد هذا الموقف نفسه عند خلفاء ترتوليان أيضاً ، فهم جميعاً يقيمون فكرهم حول المرأة بناء على تجارب شخصية أولاً ، ثم على التراث اليهودى الرومانى ثانياً ، وعلى الأسس التى وضعها القديس بولس فى نظريته عن المرأة ووجوب خضوعها للرجل .

ومن هنا فسوف نجد القديس أوغسطين يمر بنفس جربة ترتوليان الجنسية مع الغوانى والعاهرات ، ويضع كتاباً خاصاً هو « الاعترافات » يعترف فيه بذنوبه وآثامه ، فقد أنجب ابناً من امرأة زانية كان يطلق عليه طوال حياته « ابن خطيئتى » ! وسوف نرى كيف سار القديس أغسطين فى نفس الطريق الذى أنشأه القديس بولس ، وبعده ترتوليان ، وغيره من

---

(١) كانت مدينة قيصرية الجديدة عاصمة لفلسطين فى عهد الرومان ، وهى تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط جنوب حيفا أما مدينة قيصرية القديمة فكانت تقع فى أواسط تركيا .

(٢) J. Donaldson : Woman: Her Position, P. 183.

الآباء الفلاسفة . وهو طريق ينتهى بالنظر إلى المرأة بوصفها موجوداً أدنى من الرجل ، ومن ثم فإن عليها أن تخضع له مستسلمة لمصيرها المحتوم ، لهذا فسوف نراه يقتبس باستحسان ما قالته أمه القديسة مونيكا Monica للنساء اللائى انتقدن أزواجهن فى حضورها يقول القديس أوغسطين:

« كانت أمى تطيع زوجها طاعة عمياء . وإذا مازارها نسوة كان أزواجهن أقل قسوة من رجلها ، ومع ذلك لم يضنوا على نسائهم بضربات لا تزال آثارها بادية على وجوههن . كانت تقول لهن : الذنب ذنبكن ، فاجتنبنه . فإن الخادمات لا يصح ، لا يجوز لهن أن يقاومن سادتهن، وما كنتن لترتكبن هذا الخطأ لو يعيد أزواجكن على مسامعكن ما دوّن فى عقود زواجكن ، فأنتن تعرفن أنه عقد عبودية سجلتهن على أنفسكن(١) . »

فلو أن المرأة تدبرت عقد الزواج قليلاً لوجدت أنه صورة قانونية لشكل من أشكال امتلاك الرقيق ... ! فقد تحولت النساء وبفضله إلى جوارى ، وعليهن أن يسلكن على هذا الأساس(٢) ... !

(٣) الزواج :

اتفق آباء الكنيسة ـ بصفة عامة ـ كما لو أن الأمر أقرب إلى البديهية ، على أن الزواج يمثل وضعاً أدنى من ـ الناحية الأخلاقية ـ من « العذرية Virginity » ومن ثم لا يمكن تبرير العملية الجنسية إلا أنها وسيلة لإنجاب الذرية . غير أن ما تنفرد به العذرية من ميزات وخصائص كان هو الموضوع المحبب ، والحديث المفضل للكراسات الدينية والأخلاقية التى

---

(١) Quoted by : Katherine M. Rogers : The Troublesome Helpmate : A History of Misogyny In Literature Seattle, Wash. University of washington prees 1966, P. 16 .

(٢) قارن « القول الشافى أن النكاح نوع رق ، فهى رقيقة له ، فعليها طاعة الزوج مطلقاً فى كل ما طلب منها فى نفسها مما لا معصية فيه » الإمام أبى حامد الغزالى « إحياء علوم الدين » المجلد الثانى ـ دار الريان للتراث عام ١٩٨٧ ص٦٤ .

يصدرها الآباء ، فكل مؤلف ظهر له على الأقل حديث من أحاديثه الدينية حول هذا الموضوع في مجموعة مؤلفاته ، ولقد برهن القديس أوغسطين ببراعة على أن الآباء الأول الذين ذكرهم الكتاب المقدس لم يمارسوا الجنس إلا أنهم كانا مضطرين للإنجاب ، حتى يعقوب نفسه كان يفضل الامتناع عن الذرية لولا إلحاح زوجاته !

ويبدو الارتباط واضحاً بين إدانة الجنس ، وكراهية المرأة في حكاية رواها القديس أوغسطين في « مناجاته » يقول « ذات يوم أقنعني عقلي أنه لشئ حقير ، بغيض ، مقزز ، مخجل ومرعب حقاً ، أن أرتمي في أحضان امرأة ... » . لكنه يعترف أنه في هذه الليلة نفسها انغمس في نزوات حسية أنسته عقله ! وفي اليوم التالي أقنع نفسه مرة أخرى بأنه « لا شئ يهبط بروح الرجل من أعلى عليين أكثر من مداعبة امرأة وتقبيلها ، والتصاق الجسدين الذي لا يمكن أن يحدث بدون أن تكون هناك زوجة .

وعلى الرغم من أن آباء الكنيسة كانوا يؤمنون نظرياً بأن العلاقات الجنسية تلوث الجنسين معاً ، وتقوم بتدنيسهما على حد سواء ، فقد كان من الطبيعي - بوصفهم رجالاً - أن يؤكدوا الأثير الفاسد للنساء على الرجال ، أكثر من أن يؤكدوا العكس أعني تأثير الرجال الفاسد على النساء !

واستمرت المناقشات حول الزواج حتى ظهر تياران في الكنيسة منذ التاريخ المبكر : أحدهما يؤيد الزواج ، والآخر يرفضه ويحتقره . مع ذلك فلم يستطع أحد أن يقول إن الزواج إثم أو خطأ ، فذلك يتعارض مباشرة مع أقوال المسيح في العهد الجديد ، بل على العكس ظل التقليد الكنسي هو أنه من الهرطقة القول بتحريم الزواج .

واكتفى الآباء الرسوليون بتقديم النصائح للزوجات لكي يحبوا أزواجهن ، ويخضعوا لهم ، فضلاً عن قيامهم بتربية أطفالهن على معرفة الله وخشيته ، وكلما مر الزمن أصبحت هذه النصائح أقل ، وشيوعاً إن ظلت الكنيسة تبارك الزواج

أما « ترتوليان » فقد كانت آراؤه تؤيد زواج المؤمنين ، وكانت كلماته قوية وحاسمة .

يقول عن بركات الزواج :ـ

« من أين نجد الكلمات الكافية التى تصف سعادة ذلك الزواج الذى دعمته الكنيسة ، وأكده القربان الدينى ، ووقعت عليه البركة ، وختمته بخاتمها ، وحضرته الملائكة ، وصدق عليه الآباء وأقروه ؟ » ثم يصف فرحة الزوجين بقوله :

« معاً يصليان ، معاً يسجدان ، معاً يصومان ، يعلم كل منهما الآخر وينصحه ، ويشد من أزره[1] ... » .

و « ترتوليان » هنا لا يؤكد على أهمية الزواج بصفة عامة ، وإنما يركز حديثه على بركات الزواج ، وغبطته بين المؤمنين الذين يتزوجون وفق تعاليم الكنيسة ، فى مقابل الزواج الذى يكون بين طرفٍ مؤمن وآخر غير مؤمن ، ولا تقره الكنيسة أو تصادق عليه ، فهو يقارن بين نوعين من الزواج ويدعو لأحدهما ويرفض الآخر .

أما الزواج المبارك المقبول من الكنيسة فواجبات الزوجة فيه بسيطة للغاية : « إن عليها أن تطيع زوجها ؛ لأنه بمثابة الرأس لها ، وهو سيدها ، وهو الأعلى والمتفوق عليها[2] . ومن ثم فإن واجبها أن تخشاه ، وأن تهابه ، وأن تحترمه ، وأن تسره ، وأن تسعده هو وحده ، كما أن عليها أن تتحلى بالصمت الذى وصفه اليونانيون من قبل بأنه تاج المرأة وزينتها » ! وعليها أيضاً أن تقوم بالغزل ، ورعاية المنزل ، وينبغى عليها أن تقر فى بيتها أن تراقب أطفالها[3] . والمناسبة الوحيدة التى يمكن أن يسمح لها فيها بالخروج خارج المنزل هو

---

(١) J. Donaldson, Woman: Her Position .... " P.175 "

(٢) قارن « حق الرجل أن يكون متبوعاً لا تابعاً . والزوج هو السيد » ... إلخ . وأيضاً « ثلاثة إن أكرمتهم أهانوك وإن أهنتهم أكرموك : المرأة ـ والخادم ـ والنبطى » .

(النبطى = من شعب النبط) « إحياء علوم الدين للإمام الغزالى » دار الريان ـ المجلد الثانى ص ٥١ .

(٣) « القول الجامع فى آداب المرأة من غير تطويل : أن تكون قاعدة فى قعر بيتها لازمة لمغزلها ، لا يكثر صعودها وطلوعها ، قليلة الكلام لجيرانها ، لا تدخل عليهن إلا فى حالٍ يوجب الدخول ، تحفظ بعلها فى غيبته ، وتطلب مسرته فى جميع أمورها ، ولا تخونه فى نفسها وماله ، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه.. إلخ » إحياء علوم الدين المجلد الثانى ص٦٦ .

ذهابها إلى الكنيسة ، أو بصحبة زوجها لزيارة أخٍ مريض[1] .

وعلى الرغم من أن « ترتوليان » لا يحرم الزواج ـ فهو نفسه قد تزوج ـ لكنه بغير شك يضعه فى مرتبة أدنى من « العذرية » يقول : لقد جمعت أقوال الكتاب المقدس فوجدته يقول إن الكلمة (المسيح) جاءت من العذرية ، والمسيح لم يحرم تماماً إنجاب الأطفال . إذ على الرغم من أن القمر قد يكون أعظم من النجوم ، فإن ضوء النجوم الأخرى لا يدمرها ضوء القمر » ، وهكذا يضع تدرجاً لترتيب النساء : « العذراء أولاً ثم الأرامل ثانياً وأخيراً الزوجات » . وهكذا نجد ترتوليان يتحدث عن الزوجات بوصفهن نساء من الدرجة الثانية وقعن فى حبائل الزوجية[2] . كما هاجم آباء الكنيسة « الزواج الثانى » وأدانوه ونقصد بالزواج الثانى من يتزوج بأخرى بعد وفاة زوجته الأولى . يقول « أثناجوراس Athenagoras[3] » فى معارضة صريحة للزواج الثانى « إن من حُرِمَ من زوجته الأولى ، وتزوج بأخرى ، حتى لو كان ذلك بسبب موتها فهو زان مقنع » . وفى نفس التيار يقف فيلسوفنا ترتوليان وحجته ضد الزواج الثانى « أن الله جعل من الزوج والزوجة جسداً واحداً ، ولابد أن يظلا جسداً واحداً حتى لو مات أحدهما . فإذا كانا جسداً واحداً فكيف يمكن أن ينضاف إلى هذا الجسد امرأة ثانية ، إنها لا يمكن أن تصبح جسداً واحداً ، والحق أن ترتوليان Tertullian ابتعد عن إيمان الكاثوليك ، اقترب من إيمان المونتانيين Montanists فأكد أن الزواج الثانى يساوى الزواج من امرأتين فى وقت واحد ، ومن ثم فهو محرم ! ومن الواضح ـ مهما يكن من الحجج التى يسوقها ـ فإن نزعة الشك والزهد تكمن خلف أحاديثه . وذلك موجود بوضوح عند ترتوليان الذى كتب رسالة موجهة إلى زوجته يحذرها

---

(١) J. Donaldson : Op. Cit. P. 175 .

(٢) Ibid, P. 179 .

(٣) أب من آباء الكنيسة المسيحية فى القرن الثانى ، وهو واحد من المدافعين عن الدين . قدم دفاعه الشهير بعنوان « إلتماس من أجل المسيحيين » وجهه إلى الإمبراطور مرقس أوريليوس ابنه سنة ١٧٧ .

فيها من الزواج مرة أخرى لو أنه مات قبلها ، كما هو واضح فى حديثه عن القيامة . يقول فيها فى ذلك اليوم (يوم القيامة) : « لن يكون بيننا استرجاع أو استئناف للخزى الشهوانى » . وفى رسالة أخرى يقول : « فلنتأمل مشاعرنا فى ذاتها لنرى ما الفارق الذى يشعر به الرجل نفسه عندما يتصادف أن يحرم من زوجته وكم يتذوق ذلك روحياً ؟ !»[1] .

لقد كان ترتوليان فى عصره استثناء فى قوة شجبه ، وإدانته للزواج الثانى . وكانت الكنيسة فى ذلك الوقت قد اشترطت على المسيحيين الحصول على إذن مسبق منها للزواج الثانى . والواقع أن معارضته للزواج الثانى كان لها أثر كبير فى حياة الأسرة . ومن الغريب حقاً أن يندر ذكر الأطفال عند الكتّاب المسيحيين فى القرنين الثانى والثالث ! فلا شئ يقال عن تربيتهم ، وتعليمهم ، فهل اقتنع المسيحيون فى ذلك الوقت أن العالم يزخر بعدد كاف من الأطفال ؟ وأن ميلاد أطفال جدد سيكون مبعث حزن لا فرح ؟ ربما أجابت عبارة كلمنت السكندرى التى أسلفناها عن صرخة الطفل الأولى لمجيئه للعالم ـ عن هذه الأسئلة[2] .

أما بالنسبة لترتوليان فالأطفال عبء لا نستطيع احتماله ، بل هم خطر على الإيمان يقول :

« هناك مبررات أخرى للزواج ، يزعمها الرجال لأنفسهم ، تنشأ من القلق على الذرية والأجيال القادمة ، والمتعة المريرة لوجود الأطفال . غير أن هذا فى نظرنا عبث لا طائل تحته . ولم الشغف بوجود الأطفال وتربيتهم ، مع أنهم إذا وجدوا فإننا نسرع بأن نرسلهم قبلنا إلى الشهرة والمجد (وأنا أعنى بهذا الخصوص الحزن أو الألم الذى هو سيف مصلت فوق رؤوسنا) ـ مع أننا نرغب رغبة جامحة فى إخراجهم ـ على نحو ما نريد أن نخرج أنفسنا ـ

(١) J. Donaldson : Op. Cit. P. 179 _ 180

(٢) Ibid, P. 180 .

من هذا العالم الشرير لنكون بين يدى الله ؟ ! »[1] ويقول أيضاً .. « .. فلتقل إن عبء الأطفال المعروف جيداً كان لنصح الآباء إذ اضطر الرجال أن يكون لديهم أطفال بحكم القانون ؛ لأنه ليس ثمة رجل عاقل يرغب بإرادتـــه أن يكن له أطفـــال ، « وهـو يعلن » ـ حقاً ـ أن الرجل المسيحى يبحث عن وريث محرم مثله من متع الدنيا بأسرها[2] ... » .

(٤) العذارى والأراسل :

يبدو أن الكنيسة فى عصر ترتوليان Tertullian كانت تختار العذارى لأداء الخدمة الدينية فيها ، وتطلق عليهن اسم « الأرامل » . وهو نظام كان فيما يبدو معمولاً به فى جميع كنائس الشرق فى منتصف القرن الثالث الميلادى . ففى ذلك الوقت كانت حياة الأرملة قد سقطت فى « سوق الروح » وظهرت أهمية العذرية . صحيح أنه لم يكن من الخطأ للأرملة أن تتزوج ، لكن الأصح أن زواجها كان يفسر على أنه دليل ضعف ، وعدم قدرة على ضبط النفس ، وهو فى النهاية يسمها بوصمة يجعلها غير صالحة لخدمة الكنيسة . أما العذراء فهى التى ترحب الكنيسة بأدائها للخدمة الدينية على اعتبار أنها تزوجت « المسيح » ، وطلقت العالم كله ، أو أنها أماتت شهواتها ، وكما لو أنها أضحت أرمله بالفعل ، ولهذا كانت الكنيسة تطلق عليها هذا الاسم . غير أن « ترتوليان » رفض هذا الاتجاه ، فهو فيما يبدو لا يرحب بدخول المرأة الكنيسة أو العمل بها ، وإن حدث اضطرت الكنيسة إلى قبولها ، فينبغى أن يكـون ذلك فى أضيق نطاق ، على نحو ما سنعرف بعد قليل .

يقـول « ترتوليـان » : « أعلم تمام العلم أنه فى مكان ما هناك عذراء يقل سنها عن عشرين سنة توضع فى سلك الأرامل » . وهو يحتج بقـوة ضـد هذه الطريقـة الجديدة المبتكرة ، من ثم نراه يتهم « العذراء الأرملة » بأنها « عذراء منحرفة » أو شاذة السلوك .

---

(١) Ibid, P. 181 .

(٢) Ibid .

وهى لا تصلح للعمل إذ ليس لديها خبرة : لا فى الحياة الزوجية ، ولا فى تربية الأطفال ، ولا فى التعامل مع الآخرين(١).

غير أن احترام العذرية كان ينمو ويزداد فى تلك الأيام ، وكانت الظروف تتجمع لتدعم النظام الجديد . فحتى نهاية القرن الثانى لم تكن هناك أماكن عامة للعبادة المسيحية ، ولا دور عبادة، فقد كان المسيحيون يلتقون في بيوت خاصة . وكان المستأجرون ، أو السكان ، يقومون بإعداد جميع الترتيبات الضرورية للاجتماع .

لكن عندما بدأ بناء الكنائس بدأ الموظفون الرسميون برعايتها ، وعُيِّنَ الشمامسة(٢) لهذا الغرض . وقد أعدت الكنيسة ترتيبات خاصة للمصلين ، فقد كان النساء يدخلن من أبواب خاصة ، وينفصلن عن الرجال ، وعلى الباب المخصص للنساء تقف « شماسة » من النساء لتوجيه الزائرات إلى أماكنهن . وللتأكد من أن الجميع يسلكن بهدوء واحترام . وكان ذلك هو العمل الكبير الذى تقوم به النساء فى الكنيسة . وشيئاً فشيئاً أصبح هو عملهن الوحيد ، لكنهن كن يساعدن الشمامسة فى الخدمة أيضاً ولاسيما فى الأعمال التى تناسب النساء ، فمثلاً رأت الكنيسة أنه فى عملية تعميد الأطفال ليس من الضرورى أن يقوم الرجال بعمل الترتيبات اللازمة لهذا الاحتفال ، ومن ثم فقد تُرِكَ للشمامسة من النساء القيام بهذه الأعمال البسيطة خلع ملابس الطفل ، وإعداده للعماد ، ثم إعادة ارتدائه لملابسه مرة أخرى . وقل الشئ نفسه فى عملية العماد بالنسبة للكبار إذ يقوم الشماس بمسح جبهة المرأة المسيحية بالزيت فقط .

على أن يترك للشماسة القيام بمسح جسد المرأة كله(٣) .كم تقوم الشماسة كذلك

---

(١) Ibid, P. 159 .

(٢) الشمامسة جمع شماس والشماس كلمة سريانية تعنى من يقوم بالخدمة فى الكنيسة ، وهى مرتبة دون القسيس ، ولهذا يقال عادة إن الشماس هو مساعد القسيس .

(٣) J. Donaldson : Op. Cit .

بعمل الأرامل فتنقل بعض الرسائل والحاجات إلى النساء الفقيرات . لكن الشماسات لا يقمن بوظائف روحية فلا يقمن بالوعظ أو التعليم ، ولتحمل الأرملة ذهناً خالياً ولتتفرغ للصلاة . ولا ينبغى عليها أن تجيب عن أية أسئلة حول الإيمان والاستقامة والأمل فى الرب .. إلخ .

غير أن ترتوليان يُحرِّم أن تقوم الشماسة من النساء بعملية العماد ، فهو عند مناقشته لترتيبات العماد يذهب إلى أن الأسقف Bishop من حقه قبل أى إنسان آخر القيام بهذه العملية ، ثم القسيس أو الكاهن ، أو شيخ الكنيسة ثم الشماسة من الرجال ، فإذا لم يجد أحد من هؤلاء فليقم بالتعميد عابر سبيل ، أو رجل الشارع ، لكن لا يجوز فى جميع الحالات أن تقوم امرأة بهذه العملية !

ويعتمد ترتوليان فى هذا التحريم على القديس بولس ، يقول : « كيف يمكن لنا أن نصدق أن من حرّم على المرأة حتى أن تُعلّم (يقصد بولس) ، سوف يعطى للأنثى سلطة التعميد ، لتصمت نساؤكم ، ولتستشر أزواجهن فى المنزل[1] .... » .

والغريب أن هذا التقليد انتقل من الكنيسة الشرقية إلى الكنائس فى الغرب فهى لم تعط قط أية وظائف ، كليركية للنساء ، فقد كان يُنظر إليهن باستمرار على أساس أنهن أدنى مرتبة من الرجال ، ومن العار على الرجل أن يتلقى تعليماً ، أو تهذيباً ، أو إرشاداً ، أو حتى بركات كنيسة من امرأة ! .

ترتوليان .. والمونتانية :

نود أن نختتم هذا الحديث عن ترتوليان بقصته مع مذهب « المونتانية » فما هو هذا المذهب ؟

---

(١) Tertullian : De Baptismo, C. XVIII .

« المونتانية Montanism » مذهب دينى مسيحى نشأ فى مدينة صغيرة هى« تيميون Tymion » فى فريجيا Phrygia بآسيا الصغرى فى النصف الثانى من القرن الثانى الميلادى (فيما بين ١٥٦ ـ ١٥٧) وإن كان من الباحثين من يرى أنه نشأ بعد ذلــك حــوالى (١٧١م) على يد كاهن اسمه مونتانوس Montanus زعم أنه صوت الروح القدس ، وتنبأ بأن المسيح سوف يعود إلى الأرض فى وقت قريب جداً . ومن أجل ذلك راح يدعو الناس إلى التوبة ، والصيام ، الإستشهاد ، والصوم عن الزواج . وقد بقيت المونتانية ذات شأن فى آسيا الصغرى إلى أن أصدر الإمبراطور « جوستنيانس الأول Justinianus I » (٤٨٣ ـ ٥٦٥) فى القرن السادس للميلاد تشريعاً قاسياً ضدها[١] .

ظهر هذا المذهب إذن فى عصر « ترتوليان » وانضم إليه فيلسوفنا فى بداية نشأته . وكان للمذهب نشاط ملحوظ فى تدعيم قضية المرأة فى فرجيا أولاً ، ثم امتد نشاطه إلى سوريا ، ومصر ، وشمال إفريقيا ، وإيطاليا ، وإسبانيا ، وبلاد الغال . ويرجع البعض سبب انتشارها السريع إلى ضعف الحماس الذى كان عند المسيحيين فى ذلك الوقت[٢] .

كان موقف المذهب غريباً بعض الشئ بالنسبة لقضية المرأة ، فهو يقدم الشكر لحواء ، لأنها كانت أول من أكل من شجرة المعرفة . كما أنه أثنى على مريم شقيقة موسى ، وكذلك بنات فيلبس Philips الأربعة ، لأنهن أكدن حق المرأة فى النبوة ، أعنى نقل رسالة الله إلى العلن . وكان يوجد عادة فى كنائس هذا المذهب سبع عذارى يرتدين الملابس البيضاء ، ويحملن المشاعل ، ويتحدثن إلى النساء حديثاً مؤثراً حتى تنحدر دموع التوبة والندم على خدود المستمعين . فضلاً عن ذلك كله فقد احتلت النساء فى هذا المذهب مناصب دينية رفيعة ، فكان منهن الأساقفة ، ومشايخ الكنيسة ، والقساوسة ، والشمامسة

---

(١) Tewentieth Century Encyclopedia, Vol.2 Barker Books Hous,1955, P. 751 .

(٢) Ibid .

مثلهم مثل الرجال سواء بسواء واستخلصوا فى ذلك بعض عبارات للقديس بولس يقول فيها « فى يسوع المسيح ليس هناك ذكر ولا أنثى ! » وأولوها تأويلاً خاصةً بأنها تعنى المساواة التامة بين الرجال والنساء ، وأنها ليست مجرد حديث عن « الإيمان » .

غير أن ترتوليان سرعان ما انفصل عن هذا المذهب وكون لنفسه شيعة خاصة به ، وشن حملة عنيفة على أفكار هذه الفرقة الدينية ولاسيما ما قالته عن النساء يقول : «كم هن خليعات عاهرات أولئك النسوة الهراطقة ! ؛ لأنهن تجرأن وعلمن ، وجادلن ، وناقشن وقمن ، بتلاوة الصلوات ، والأناشيد ، والتعاويذ .. وذلك كله تجديف على الله ، وربما قمن بأداء طقوس العماد أيضاً .. !! .

* * *

فإذا تساءلنا فى نهاية حديثنا عن « ترتوليان » ماذا كان موقفه من الفلسفة ؟ لوجدنا أنه ، على العكس من كلمنت السكندرى ـ ظن أنها عدو للدين ، فشن عليها حملة بالغة العنف ، وكان أل فيلسوف مسيحى بارز يكتب باللاتينية ويظهر احتقاراً ظاهراً للوثنية وللعلم الوثنى ، ويتساءل ما العلاقة المشتركة بين الفيلسوف والرجل المسيحى ، بين تلميذ اليونان وصديق الخطأ ، وبين ابن السماء وعدو الخطأ وصديق الحقيقة ؟

لا شئ مشترك بينها على الإطلاق![1] « ما العلاقة بين أثينا وأورشليم ، بين الأكاديمية والكنيسة ، بين المارقين والمؤمنين ؟ لا شئ قط ! ونحن نتبرأ ممن ابتدعوا مسيحية رواقية أو مسيحية أفلاطونية أو مشائية .. بعد المسيح والأناجيل لسنا بحاجة إلى شئ ! » . بل إن حكمة سقراط لا ترقى كثيراً طالما أنه لا يوجد أحد يستطيع أن يعرف الله من دون المسيح ، ولا المسيح من دون الروح القدس وفضلاً عن ذلك فإن سقراط ، كما اعترف بنفسه ـ كان يقوده الشيطان ! . أما أفلاطون فقد اعترف بدوره ـ فى رأى ترتوليان ـ

(١) F. Copleston : A History of Philosophy Vol.2 Search Press, P. 23 .

بأن من الصعب عليه أن يصل إلى صانع الكون Demiorgos (من اللفظ اليونانى Demiorgos) فى الوقت الذى وصل إليه أبسط رجل مسيحى ![1] . أما أرسطو « التعس » ففى استطاعتك أن تستخدم منطقة فى الهدم والبناء على السواء ! وفضلاً عن ذلك فإن فلاسفة اليونان هم آباء الهراطقة . فنظرياتهم الأخلاقية ، وكذلك معظم أفكارهم ، استعاروها من العهد القديم فى الكتاب المقدس ، ثم شوهوها ونسبوها إلى أنفسهم ! ومن ثم فإن الاعتماد على مؤلفات الفلاسفة واستخراج الأدلة منها ، منهج عقيم ، ولهذا يبتكر منهجاً آخر هو استنطاق النفس ، ويبين فى كتابه « فى النفس » أن النفس تنزع بطبيعتها إلى الدين ، ولا سيما فى أوقات الضيق والشدة ، فتظهر المشاعر الدينية التى فطر الله النفس عليها ، ومن هنا فإن « ترتوليان » يعتمد كثيراً على المشاعر والعواطف ، وليس العقل ، أيمكن لنا أن نعجب بعد ذلك إذا ابتكر منهجاً يقوم على الإيمان بالخلف والعبث والتناقض واللامعقول ؟ فهو صاحب المبدأ الشهير أؤمن لأنه خُلفٌ محال Credo quia Absurdum est أو بصيغته الأخرى ، أؤمن لأنه محال . Credo quia impossible est

* * *

(١) Ibid .

ثالثاً : القديس جيروم (٣٤٥ ـ ٤٢٠)
St. Jerome

فيلسوف من أكبر لاهوتيي الكنيسة المسيحية فى عهودها الأولى ، ويقول « رسل » إنه واحد من أربعة رجال يطلق عليهم « أساتذة الكنيسة الغربية »(١) .

(١) حياته :

ولد جيروم عام ٣٤٥ فى مدينة تسمى «ستريدون Stridon » لا تبعد كثيراً عن مدينة « أكويليا Aquileia » بوسط إيطاليا . وقد أصيبت ستريدون بالدمار على أيدى القوط عام ٣٧٧ وكانت أسرته ميسورة الحال ، لكنها لم تكن بالغنية . وفى سنة ٣٦٣ قصد روما حيث درس البلاغة ، واقترف الخطيئة ، وبعد أن ارتحل فى بلاد الغال ألقى عصاه فى «أكويليا» ، وأصبح من الزاهدين ، وأنفق السنوات الخمسة اللاحقة راهباً فى صحراء سوريا ، فكانت حياته حياة قوية وندماً صارماً يكفر به عما اقترف ، كانت حياة دموع وآلام يعقبها فترات من النشوة الروحية ، ثم تعاوده الذكريات المغرية بالغواية عن الحياة الرومانية وقد أقام فى كهف يجمع قوته بنفسه ويرتدى ثوباً من وبر الإبل وبعد هذه الفترة سافر إلى القسطنطينية وأقام فى روما ثلاثة أعوام ، حيث أصبح صديقاً للبابا « داماسوس Damasus » وهو الذى دفعه إلى ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة اللاتينية . وأثناء إقامته فى روما اتصل بسيدات كثيرات ممن جمعن بين الأرستقراطية التقوى وقد حمل بعضهن على اصطناع حياة الزهد فكره البابا الجديد هذا المسلك من جيروم (وكان موت داماسوس قد جعله يشتبك في خلاف مع البابا الجديد) وشارك البابا فى كرهه كثيرون من أهل روما .

---

(١) هم القديس أمبروز ، والقديس جيروم ، والقديس أوغسطين ، والبابا جريجورى !

(٢) جيروم ... والمرأة :

من الباحثين من يرى أن القديس ـ جيروم وهو ثالث مفكر كبير فى هذه الحقبة ـ كان من زوايا كثيرة ، أكثر رقة ولطفاً فى معاملته للنساء ، إذا قورن بأى أب آخر من رجال الكنيسة فقد كان يشعر بمتعة لا حدٌ لها عندما يقوم بالدريس لهن حتى أنه كون حوله حلقة أثناء إقامته فى روما ، تتألف من سيدات كثيرات ممن جمعن بين الأرستقراطية والتقوى[١] حيث كان يقوم بشرح الكتاب المقدس لهــن ، ويحثهن على الزهد والتنسك ـ كما قلنا ـ ومن بين من استطاع هدايتهن من النساء الممتازات « مارسلا Marcella » «وبولا Paula » هما أرملتان ، ثم ابنتا الأخيرة وهما « بلايزيلا Blaesilla » « ويوستوخيوم Eustochium[٢] » .

ولقد كانت ظاهرة النساء المثقفات شائعة وحية فى زمن القديس « جيروم St. Jerome » ونستطيع أن نقدر أهمية المساعدة العلمية التى قدمتها « بولا » وابنتها ، فى خلوتهما الفلسفية ، إلى شارح الكتاب المقدس من خلال هذه الكلمات البسيطة التى بعث بها إليهما فيلسوفنا : « أنتما الضليعتان فى الأدب العبرى ، والمؤهلتان للحكم على صحة وسلامة نص مترجم ، أعيدا النظر فى هذا النص كلمة كلمة (وكان النص المترجم من سفر أستير) للتأكد منم أنى لم أضف شيئاً ، أو أنقص شيئاً من النص الأصلى ، ومن قدرتى على النقل الصحيح والأمين إلى اللاتينية لهذه القصة العبرية .. »[٣] . وهكذا ولد

---

(١) برتراند رسل تاريخ الفلسفة الغربية الجزء الثانى ترجمة د. زكى نجيب محمود لجنة التأليف ، والترجمة، والنشر عام ١٩٦٨ ص٦٣ .

(٢) The Encyclopedia of Religion and Ethics Vol. 7 edited by James Hastings 1967, P. 498 .

(٣) اقتبسته مونيك بيتر فى كتابها « المرأة عبر التاريخ » ترجمة هنرييت عبود ، دار الطليعة للطباعة والنشر ـ بيروت ص٩٩ .

يوماً بعد يوم وبفضل مساهمة نسائية النص اللاتينى الشهير للتوراة المعروف باسم « الفولجات Vulgate » .

غير أننا ينبغى أن ننتبه جيداً إلى هذا الموقف ، فلا شك أن القديس « جيروم » دافع بقوة عن صداقته للنساء على أساس أنه ليس ثمة مايشين إذا ما عقد المرء علاقة صداقة مع ذلك الجنس الذى انحدرت منه مريم العذراء . فهى على كل حال « صداقة أفلاطونية » بريئة تجرد المرأة من كل ما يتعلق بأنوثتها ، فلا عواطف ، ولا غرائز ، ولا جسد ، ولا زوجـة ، ولا أم . إلخ [1] . وقد كره بابا روما الجديد من جيروم هذا المسلك ، وشارك البابا فى كرهه كثيرون من أهل روما وهو مسلك يستحق بالفعل « التأمل » ! .

ومهما يكن من شئ فقد ظل جيروم يهاجم الجسد ، بل والزواج نفسه ، حتى أنه اندفع فى هجوم عنيف على شخص يدعى « هلفيديوس Helvidius » لأنه جرؤ على أن يأخذ إشارة الكتاب المقدس إلى أخوة المسيح مأخذ الجد[2] فاستنتج من هذه الإشارة أن السيدة مريم مارست الجنس مع يوسف النجار بعد الميلاد العذرى للسيد المسيح . هناك قام القديس جيروم بهجوم كاسح على هذا التجديف الفاضح فقال فى نقده لهذا الرجل : «لقد دنست قداسة الروح القدسى الذى عزمت أن تجعل منه فريقاً من أربعة أخوة ، ومجموعة من الأخوات » . فقد كره « جيروم » مجرد التفكير فى أن تكون السيدة مريم زوجة عادية ، وتسلك مسلك أية زوجة تحب زوجها وترعى أطفالها [3] .

---

(٤) Katherine M. Rogers : The Troublesome Helpmate A History of Misogyny in Literature, P. 19 .

(١) من المعروف أن السيدة مريم كانت مخطوبة ليوسف النجار ، وبنت عم اليصابات والدة يوحنا العمعمدان وتعتقد الكنيسة الكاثوليكية أنها ولدت بلا دنس ، وأنها ظلت عذراء طيلة حياتها . وما ورد فى الكتاب المقدس من ذكر أخوة ليسوع إنما ينصب على أولاد العم والخال .

(٢) تقول بعض المصادر الدينية : ترعرع يسوع فى الناصرة مع أربعة أخوة هم : يعقوب ويوسى ، ويهوذا ، وسمعان ، وعدة أخوات بين أحضان أمه وهم يشيرون أحياناً إلى ما جاء في إنجيل مرقس : « أليس هذا هو النجار ابن مريم ، وأخو يعقوب ، ويوسى ، ويهوذا ، وسمعان ؟ أو ليست أخواته هاهنا عندنا مرقس ٦ : ٣ .

ولم يكن القديس « جيروم » يجد شيئاً جذاباً فى الأمومة ، بل إنه ليجد فى المرأة الحامل منظراً مقززاً للنفس ، وهو لا يستطيع أن يحد مبرراً للهفة الإنسان على الذرية . «فما الذى يجعلك تهفو إلى طفلٍ مزعجٍ يزحف على صدرك ، ويلوث عنقك بقاذورات بغيضة .. ؟! .. فهو يريد جمال المرأة فى صفاته ونقائه دون أن يمسسه دنس .

وينصح صديقاته من النساء أن يعشن عذارى فى بيوتهن إذا تعذر عليهن دخول الدير ويكاد جيروم يعد الزواج من الخطايا ويقول : « أنى لا أمدح الزواج إلا لأنه يأتينى بالعذارى » ويريد « أن يقطع بفأس البكورية خشب الزواج » . وهو يفضل بولس الرسول الأعزب على بطرس الذى تزوج . ومن أطرف رسائله ما كتبه إلى « يوستوخيوم Eusto-chium » فى لذة البكورية ، ويقول لها فى هذه الرسالة إنه لا يعارض الزواج ، لكن الذى ينجون منه ينجون من آلام الحمل ، وصراخ الأطفال ومتاعب البيوت ، وعذاب الغيرة وهو يعترف بأن طريق العفة شاق أيضاً ، وأن ثمن البكورية هو اليقظة الدائمة .

إن فكرة احدة قد تكفى لضياع البكورية .. فليكن رفاقك هم صُفر الوجوه الذين هزلت أجسامهم من الصوم ... وليكن صوك حادثاً يتكرر فى كل يوم ، اغسلى سريرك ، ورشى مخدعك كل ليلة بالدموع ... ولتكن عزلة غرفتك هى حارسك على الدوام .. ودعى الله عريسك هو الذى يلعب معك فى داخلها ... فإذا غلبك النوم جاءك من خلف الجدار ، ومد يده من خلال الباب ، ومس بطنك ، فصحوت من النوم ، وقمت واقفة وناديته « إنى أهيب بحبك فتسمعينه يقول إن أختى حبيبتى ، جنة مغلقة وعين ماء مفتوحة ، وينبوع مختوم .. » .

ويقول « جيروم » إنه لما نشر هذه الرسالة : « حياها الناس بوابل من الحجارة » ولعل بعض قرائها قد أحسوا فى هذه النصائح بلوعة مقيمة فى رجل يبدو أنه لم يسلم بعد من حرارة الشهوات .

ولما ماتت « بليزلا Blesilla » الفتاة الزاهدة بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت عام ٣٨٤ خرج من روما فى العام التالى ٣٨٥ ، ولم يعد إليها أبداً .

فإذا كان القديس جيروم قد أولى بعض النساء عناية خاصة ، فقد جاء ذلك على حساب الأنثى بصفة عامة ، وعلى حساب كراهيته لأهم وظيفة بيولوجية للمرأة ، ومن هنا ظهر عداؤه القوى لجنس النساء !

فمن الغريب أن يهاجم القديس « جيروم » فكرة الزواج نفسها ، فهو يبعث ببعض الرسائل إلى « يوستوخيوم » تستوقف النظر لغرابتها ، فهو ينصحها بالاحتفاظ ببكارتها ، ويجعل نصحه لها فى هذا الصدد مفصلاً وصريحاً غاية فى التفصيل والصراحة ، بل ويتعمد أن يشرح المعنى البيولوجى والتشريحى الدقيق لبعض العبارات التى وردت فى «العهد القديم» فى هذا الموضوع ، واكتفت بالتلميح دون التصريح ! وتراه فى مدحه للذائذ الحياة فى الأديرة يستخدم ضرب من التصوف الغزلى هو أقرب إلى التعويض كما يقول علم النفس : فالراهبة عروس المسيح ، وقد أشيد بهذا الزواج فى « نشيد الإنشاد » ، فهو يكتب رسالة إلى «يوستوخيوم » الفتاة العذراء يحثها على التمسك بالرهبنة ؛ لأنها ستتزوج من المسيح يقول للفتاة :

« احرصى أبد الدهر على أن تكون لغرفتك حرمة تحرسك احرصى أبد الدهر على أن يلاعبك « العريس » داخل غرفتك ، هل تؤدين الصلاة ؟ إنك فى الصلاة تتحدثين إلى «العريس» هل تقرئين ؟ إنه فى القراءة يتحدث إليك إنه إذا ما أخذك النعاس ، أتاك من خلف وضع ، يده خلال ثقب الباب . و عندئذ سيهتز قلبك ، فتستيقظين وتنهضين لتقولى إننى « نشوانة من الحب » وعندئذ سيجيبك قائلاً : « إن بستاناً مستوراً هو بمثابة أختى وعرسى ؛ إنها ينبوع مصون فى هذه الغرفة ، ونافورة مختومة ! » وفضلاً عن ذلك فإن « القديس جيروم » يبعث لأمها برسالة هامة يبرر لها تشجيعه لابنتها لرفض الزواج ، ويطلب فيها أن تفرح لذلك : « أأنت غاضبة منها لأنهـا اختـارت أن تكون زوجة لملك

(يقصد المسيح) بدل أن تكون زوجة لأحد الجنود ؟ لقد خلعت عليك ميزة كبرى لأنك الآن قد أصبحت حماة المسيح[1] ... » .

الواقع أن موقف القديس جيروم من المرأة بالغ الغرابة ، وهو محير للباحث إلى أقصى حد ، فأنت معه تشعر أنه يكن لها حباً عميقاً لكنه حب انقلب إلى كراهية فأراد أن يجرد المرأة من أنوثتها ، ولا يجعلها تمارس أية علاقة تذكره بهذه الأنوثة ، ولكنك تشعر أحياناً أخرى أنه يعانى من صراع عنيف بين الجوانب الدنيوية ، والجوانب الروحية - فهو يقرب الأرسقراطيات الجميلات ، وبنات الأشراف ، ويصطحب الفتاة «يوستوخيوم» وأمها « بولا » فى رحلته الطويلة المتعرجة إلى بيت لحم ولما ماتت « بولا » دفنها فى بيت لحم وكتب القديس قصيدة شعر توضع على قبرها :

ابنة سيبيو Scipio[2] ترقد فى هذا القبر

هى سليلة أسرة بولس التى طبقت شهرتها الخافقين .

هى غصن من أرومة آل جراتشى Gracchi وهى فى نسل اجاممنون درة لامعة .

هاهنا ترقد السيدة بولا ، التى أحبها والدها حباً شديداً ،

وابنتها هى يوستوخيوم Eustochium ، وهى أولى سيدات الرومان اللائى اخترن المشقة ، وقصدن إلى بيت لحم فى سبيل المسيح .

ويشهد على ما كان يعانيه من صراع ، ما يرويه عن نفسه من كبح جماح نفسه ، ومجاهدة ومعاناة ، فهو يصوم وينقطع عن الطعام الشهى الذى تعوده ، ثم يقرأ « شيشرون»

---

(١) فى الأصل « حماة الإله » وقد آثرنا هذا العديل . انظر برتراندرسل تاريخ الفلسفة الغربية ، الجزء الثانى رجمة د. زكى نجيب محمود ٦٣ - ٦٤ .

(٢) كان سيبيو Scipio قنصل روما عام ٢١٢ ، كما كان قائداً رومانياً شهيراً ، قاد مع شقيقه حملة إلى أسبانيا ضد قرطاجنة لكنهما هزما وقتلا معاً .

وبعد أن يقضى أياماً وليالى فى تأنيب نفسه كان يعود فيسقط مرة أخرى ، ويقرأ بلوتس Plautus الكاتب المسرحى الهزلى الرومانى ، وبعد هذه القراءة يظهر له أسلوب الأنبياء قبيحاً منفراً وأخيراً يرى فى الحلم وهو محموم ، أن المسيح يسأله يوم الحساب من ذا عسى أن يكون ، فيجيبه أنه مسيحى ، وعندئذ يأتيه رد المسيح : « أنك كاذب ، فأنت من أتباع شيشرون لا المسيح » . وأمر به بعدئذ أن يضرب بالسياط ، وأخيراً صاح جيروم من حلمه قائلاً « مولاى إذا أبقيت عندى بعد اليوم كتباً دنيوية ، أو إذا قرأت بعد اليوم مثل هذه الكتب ، فقد أنكرتك » ثم يضيف إلى ذلك قوله : « إن هذا لم يكن نعاساً ، ولا كان حلماً فارغاً »[(١)] .

من الواضح ، إذن ، أن القديس جيروم كان يعانى من هذا الصراع الدنيوى لـ لروحى ، كما أن حبه للمرأة وكراهيته للجنس كان يدفعه بقوة نحو الإشادة بالعذرية والبكارة ، ومهاجمة الحياة الزوجية بألفاظ قاسية محذراً الرجال من قوة الغواية عند النساء ! وهو يعرف ، صراحة ، أنه كان يعانى _ وهو يحيا حياة النساك فى صحراء سوريا _ من خيالات المرأة التى تطوف بذهنه ، فهو كثيراً ما مزقته أطياف الفتيات وهن يرقصن[(٢)] . ولهذا نراه يحذر الكاهن من أن يسمح لامرأة أن تدخل أو تجلس معه على انفراد فى مكان منعزل[(٣)] . فيقول له :

---

(١) برتراند رسل المرجع السابق ص٦٥ .

(٢) Katherine M. Rogers : Op. Cit. P. 20 .

(٣) وهو يؤنب امرأة رومانية بعبارات تنم عن تقديره لجمال النساء ، كما أنها مشحونة بتلميحات جنسية لا تخفى :

إن صدرتك مشقوقة عن عمد وثدييك مشدودان بأربطة من التيل ، وصدرك سجين فى منطقة ضيقة وخمارك يسقط أحياناً حتى يترك كفيك البيضاويين عاريين ، ثم تسرعين فتغطين به ما كشفته عن قصد ! » اقتبسه ول ديورانت فى كتابه «قصة الحضارة » المجلد الثانى عشر ترجمة محمد بدران ص١٠٩

« ضع فى اعتبارك أنك لن تكون قديساً أكثر من النبى داود ، ولن تكون حكيماً أكثر من سليمان الحكيم ، وتذكر دائماً أن امرأة واحدة هى التى قادت رجل الفردوس إلى خارجه ؛ ففقد (آدم) الجنة التى وهبها له الله ! ».

ويمكن لنا أن نقول إن القديس «جيروم » يكشف فى كثير من الأحيان عن انفصام فى الشخصية بالغ الغرابة : فهو من ناحية يُبدى تقديراً وإعجاباً لا حد لهما بالعذارى والأرامل بشرط أن يكرهن الزواج (أى أن يعملن على طمس جانب الأنثى فيهن) . ومع أنهن نساء فى نهاية الأمر فهن رغم ذلك رفاق الروح فى رأى القديس جيروم ، لكنه من ناحية أخرى يكن للمرأة كراهية عميقة ، فضلاً عن احتقاره للجسد وكل ما يتعلق بالجنس أهو الحب العميق ، الذى سبق أن تحدثنا عنه ، الذى لم يجد وسيلة للإشباع فانقلب إلى كراهية عميقة ؟!

ومن هنا فقد انطلق القديس جيروم فى مهاجمة جوفنيان Jovinian بعنف ؛ لأنه تجرأ ووصف الزواج بأنه يمكن أن يكون رابطة فاضلة ومرغوبة مثله مثل حالة العذرية والبكارة سواء بسواء . وها هنا يُظهر القديس جيروم كراهية واضحة للمرأة ؛ ولهذا نراه يأتى بحجج من الكتاب المقدس ليبرهن على أن الزواج رجس من عملِ الشيطان ، وهو تدنيس للنفس البشرية . ألم يكن هو نفسه نتيجة للسقوط ؟ ! والقديس جيروم يلجأ إلى الملك سليمان بوصفه رجلاً خبيراً فى شؤون الجنس – على حد تعبيره – ثم يسيئ تأويل النصوص التى يقتبسها من سفر الأمثال لكى يبين لنا مِنْ خلال رجلٍ جرَّب النساء وعانى منهن مَنْ هى الزوجة ، ومن هى المرأة .

يقتبس القديس جيروم ثلاثة نصوص من سفر الأمثال تدور حول البغايا والعاهرات ، ونصاً واحداً عن امرأة سليطة اللسان ، ويظن أنه بذلك قدَّم لنا الحجج الدامغة على الخصائص العامة للزوجة ، بصفة خاصة ، ووصف لنا طبيعة المرأة عموماً .

أما النص الأول ففيه حديث عن ثلاثة أشياء عجيبة إحداها : «طريق المرأة الزانية ،

أكلت ، ومسحت فمها ، وقالت ما عملت إثماً » (أمثال ٣٠ ـ ٢٠) ولست أدرى كيف يمكن أن نجد فى نص كهذا إدانة للمرأة بصفة عامة ، مع أن النص صريح فى إدانته للمرأة الزانية وحدها ؟ إنه يتحدث عن وقاحة امرأة معينة دون أن يتعرض بكلمة واحدة لجنس النساء ، وفضلاً عن ذلك فإنه يمكن أن تقال العبارة نفسها عن الرجل الزانى أيضاً ؛ فالحديث هنا لا يعدو استهجان سلوك إنسانى آثم !

أما النص الثانى فهو يتحدث عن أربعة لا تقول كفى[1] : « الهاوية ، والرحم العقيم ، وأرض لا تشبع ماء ، والنار » (أمثال ٣٠ : ١٥ ـ ١٦) وإذا كان هذا النص يشير إلى أن امرأة لا ترتوى جنسياً فهو خطأ ، أما إذا كان يشير إلى شوق المرأة العاقر إلى الأطفال .. فلست أدرى ما الذى يشين المرأة فى ذلك ؟ بل ألسنا نجد الرجل العاقر لهوفاً عليهم أيضاً ؟

النص الثالث يقول : أربعة لا تستطيع الأرض احتمالها : « عبد إذا ملَك ، وشنيعة إذا تزوجت ، وأحمق إذا شبع ، وأمة إذا ورثت سيدتها » (أمثال ٣٠ : ٢ ـ ٢٢) .

ويذهب القديس جيروم إلى أن هذه النصوص تكشف عن أن المرأة موجود شاذ ؛ فالرغبة الجنسية عندها لا تشبع . ويكفى ـ فى رأيه ـ أن الكتاب المقدس وضعها بين أربعة أشياء لا تستطيع الأرض احتمالها ، وينتهى من ذلك كله إلى أن : الزوجة توضع فى مصاف الشرور العظيمة . وبعد أن يقتبس من كتاب ثيوفراسطس Theophrastus المفقود والذى عنوانه «مساوئ الزواج » يقول عنه فى زهو : إنه كتاب يساوى وزنه ذهباً . ويسرد فى فرحة المنتصر قائمة طويلة بأسماء زوجات شهد لهن التاريخ بالسوء والسلوك الشائن :

---

(١) وهو أقرب إلى ما يقوله العامة فى بلادنا من أن المرأة لا تشبع من الناحية الجنسية ، وهو قول بالغ الخطأ ؛ لأنه يسقط الفروق الفردية أولاً ، ويتغاضى عن موضوع الختان ثانياً ، ولا يضع فى ذهنه ثالثاً أنك قد تجد من الرجال من لا يشبع جنسياً أيضاً .

فهناك ترنتيا Terentia[1] التى تزوجت ثلاث مرات ، واكزانثيب Xanthippe[2] التى اعتادت أن تسكب المياه القذرة على رأس سقراط وتلاميذه وهم يتناقشون أمام منزلها ، وميتالا Metalla التى لم تكن عفيفة ولا طاهرة ، وأكلوريا بولا Akloria Paula السكّيرة التى تحدت زوجها كاتو Cato ، وأولمبياس Olympias التى أغلقت الباب فى وجه زوجها فيليب المقدونى ومنعته من أن يدخل غرفة نومه[3] . وإذا قلنا للقديس جيروم هذه أمثلة شاذة لزوجات سيئات ، لكن هناك ملايين غيرهن من الزوجات الصالحات الفاضلات المخلصات[4] لأجابنا بقوله : وما الذى يجبرنى على القيام بمغامرة فتكون لى امرأة أتزوجها سواء أكانت صالحة أم طالحة ؟ إننا نادراً ما نجد زوجة خالية من هذه العيوب ، أو بغير أخطاء ، أو بغير منازعات وانفعالات طاغية، وكل من تزوج يعرف ذلك حق المعرفة[5] .

فإذا كان القديس جيروم يقدر بعض النساء ، فهو يعلى من شأنهن على حساب جنس المرأة بأسره . وشأنه شأن بقية الآباء يركز على أمرين أساسيين : الجنس ، والخطيئة الأولى . وها هنا يعتمد تماماً على التراث اليهودى ، وخوفه من غواية المرأة ، وإدانته للشهوة الجنسية . وما يذكره من قصص عن شمشون ، وداوود ، وسليمان وغيرهم . وهو يستخرج من نصوص الكتاب ما يعمل على طمس هذه الجاذبية ، وكثيراً ما يكرر بإصرار أن جسد

---

(١) أول زوجة لشيشرون ، وقد طلقت منه عام ٤٦ ق. م وكان يقول عنها أنها تعرف فى أمور السياسة أكثر مما تعرف عن شؤون بيتها . وعندما فتر حبه لها بسبب طبعها الحاد من ناحية ، وغرامه بسيدة شابة غنية من ناحية أخرى ، طلقها فتزوجت واحداً من أعداء زوجها السياسيين !

(٢) لم يذكر جيروم شيئاً عن معاملة سقراط السيئة لزوجته ولا زوجة أرسطو التى أشاد بها .

(٣) Katherine M. Rogers Op. Cit. and Susan Bell P. 87 - 88 .

(٤) هناك بنلوبى ، التى نقضت غزلها ، وظلت تنتظر زوجها أكثر من عشرين عاماً ، وهى تماطل فى خطّابها . وهناك ألكستيل التى ضحت بنفسها من أجل زوجها .. إلخ وقد ضرب بهما أرسطو المثل على الزوجة الفاضلة صاحبة الامتياز . انظر كتابنا « أرسطو والمرأة» مكتبة مدبولى ، القاهرة ص١٠٥ ـ ١٠٦

(٥) Katherine M. Rogers : Op. Cit .

الأنثى ليس شيئاً جذاباً ، بل هو موضوع قذر . وإنجاب الأطفال ليس مدعاة للفرح والبهجة ، بل هو علامة على الانهيار والتدهور ! .

تربية الفتاة :

ربما كان القديس جيروم أكثر الآباء الفلاسفة اهتماماً بالتربية والتعليم ،؛ حتى أنه وضع رسالة خاصة لخص فيها أفكاره عن تربية الفتاة وتعليمها . وكان المسيحيون فى بحثهم عن حياة روحية أعظم قد اكتشفوا حياة الدير التى بدأت تشيع منذ القرن الرابع الميلادى ، ولقد راح القديس جيروم يبشر بها ويعظ بفضائلها ، ويجذب نساء روما وأراملها إليها . وقد سبق أن رأينا كيف جذب الفتاة « يوستوخيوم » وأمها « بولا » اللتين صَحِبَتَاه إلى بيت لحم حيث أنشأ ثلاثة أديرة للراهبات ، ودير رابع للرهبان ، وفيه عكف على تأليف معظم كتبه . وفى عام ٤٠٣ كتب رسالة موجهة إلى زوجة ابن السيدة بولا ينصحها كيف تربى ابنتها التى وضعتها حديثاً ، وكان يأمل أن تربى الفتاة على أن تظل عذراء تهب نفسها لله !

يقول فى هذه الرسالة :

فلتتلق طفلتك تعليماً جديراً بمولدها . لقد ترعرع صموئيل فى المعبد[١] ، ويوحنا فى البرية[٢] . الأول أرسل شعره لا يذوق الخمر ، ويحادث الرب وهو صبى صغير ، والثانى يتجنب الحياة فى المدن ، ويضع حول وسطه منطقة من الجلد ، ويتغذى على الجراد وعسل النحل ، ويرتدى جلد الحيوان ـ على هذا النحو ينبغى أن تربى النفس التى ستكون معبداً للرب ، فتتعلم ألا تسمع وألا تقول ما يجعلها تخشى الله ؛ فلا تعرف شيئاً من الكلام الأحمق، ولا أغنيات دنيوية ، بل أن يتحلى لسانها بموسيقى المزامير العذبة . وليبتعد عنها

(١) المقصود النبى صموئيل . « وكان صموئيل يخدم أمام الرب وهو صبى متمنطق بأفود من كتان ، وعملت له أمه جبة صغيرة » .. إلخ صموئيل الأول ٢ :١٨ ـ ١٩ .

(٢) « وفى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز فى برية اليهودية » .. إلخ متى ٣ : ١ ـ ٢ .

الأطفال بعبثهم ، ومرحهم ، ونزواتهم ، ولتعمل مربيتها على إبعادها عن كل ما هـو دنيوى ؛ حتى لا يصل إلى مسامعها أيه معارف شريرة[1] . أما الزى وما ينبغى أن ترتديه الفتاة من ملابس فيقول عنه القديس جيروم :

أما بالنسبة لملابسها ومظهرها الخارجى فيجب أن تذكريها باستمرار أنها موعودة للمسيح: فلا تخرمى أذنيها ، ولا تلطخى وجهها بالأصباغ ، ولا خديها باللون الأحمر ؛ فهى كلها مكرسة للمسيح . ولا تثقلى عنقها بالذهب واللآلئ ، أو رأسها بالجواهر ، ولا تصبغى شعرها باللون الأحمر ؛ لأنك بذلك تتنبئين لها بنيران جهنم . دعيها تتحلى بجواهر أخرى عظيمة القيمة [2] .

والقديس جيروم يذكر لها أن امرأة ـ بناء على نصيحة زوجها ـ زينت ابنتها العذراء بالجواهر ، وتركت شعرها مسدولاً ؛ فجاءها الملاك فى النوم ليقول لها بصوت مرعب :

أتجرؤين أن تضعى أوامر زوجك فوق وصايا المسيح ؟ أتنوين أن تضعى هذه الأيدى الدنسة فوق العذراء التى نذرت نفسها لله ؟ منذ هذه الساعة سوف تذبل هذه الأيدى وسوف تُدركين إثمه فيما تشعرين به من عذاب ، حتى إذا ما انقضى الشهر الخامس سوف تُحملين إلى نار جهنم . فإذا ما كابرت وتمسكت بشرِّك فسوف تفقدين زوجك وأطفالك . ويضيف جيروم : لقد تحقق ذلك كله ؛ إذ سرعان ما حصد الموت كل شئ ، مما يدلك على أن المسيح ينتقم من كل من يدنس معبده ، ويدافع عن جواهره ولآلئه الثمينة . وأنا لا أذكر لك ذلك وفى ذهنى أن أفرح أو أستمتع بسقوط الأشرار ، بل لأذكرك بأن عليك أن تنتبهى فى قلق وعناية للفتاة التى نَذَرْتِهَا لله ، فما أن تشب الفتاة حتى تأخذيها ، مع والديها ، إلى المعبد إلى أبيها الحقيقى[3] .

---

(١) Quoted by Susan Bell : Woman from the Greeks to the french Revo lution P.90 - 92 .

(٤) Ibid .

(٣) Ibid .

ويستمر القديس جيروم فى رسالته ليذكر جميع تفصيلات الحياة اليومية فى تربية الطفلة ، فيقول عن الطعام مثلاً :

أما بالنسبة لتناول الطعام ، فينبغى ألا تأكل فى أماكن عامة ، ولا حتى على مائدة أهلها إذا كان هناك ضيوف ؛ لأنها فى هذه الحالة قد ترى ألواناً من الطعام قد تهفو نفسها إليها . وعلى الرغم من أن بعض الناس قد يقولون لك إنها لفضيلة كبرى أن يرى المرء هذه الأشياء ويزهد فيها ، فإننى عن نفسى أقول أن كبح النفس فى هذه الحالة إنما يكون بالبقاء فى حالة الجهل ؛ فالأشياء التى ألفناها واعتدنا عيها سوف يصعب التخلص منها . وامنعيها من الآن عن شرب الخمر حتى تبلغ أشدها وعندئذ لا مانع من تذوق بعض النبيذ الذى يصلح المعدة ... علميها غزل الصوف ، وكيف تمسك بفلكة المغزل ، وتضع السلة فى حجرها ، وتحرك الغزل . علميها أن تحتقر الحرائر ، والصوف الصينى ، والأقمشة المطرزة بالذهب ، ولا ترتدى من الملابس إلا ما يقيها من البرد .ليكن طعامها نباتياً من الخضروات والخبز ، وقطعة ضئيلة من السمك بين الحين والحين ، ولا أريد أن أطيل فى قواعد تناول الطعام ، فقد سبق أن كتبت فيها بالتفصيل فى مكان آخر ، ولكن كل ما أود أن أضيفه هو أن تجعليها تشعر بالجوع بعد كل وجبة ، وتبدأ فى الحال فى قراءة (أو غناء) مزامير داود . ينبغى ألا يكون لديها القدرة ولا المعرفة أن تعيش بدونك ، وأن ترتعد إذا ما شعرت أنها ستكون وحيدة . وامنعيها من مناقشة الأمور الدنيوية ، ولا ترتبط بالعذارى اللائى لايعرفن شيئاً عن نذرهن وعليها ألا تحضر أفراح الجوارى ، ولا تشترك فى الألعاب المنزلية الصاخبة . أنا أعلم أن بعض الناس وضعوا قاعدة هى أن العذراء المسيحية ينبغى عليها ألا تستحم مع خصيان أو نساء متزوجات لأن الخصيان لا يزالون رجالاً فى قلوبهم ، وللنساء المتزوجات نظرات نارية للعذارى . أما أنا فأستهجن الاستحمام تماماً للعذراء الناضجة ؛ إذ ينبغى عليها أن تخجل من نفسها وأن تعجز عن النظر إلى نفسها ، وهى عارية تماماً . فإذا ما أماتت الجسد بالصوم والصلاة وإذا ما أطفأت جذوة الشهوة وكبحت جماح حرارة رغبات الشباب

بالعفة الباردة وإذا ما أسرعت بإفساد جمالها الطبيعى بالقذارة المتعمدة فَلِمَ توقظ النيران النائمة عن طريق الاستحمام ؟[1] .

وهكذا يحطم القديس جيروم الحكمة التى تقول إن النظافة من الإيمان فى سبيل أن يطمس معالم الجمال عند امرأة ؛ فلا تثير شهوة الرجال ، وتوقعهم فى الخطيئة !

* * *

(١) Ibid, P. 94 .

رابعاً : القديس يوحنا « فم الذهب » (٣٤٥ - ٤٠٧)
St. John Chrysostom

أب آخر من آباء الكنيسة ، وواحد من أوائل المفكرين الذين دافعوا عن المسيحية فى عهودها الأولى ، وهو القديس « يوحنا كرستوم » الذى كان خطيباً مفوهاً ذرب اللسان ؛ حتى أحبه الناس حباً عظيماً ، ولقبوه « بيوحنا فم الذهب » أو « ذهبى الفم » وهو مشهور أيضاً فى تاريخ الفكر المسيحى بيوحنا صاحب الفم الذهبى Chrysostom(١) .

صحيح أنه لم ينزلق فى الانغماس المحموم بشجب أية علاقة مع المرأة ، لكنه شارك فى الجو الثقافى العام الذى كان يؤمن بأن المرأة موجود أدنى من الرجل ، وأن تأثيرها عليه بالغ السوء ، يقول :

كم عانينا كثيراً من عدد لا حصر له من الشرور والآلام بسبب تمسكنا بالمرأة نعود إلى البيت ونستسلم لرغبات جامحة ، ثم نعانى القلق أياماً وليالى إن جمال المرأة لهو الشرك الأعظم(٢) . وهو ينصح الشباب بالابتعاد عن النساء جميعاً باستثناء العجائز القبيحات اللائى فقدن سحرهن وجاذبيتهن : « ينبغى على الشاب أن يبتعد عن الفتاة الشابة ، مثلما يبتعد عن النار »(٣) .

وعند القديس يوحنا أن مَنْ يتزوج ويعيش حياة عادية فاضلة فى هذا العالم هو مجرد

---

(١) كلمة Chrysostom يونانية الأصل تعنى حرفياً الفم الذهبى ، وهو لفظ أطلق عليه لفصاحته كما قلنا ، وهو أحد آباء الكنيسة اليونانية ، وقد ولد فى أنطاكية عام ٣٤٥ وكان بطريارك مدينة القسطنطينية من ٣٩٨ إلى ٤٠٤ عُمِّد ورُسِّم قارئاً فى الكنيسة عام ٣٦٨ ، ثم انخرط فى سلك الرهبان فى صحراء قرب أنطاكية ٣٧٥ إلى ٣٨١ ثم رُسِّم شمَّاساً عا ٣٨١ وقسيساً عام ٣٨٦ فى أنطاكية ، ثم أسقفاً (بطريارك) للقسطنطينية عام ٣٩٨ .

(٢) Quoted by Susan Bell : Woman from The Greeks to the french Revolution, P. 86 .

(٣) Ibid .

شاب صغير لكنه لا يمكن أن يكون راهباً . وهو كثيراً ما يقدم النصح اللطيف أو التحذير الرقيق ، لكنه أبعد ما يكون عن الحقد أو الضغينة !

غير أن القديس يوحنا عندما يتحدث عن علاقة الرهبان بالنساء ـ وهو موضوع يهتم به اهتماماً كبيراً ـ فإنه يستخدم عندئذ لغة أكثر قوة ، وأشد قسوة وعلى الرغم من أنه أراد أن يتكيف مع العالم وأن يعيش معه ، فقد وضع نفسه ـ على نحو طبيعي ـ فى سلك الرهبان ، وآمن بالعذرية بوصفها الطريق الوحيد للحياة الفاضلة ؛ ولهذا فقد رأى أن الشاب يخطئ عندما يهجر رسالة الرهبانية ويربط بالزواج والأطفال والأسرة ؛ لأن القديس يوحنا ينزعج من هذا الموقف انزعاجاً شديداً ويعتبره سقوطاً مدوياً . وهو لهذا السبب يسرع بكتابة كراسة دينية عنوانها « نصيحة إلى تيودور Theodore بعد سقوطه » . يقول فيها :

عليك يا تيودور أن تفكر بإمعان فى النتائج المترتبة على ارتباطك بالمرأة ، بل بالنساء عموماً ، عليك أن تفكر مرتين فى هذا الأمر ، فكر فيما ارتكبه داوود من زنى ، وفى ارتداد سليمان . ثم عليك أن تتأمل ملياً فى الطبيعة الحقة لذلك الجمال الأنثوى الذى توشك من أجله أن تتخلى عن فضيلتك !

لو أنك تأملت ياتيودور ما تخفيه هذه العيون الجميلة ، هذه الأنف القويمة ، والفم المرسوم ، والخدود الغضة ـ لتأكدت أن هذا الجسم الممشوق ليس سوى قبر أبيض ، أعضاؤه مليئة بقاذورات لا حد لها !

وفضلاً عن ذلك ، فل وأنك رأيت شخصية تافهة مملوءة بقاذورات كالبلغم والبصاق وما شابه ذلك لما استطعت أن تلمسها ، حتى ولا بأطراف أصابعك . كلا ، ولا استطعت حتى أن تتحمل النظر إليها بعد ذلك كله ، أفأنت تهتاج وتستثار لمخزون ومستودع هذه النفايات ؟

ولم لا تحرر نفسك ، ياتيودور ، من عبودية ملعونة ، وتعود إلى حريتك السابقة[1] .

---

(١) Susan G. Bell : Ibid, P. 86 - 87 .

وعلى الرغم من أن النساء فى عصر القديس يوحنا كانت قد اعتادت ألا تسير فى الشارع دون أن تغطى جسمها كله بحيث لا يستطيع أحد أن يرى أى جزء منه ، بل إنهن لا يستطعن رؤية شئ من الطريق سوى موضع القدم - رغم ذلك كله فقد نظر إليها على أنها بقايا عفة قديمة لم يعد لها وجود الآن ؛ لأن الفساد يسرع إلى النساء من خلال الآذان ، ومن خلال العيون على حد سواء ، حتى لقد فسد معظمهن فساداً تاماً . وهكذا تصل الإباحية والفساد إلى معظم النساء . يقول : إن النساء يسرن فى الشارع بوجوه مغطاة ، لكن بأرواح مكشوفة ، بل قل إنها فى الواقع مكشوفة على مصراعيها(١)

وهناك عبارة جامعة تُلَخِصّ رأى القديس يوحنا كرسستوم « صاحب الفم الذهبى » هى: « من بين وحوش البرية المفترسة يستحيل عليك أن تجد حيواناً أشد أذى من المرأة»(٢).

* * *

(١) Ibid .

(٢) Ibid . P. 86 - 87 .

الفصل الرابع

القديس أوغسطين

St. Augustine (٣٥٤ ـ ٤٣٠)

« آه ! لو أنى ارتضيتُ أن أكون خصياً حباً فى ملكوت السماء لكنتُ الآن أوفر سعادة ! » .

القديس أوغسطين ـ الاعترافات

القديس أوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠)

(١) حياته :

كان القديس أوغسطين أعظم آباء الكنيسة الكاثوليكية ومن أهم فلاسفتها ولد فى طاجست Thagaste التى تعرف اليوم « بسوق الأخرس » فى شرق الجزائر فى ١٣ نوفمبر عام ٣٥٤ ، وتوفى فى هبون المعروفة اليوم باسم بونة فى غربى تونس فى ١٤ أغسطس عام ٤٣٠ وكان أبوه وثنياً بينما كانت أمه مونيكا Monica مسيحية وكان شمال إفريقيا آنذاك ولاية رومانية يحكمها قنصل رومانى يقيم فى قرطاجة درس فى طاجست النحو وبعض العلوم الأخرى ، وكان قد تعلم اللاتينية فى غير عسر وهو جالس على ركبتى أمه لكنه كره اليونانية التى حاولوا أن يعلموه إياها فى المدرسة ؛ لأنه كان هناك يساق مسوقاً عنيفاً ويتوعدونه بالوعيد القاسي ، والعقاب الأليم فبقيت معرفته باليونانية يسيرة إلى ختام حياته رغم أن ما ناله من ضربات على يد معلمه فى المدرسة قد فشل فى حمله على تعلم اللغة اليونانية ، فقد شفاه من المرح الضار على حد تعبيره ولهذا فهو يعتبر هذه الطريقة وسيلة لابد منها فى التربية! .

وهو يروى فى كتابه الاعترافات كيف اقترف الإثم حتى فى المراحل المبكرة من حياته فقد سرق بعض ثمار الكمثرى من حديقة مجاورة وهو صبى صغير وكان عند أبويه فى الدار من الكمثرى ما يفضل الثمار التى سرقها ، كما أنه لم يكن جائعاً ، كذلك كثيراً ما اقترف إثم الكذب ، فضلاً عما سنرويه بعد قليل من علاقاته النسائية فى مرحلة المراهقة وبعدها ذلك كله جعله يعتقد أن الخطيئة هى أهم شواغل الإنسان ! .

وفى سن السادسة عشرة سافر إلى قرطاجة Carthage لإنهاء دراسته فى القانون وهناك قرأ كتب شيشرون وعنوانه Hortensius (وهو مفقود الآن) فدفعه هذا الكتاب إلى

الاهتمام العميق بالفلسفة ثم قرأ الديانة المانويتى Manicheism واعتنقها ثم سافر إلى إيطاليا ، روما أولاً ومن هناك إلى مدينة ميلان حيث وقع تحت تأثير الأفلاطونية الجديدة ، والتى وجدها مذهباً ميتافيزيقياً يقول بالكلمة Logos لكنه لم يجد عندهم مذهب التجسيد، ولا خلاص الإنسان ، ثم استمع إلى مواعظ القديس أمبروز وعانى من صراع باطنى عنيف نتيجة لإلحاح أمه التى كانت تتوق لدخوله المسيحية وهى الأزمة الحاسمة فى حياته الروحية التى نعتها أوغسطين بأنها كانت شبيهة بعاصفة تلاها مطر غزير ، لقد شعر بأن نفسه ممزقة بين إرادة الخير وإرادة الشر ، بين مطالب الروح ومطالب الجسد ويصف حاله هذه فيقول : «كنت أنا من يريد ومن لا يريد ، وهذا العذاب الذى انتزعنى من ذاتى هذا التمزق بين الإرادة والقدرة لم يكن ناجماً عن طبيعة أجنبية عنى ، بل كان ناجماً عن الألم المتولد من طبيعتى التى كانت فريسة للخطيئة[1] .

وقص عليه أحد مواطنيه الأفارقة حياة رهبان الصحراء فى مصر ، خصوصاً حياة القديس أنطون الذى كان ممن تخلوا عن الدنيا ، وتفرغوا لعبادة الله فى الخلوات فأثرت هذه الحكايات فى نفسه أعمق تأثير ، ومع ذلك ظل يقاوم ، وعزّ عليه أن يفارق شهواته ولذاته فراح يشكو إلى الله : إلى متى يا إلهى ، ستظل غاضباً على هل سيتأجل الأمر دائماً إلى الغد ؟ لماذا لا أنهى على الفور حياة العار التى أعيشها ؟[2] وكان ذلك فى خلوته فى حديقة متصلة بمسكنه الذى يقيم فيه مع صديقه ألوسى Alysie (٣) فى كسكياكم -Cas siciacum وبينما كان يناجى نفسه سمع صوت فتاة صادراً من البيت المجاور يغنى قائلاً

---

(١) قارن اعترافات القديس أغوسطنيوس نقلها إلى العربية الخرى يوحنا الحلو دار الشرق بيروت ص١٦٥

(٢) المرجع نفسه ص١٦٥ .

(٣) ألوسى شاب ابن عائلة كريمة فى طاجست كان أصغر سناً من أوغسطين تتلمذ على يديه فى مسقط رأسه ، ثم فى قرطاجة « وإذ رآنى معلاً صالحاً أحبنى كثيراً فبادلته الحب ، لطيب عنصره ونبوغه فى ممارسة الفضيلة رغم حداثة سنه » الاعترافات ص١٠٧ لكنه انزلق إلى الزنى والفجور والإباحية مع أستاذه أوغسطين .

Tolle Lege أى خذ واقرأ وراح الصوت يكرر هذا الأمر مراراً ، فاندفع إلى داخل المنزل وتناول الكتاب المقدس وكانت رسائل القديس بولس قد تركها منذ قليل وفتحها اتفاقاً[1] وقرأ : « لا بالبطر والسكر ، لا بالمضاجع والقهر ، لا بالخصام والحسد ، بل البسوا الرب يسوع المسيح ، ولا تصنعوا تدابير للجسد لأجل الشهوات »[2] فإذا الأهواء تسكن وإذا قلبه يفيض نوراً واطمئناناً فوضع نفسه بين يدى الله بغير حفظ ولا رجعة يقول فى الاعترافات : اكتفيت بهذا القدر إذ لم يعد بى حاجة إلى المزيد منه وما إن انتهيت من قراءة هذه الأسطر حتى أشرق فى قلبى شعاع الطمأنينة الذى بدد ما كان يلفنى من ظلمات الأوهام ، عندئذ طويت الكتاب ورحت أقص على ألوسى ما قد جرى ، والسكينة تخيم على وجهى فأخذ الكتاب وطالعه ثم زاد : « من كان ضعيفاً بالإيمان مدوا إليه يداً[3] واعتبر الكلام موجهاً إليه وهنأنى على ما عزمت أن أقوم به وهو أهل لذلك لأن سيرته أفضل بكثير من سيرتى »[4] وصلى صلاة الشكر « أيها الرب عبدك أنا ، وابن أمتك ، لقد حطمت قيدى فإليك أذبح ذبائح الحمد » (مزمور ١١٦ : ١٦ ، ١٧) .

استمع أوغسطين فيما يروى عن نفسه فى اعترافاته (الكتاب الثامن الفصل الثانى عشر) لهذا القول فاتبعه ، وتم نهائياً تحوله إلى حياته الروحية وكان ذلك فى سبتمبر ٣٨٦ فعزف عن الزواج ، وعن كل شهوة دنيوية ، وكان فى الثالثة والثلاثين من عمره وإبان احتفالات عيد الفصح مارس ـ إبريل سنة ٣٨٧ تلقى أوغسطين التعميد على يد القديس أمبروز (٣٤٠ ـ ٣٩٧) St. Amrose أسقف ميلان ، وكان فى الرابعة والثلاثين من

(١) Herbert A. Dfane : The Political and Scoiall Ideas of St. Augustine Columbia University Press, 1963, P.22 .

(٢) رسائل بولس إلى أهل رومية الإصحاح الثالث عشر : ١٣ ـ ١٤ .

(٣) رسالة القديس بولس إلى أهل رومية الإصحاح ١٣ : ١٤ .

(٤) اعترافات القديس أغسطينوس نقلها إلى العربية الخورى يوحنا الحلو الطبعة الرابعة ـ دار الشرق ، بيروت ١٩٩١ ص١٦٦ .

عمره » وفى الحال جئنا إلى أمى وأخبرناها بما جرى فاغتبطت كثيراً[1] ولما تهيأ للعودة إلى مسقط رأسه مرضت أمه مونيكا فى ضاحية من ضواحى روما ، وتوفيت وهى فى السادسة والخمسين من عمرها قد أعلنت قديسة فيما بعد ، وصارت ذات مكانة عالية بين قديسات الكنيسة الكاثوليكية فسار إلى روما وبقى فيها بضعة أشهر ، وأخيراً عاد إلى «طاجست » مسقط رأسه ، فتبرع بجزء من أملاكه للكنيسة ، وبجزء آخر للفقراء ولم يحتفظ لنفسه إلا ببيت جعله مكاناً للعبادة ولجماعة من المتعبدين من أنصاره ، وزع أوقاته بين العبادة وفلاحة الأرض وعاش عيشة الرهبنة ثلاث سنين ، ثم انتشر صيته فى الأنحاء المجاورة حتى أنه فى سنة ٣٩١ أثناء رحلته إلى هيبو Hippo (غرب تونس) طلب الأهالى من أسقفهم أن يعين أوغسطين كاهناً يرعاهم ، فأجابهم الأسقف إلى طلبهم وبعد خمس سنين توفى الأسقف ، فاقترع الشعب لأوغسطين فتولى نشر الإيمان والدفاع عن المسيحية باللسان والقلم خمساً وثلاثين سنة وظل يمارس هذه المهمة حتى وفاته سنة ٤٣٠ .

(٢) علاقته بالنساء :

اشتهر القديس أوغسطين بكثير من مغامراته النسائية ، واقترافه للآثام والخطايا مما رواه عن نفسه فى كتاب الاعترافات ففى الكتاب الثانى (الفصل الأول) يروى أنه لما بلغ سن المراهقة ، غلبته شهوات الجسد ، وأنه غرق فى أتونها حتى الأذنين احرقنى العطش إلى الملذات الجهنمية ، دفعتنى وقاحتى إلى الاستمتاع بشتى أنواعها فتشوه جمالى ، أصبحت قذارة أمام ناظريك »[2] فقد ترك نفسه على هواها تفعل ما تريد : « كل ما كان يحلو لى آنذاك هو أن أعشق ، أعشق لكنى لم أقيد بما للصداقة من سبل نيرة تجمع بين قلبين لهذا لما بلغت أشدى تصاعدت من أتون شهوتى الجسدية أبخرة غمرت قلبى وضغطت عليه فما عدت أقوى على التمييز بين الحب السنى الطاهر ، والدنس حالك السواد ، اللذين اختلطا

(١) المرجع السابق ص١٦٧ .

(٢) اعترافات القديس أوغسطينيوس ص٢٩ .

فى نفسى فاختمرا واقتاداسنى الواهية فى أثر المغويات ، وغمسانى فى لجة الرذائل »[١] .

ولقد كانت أمه كما سبق أن ذكرنا مسيحية شديدة الإيمان : «قد أوصتنى أمى ألا أدنس عرض امرأة متزوجة وألا أرتكب الفحشاء . إلخ وخُيِّل إليه أن هذه الأقوال لا تعدو أن تكون نصائح امرأة ومن العار أن يعمل بها ، فاندفع فى الغواية اندفاعاً أعمى ! » ولو أنى أصغيت بانتباه إلى قصف رعودك فى الكتاب المقدس « سيلقون ضنكاً فى أجسادهم ، وأيضاً ، الأفضل لرجل ألا يقترب من امرأة » لم سددت أذنى عن ذلك الكلام ؟! آه لو أنى رضيت أن أكون خصياً حباً فى ملكوت السماء الآن لكنت أوفر سعادة[٢] فأين كنت ولم بعدت عن لذائذ دارك ياربّاه ! ، فى عامى السادس عشر من عمر جسدى ، حين استبدت بى الشهوة المجنونة التى تسترسل طليقة بسبب ميل الإنسان إلى الشر ، وإن يكن الشر محرماً بحكم شريعك يا إلهى ، أين كنت عندئذ حين أسلمت كل زمام نفسى لشهوة جسدى ؟! وكلما حاول أن يقاوم ويبتعد ، « تغلب علىّ التيار وجرفنى فتجاوزت نواميسك ولم أَنجُ من تأديبك ، وهل ينجو منها بشر ؟ ! أنت ما ابتعدت عنى قط أيها الرحيم فى قسوتك ، بل تداركت جميع ملذاتى المحرمة بسأم مرير ، ودفعتنى إلى البحث عن طيبات لا يعرف طالبها سأماً[٣] .

وعندما انتقل من مسقط رأسه إلى العاصمة قرطاجة « رأيت فوضى العشق تضرب بموجها حولى ، ولم أكن قد أحببت بعد لكنى وددت لو أحببت ، وشعرت فى أعماق نفسى بحاجة إلى الحب ، ومن أعماق نفسى كرهت أن أكون متأخراً فى هذا المضمار ، وبحثت عما يمكن أن يتعلق به حبى ، فأحببت ، وكرهت حياة الدعة وشعرت أن الطعم يكون أحلى مذاقاً لو استمتعت بالشخص الذى أحبه ، وهكذا دنست صفاء الصداقة بقذارة

---

(١) المرجع نفسه .

(٢) المرجع نفسه ص٣٠ .

(٣) المرجع نفسه .

العشق الجنسى ، والشهوة البهيمية ، واحتجب سناها بسحب من الفُحْشِ جهنمية وأظلمت صفحتها اللامعة بجحيم الشهوات[1] .

وأخيراً استقر على خليلة واحدة ، وهى امرأة غانية أحبها مخلصاً لها الحب أعواماً طوالاً : اتخذت لى زوجة ولم تكن شرعية ، اتخذتها إشباعاً لشهوة جامحة ولم يكن لدى سواها ، وحفظت جميع عهودى معها ، ثم تحققت بنفسى الفرق بين الميثاق الزوجى العاقل المعقود فى سبيل إعطاء الحياة ، وبين ما يرتكز على إشباع اللذة الحيوانية إيلاداً للبنين ، رغماً عن والديهم حتى إذا ما فتحوا أعينهم للنور فرضوا محبتهم على والديهم[2] .

وعلى الرغم من أنه انقطع عن الاتصال الجنسى الطليق ، واستقر على هذه الغانية فقد وجد نفسه فى عام ٣٨٢ ، وهو لا يزال فى الثامنة عشر أباً لولد ذكر كان يسميه ابن خطيئتى أحياناً وعطية الله أحياناً أخرى و هبة الله ADeo - Datus أحياناً ثالثة وقد أحبه أوغسطين كثيراً ، وانصرف إليه بعناية يربيه تربية دينية بعد أن تحول إلى الديانة المسيحية .

غير أن والدته حاولت أن تبعده فى فترة من فترات حياته عن هذه الغانية وألحت عليه أن يأخذ فى التفكير الجاد فى موضوع الزواج حتى تجنبه الوقوع فى الإثم وقد قام بالفعل بخطة جادة فخطب فتاة رضيت بها أمه ، وأصبح حتماً عليه أن ينفصل عن غانيته ، وهو فى ذلك يقول : « إنه لما انتزعت منى معشوقتى باعتبارها عائقاً يحول دون زواجى . تمزق قلبى ، وجرح ، وأدمى ، لأنه كان عالقاً بها وعادت إلى إفريقيا (كان أوغسطين حينئذ فى ميلان وكانت معشوقته معه) ناذرة لك يا رباه ألا تصادق رجلاً آخر ، تاركة معى ابنى الذى أنجبته منها مع ذلك فقد كان لا بد للزواج ألا يتم قبل عامين وبسبب صغر الفتاة ، فاتصل خلال تلك الفترة بمعشوقة أخرى ، كانت أقل من معشوقته الأولى علانية ، ولم يعرف بها اعترافه بالأولى ، فجعل ضميره يؤنبه تأنيباً أخذ يزداد مع الأيام ، وراح يدعو الله

---

(١) اعترافات القديس أوغسطينيوس ص٥٧ .

(٢) المرجع السابق ص٥٨ .

وهبنى الطهر والعفاف ، لكن أمهلنى فى ذلك حيناً .. وأخيراً قبل أن ينقضى العامان ويحين موعد زواجه، ظفرت فيه النزعة الدينية بنصر كامل ، ووهب بقية حياته لعزبة لا تعرف النساء[1] .

(٣) أوغسطين ... والمرأة :

فى عام ٣٨٦ ترك أوغسطين المرأة التى عاشرها معاشرة الأزواج أكثر من عشر سنوات وسماها معشوقته ، أنجب منها ابناً هو ديو داتوس Deo - Datus أى عطية الله كما ذكرنا ، وقد هجرها بعد ولادته بثلاث سنوات وكان موقفها منه أنبل من موقفه منها كما يقول بعض الباحثين[2] وتحول إلى المسيحية ، فغير بذلك مسار حياته من الانغماس فى الشهوات الحسية والإشباع الجنسى إلى الأنشطة الروحية وتحقيق المثل العليا الدينية بما فيها من زهد واحتقار للجانب المادى ، وبذلك أعاد إلى الأذهان مواقف أفلاطون السلبية تجاه الجسد[3] .

والواقع أن نظرية القديس أوغسطين عن طبيعة الإنسان من الناحية الفلسفية كانت أفلاطونية خالصة : فالإنسان عنده روح مسجونة فى البدن ، أما من الناحية اللاهوتية فقد نقّح هذه النظرية لتتلاءم مع نصوص الكتاب المقدس عن الخلق ، فهو فى كتاب عنـــوانه « فى التثليث » أتمه عام ٤١٥ يشرح تصوره لتعبير صورة الله Imago Dei على ضوء ما جاء فى سفر التكوين « فخلق الله الإنسان على صورته ، على صورة الله خلقه ذكراً وأنثى خلقهم » (التكوين ١ : ٢٧) فلما كان الله غير مادى فإن صورته أيضاً غير مادية وهى الروح ولما كان الله ثالوثاً (الأب ـ الابن ـ الروح) فإن صورته البشرية ثلاثية من خلال

---

(١) راجع فى ذلك كله برتراند رسل تاريخ الفلسفة الغربية الكتاب الثانى (الفلسفة الكاثوليكية) ترجمة د. زكى نجيب محمود ، لجنة التأليف ، والترجمة ، النشر القاهرة ١٩٦٨ ، ص٧٣

(٢) د. عبد الرحمن بدوى موسوعة الفلسفة الجزء الأول ص٢٤٨ المؤسسة العربية للدراسات النشر . الطبعة الأولى ١٩٨٤ .

(٣) Philosophy of Woman : An Anthology of Classic and Current Ceon-cepts Edited by Mary Briody, P. 260 .

قوى روحية ثلاثية فى الإنسان هى الذاكرة ، والعقل ، الإرادة ويتكاثر البشر على صورة الله بمقدار ما تتجه هذه القوى الروحية إليه .

لكن إذا كانت الطبيعة الإنسانية التى خلقها الله على صورته احدة عند الرجل والمرأة ، فمن أين جاء التمييز بينهما ؟ ولِمَ كانت المرأة أدنى من الرجل ؟ ولم تكون هناك أوامر خاصة بالمرأة دون الرجل ؟ فالقديس بولس ، مثلاً ، يذهب إلى أن على المرأة أن تغطى رأسها، أما الرجل فلا ينبغى عليه أن يفعل ذلك لأنه مجد الله ، أما المرأة فهى مجد الرجل . يقول القديس أوغسطين :

ما الذى يمكن أن نقوله فى ذلك ؟ إذا كانت المرأة كشخص قد أكملت الثالوث فلم يقال إن الرجل هو صورة الله ، وهى ليست كذلك ؟ ولم لا تكون المرأة هى أيضاً صورة الله إن هذه التفرقة هى السبب فى أن بولس الرسول أمرها بتغطية رأسها فى الوقت الذى منع فيه الرجل أن يفعل ذلك لأنه صورة الله .

علينا أن نتدبر كلمات بولس الرسول التى يقول فيها إن الرجل هو صورة الله وليست المرأة ، فهى فى الواقع لا تتعارض مع ما يقوله الكتاب المقدس من أن الله خلق الإنسان على صورته ، على صورة الله خلقه ذكراً وأنثى خلقهم ، أنه يقول إن الطبيعة البشرية نفسها هى التى اكتملت فى الجنسين ، وهى التى خلقت على صورة الله وهو هنا لا يستثنى المرأة فهى تدرك على أنها صورة الله فبأى معنى إذن ، نفهم قول الرسول : إن الرجل هو صورة الله، وبالتالى فهو ممنوع من تغطية رأسه أما المرأة فعليها أن تفعل ذلك ؟ إن الحل فى رأيى يكمن فيما سبق أن ذكرته أثناء مناقشتى لطبيعة الروح البشرية ، وهو أن المرأة مع زوجها هما معاً صورة الله وأنهما جوهر واحد يشكل الصورة ، أما عندما يصف الكتاب المقدس امرأة بأنها المساعد والمعين للرجل فإنه فى هذه الحالة يحدد الوظائف التى تخصها وحدها ، ومن ثم فهى هنا ليست على صورة الله فى حين أن الرجل بذاته هو صورة الله سواء أكان

بمفرده أم مع المرأة[1] .

وإذا أردنا عبارة أصرح وأوضح نشرح بها فكرة القديس أوغسطين لقلنا إن المرأة إذا ما نظر إليها على أنها إنسان ، أعنى على أنها روح فهى صورة الله ، أما عندما ننظر إليها من حيث وظيفتها ، أعنى على أنها جسد ولجدناها تنتمى فى هذه الحالة إلى الأمور الدنيوية الزمنية العابرة التى هى أشياء دنيا وهى هنا تكون موجود أدنى ، ولا تكون على صورة الله !

وكلما اهتمت المرأة بالأمور الجسدية والدنيوية الزائلة وهى كثيراً ما تفعل فإنها تكون بحاجة إلى كابح ، وبعبارة أخرى ، لابد أن تكون هناك سيطرة على رأسها وهو ما يمثله الحجاب الذى يعنى أن هذه الرأس لابد أن تضبط !

أما ما كان يعينه القديس بولس بالتفرقة بين الذكر والأنثى فإنه يريد أن يرمز إلى حقيقة أشد خفاء يمكن أن تفهم وراء هذه التفرقة مما قاله فى مكان آخر من أن امرأة هى فى الواقع أرملة وحيدة بلا أولاد وأنه ينبغى عليها أن تثق فى الرب وحده وأن تواصل الصلوات ليلاً و نهاراً .

ولكن التى هى بالحقيقة أرملة ووحيدة ، فقد ألقت رجاءها أمام الله ، وهى تواظب الطلبات والصلوات ليلاً ونهاراً وأما المتنعمة فقد أتت وهى حية[2] وهى دعوة للمرأة لترك الجسد ، والاتجاه إلى الله لتكون على صورته حقاً ، وجديرة بذلك فعلاً ! .

وإذا كان القديس بولس يقول إنه لا يأذن للمرأة بأن تتسلط على الرجل ، بل تكون فى سكوت فالسبب أن آدم جبل أولاً ، ثم حواء ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن آدم لم يغو لكن المرأة أغويت فحصلت فى التعدى ولكنها ستخلص بولادة الأولاد إذا ثبتت فى

---

(١) القديس أوغسطين فى الثليث الكتاب الثانى عشر وقد ترجمت مارى بريودى نصوصاً كثيرة من هذا الكتاب ، ومن كتب القديس أوغسطين الأخرى فى كتابها فلسفة المرأة السالف الذكر ص٢٥٦ وما بعدها .

(٢) رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس الإصحاح الخامس : ٥ ، ٦ .

الإيمان، والمحبة ، والقداسة ، والتعقل[(١)] .

ومعنى ذلك أن القديس أوغسطين تبنى فكرة أفلاطون عن كراهية الجسد ، واعتبار الإنسان روحاً مسجونة فيه ، وهو بمقدار ما يقترب من الأمور الروحية تظهر إنسانيته أكثر ، غير أن المرأة ، فيما يبدو ، يغلب عليها جانب الجسد وهى لهذا تظل لقفة به بعيدة عن أن تكون روحاً ، ومن ثم أن تكون صورة الله ولهذا فإننا فى الواقع ، نلتمس العذر لباحثة مثل مارى ديلى عندما تقول إن القديس أوغسطين يعتقد أن المرأة لم تخلق على صورة الله[(٢)] وأنه ينظر إليها نظرة دونية ، إذ كيف يمكن أن تكون المرأة صورة الله إذا ما اتحدت مع زوجها فى هوية واحدة[(٣)] ، فى الوقت الذى يظل فيه الرجل صورة الله متحداً أو منفرداً ؟ ولماذا ينظر إلى المرأة من منظورين : منظور الجسد فتكون أدنى ، ومنظور الروح فتكون أعلى ، ولا ينظر إلى الرجل بهذين المنظورين أيضاً . أليس القول بأن الرجل خلق أولاً فله الأولوية والاعتبار والتقدير فيه الكثير من السذاجة ؟ أما مسألة الغواية فهى بالفعل محاولة للبحث عن كبش فداء كما قالت مارى ديلى : « كانت النساء كبش فداء فى التراث المسيحى ، أنه كان يبحث عن آخر يكون موضوع اللوم والإدانة حتى يصبح أولئك الذين يصدرون الأحكام هم أنفسهم أطهاراً صالحين[(٤)] ولهذا فقد راحوا يبحثون عن العاهرات والغوانى ليضرب بهن المثل على الغواية والشر والسلوك السئ كما لو كن يمارسن الجنس مع أنفسهن لا مع الرجال ثم يؤكد اللاهوتيون بعد ذلك أنهن ضرورة فى المجتمع لا لنجد تكئة لإلقاء اللوم والإدانة بل لإبعاد الصالحين عنهن ومن هنا كانت المرأة السيئة هى الملامة فى

---

(١) رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس الإصحاح الثانى : ١٥ .

(٢) Mary Daly : Beyond God The Father : Towards a Philosophy of Woman's Liberation The Women's press, London, 1985, P. 3 .

(٣) لأن من التصق بزانية صار معها جسداً واحداً ، أنه يقول : يكون الاثنان جسداً واحداً وأما من التصق بالرب فقد صار معه روحاً واحدة رسالة بولس الرسول إلى أهل كورنثوس إصحاح ٦ :١٦ ـ ١٧ .

(٤) Mary Daly : Ib id, P. 60 .

المجتمع الذى يتفشى فيه الإباحية الجنسية » ويمكن أن نتبين ذلك من أقوال اللاهوتيين فى موضوع البغاء يقول القديس أوغسطين :

« أى شئ يمكن أن يكون أكثر خسة ودناءة ، ويملأ الإنسان بالخزى والعار من موضوع البغايا ، وبيوت الدعارة ، وألوان الشر من هذا القبيل ومع ذلك فلو أنك أزلت البغاء من أنشطة البشر ، فسوف تجد أن الشهوة تدنس أشياء كثيرة ، ولو أنك وضعت البغايا بين النساء فسوف تضفى الفحش والقذارة على أمور كثيرة(١) .

وسوف يركز القديس توما الأكوينى فيما بعد على هذه الفكرة ذاتها مع شئ من الزخرفة وهى الفكرة التى سمتها مارى ديلى حكمة الذكر ـ عندما يقول :

« البغاء فى هذه الدنيا هو أشبه ما يكون بنجاسة البحر ، أو بالوعات المجارى فى القصور غير أنك إن أزلت بالوعات المجارى لملأتها بالتلوث ، وبالمثل لو أنك أزلت البغايا والعاهرات من الدنيا لملأت العالم باللواط » ومن هنا فإن القديس أوغسطين يقول : « إن المدينة الأرضية قد استخدمت العاهرات ، وجعلت منهن عملاً لا أخلاقياً ، لكنه مشروع أو قانونى(٢) ولعل هذا ما كان يقصده لكى مؤرخ الأخلاق عندما وصف العاهرات بأنهن أعظم حراس للفضيلة »!!

(٤) الزواج :

ولكى يهرب المرء من الغوانى والعاهرات عليه بالالتجاء إلى الزواج يحميه ويصونه ، والقديس أوغسطين يؤيد هذه الرابطة المقدسة بين الرجل والمرأة ويرى أن الكتاب المقدس نفسه ينظر إلى الزواج على أنه شئ حسن ويوصى به لكنه لا يسمح للمرأة التى تركها

---

(١) Quoted by Mary Daly : Beyond God the Father P. 61 .

(٢) Ibid .

زوجها بأن تتزوج مرة أخرى مادام الزوج لا يزال على قيد الحياة كما أنه لا يسمح للرجل الذى تركته زوجته أن يتزج ما لم تتوفى الزوجة ومن ثم فإن السيد المسيح أكد على أهمية الزواج ، ورحب به فى الإنجيل لا لأنه رفض الطلاق إلا لعلة الزنى فحسب ، بل لأنه حضر الأفراح ، مثل عرس قانا الجليل ، عندما دعى إليه فكان حضوره يعنى مباركة الزواج !

ويقول القديس أغسطين فى بحث خاص جعل عنوانه الزواج وموضوعات أخرى[1] يبدو لى أن الزواج ليس أمراً طيباً من أجل إنجاب الأبناء فحسب ، بل من أجل الصحة الطبيعية بين الرجل والمرأة وإلا لما كان فى استطاعتنا الحديث عن الزواج عند القدامى ، ولاسيما إذا كانوا قد فقدوا أبناءهم ولم ينجبوا على الإطلاق ، وفى الزواج الجيد رغم أنه يستمر قائماً عدة سنوات حتى إذا ما خمدت حماسة الشباب ، وبردت عاطفته الملتهبة بين الرجل والمرأة ، فسوف يبقى الود والترفق بين الزوج وزوجته[2] .

ويواصل القديس أوغسطين عرضه لرأيه فى الزواج فيقول :

« وللزواج ميزة أخرى هى أن الشهوة الجسدية ، رغم أنها سيئة فإنها تتحول فى الزواج إلى شئ مقبول عندما تستخدم لإنجاب الأبناء هكذا نجد أن المعاشرة الزوجية تستخرج شيئاً طيباً من شرور الشهوة . وأخيراً فإن كانت الرغبة الجسدية العنيفة تكبت وتصبح أشد ضعفاً لأن نوعاً من الكرامة يسود عندما يتحد رجل وامرأة فى رابطة الزواج فسوف ينظران إلى نفسيهما على أنهما الأب والأم »[3] .

غير أن القديس أغسطين لا يفوته أن ينبهنا إلى أنه فى جميع الأحوال تظل عفة الزهد

---

(١) ترجمت مارى بريودى Mary Briody أجزاء كثيرة من هذا البحث فى كتابها فلسفة المرأة ص٢٦٠ وما بعدها .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) Augustine : Treaties on Marriage and other Subjects Trans. by mary Briody in Her Philosophy of Women : An Anthology of Classical and Current Concepts Hackett Publishing Copeny U. S. A. 1083, P. 261

أفضل من عفة الزواج رغم أنهما معاً أمران طيبان لكن عندما نقارن بين الناس ، بين من هو أحسن وأفضل فسوف يكون الناسك الزاهد !

(٥) الزهد :

لم يكن القديس أوغسطين متطرفاً كبقية معاصريه فى موضوع الزهد أو النسك ، صحيح أن البحوث التى كتبها عن الزواج والشهوة تجعل العذرية فى خدمة الرب فى المقام الأول ، لكنه يرى مع ذلك أن الزواج وتربية الأطفال عمل أخلاقى جيد ومستحب شريطة أن يقيد النشاط الجنسى فلا يكون إلا لإنجاب الأجيال القادمة . وهو يوافق على القول بأن العملية الجنسية بين الزوج والزوجة مسموح بها حتى إذا لم تقتصر على إنجاب الذرية ، رغم اعترافه أن هذا النشاط الجنسى ليس عملاً طيباً وربما كان خطيئة وإن كان أقل خطيئة من الزنى ، وربما حدث ذلك فعلاً إذا ما أصرّ أحد الطرفين فى الزواج دون موافقة الآخر على حصر وتضييق النشاط الجنسى لأغراض الحمل فحسب .

ولقد ناقش القديس أوغسطين بالتفصيل : كيف كانت العملية الجنسية تتم قبل سقوط آدم بلا شهوة ، أو رغبة جسدية عنيفة ، ذلك لأن الأعضاء الجنسية كانت تعمل تحت سيطرة الإرادة دون أن تقاومها ، وعلى نحو ما تتحرك أيدينا أو أرجلنا الآن . ثم جاءت الشهوة كعقوبة من بين العقوبات التى نزلت على الإنسان لعصيانه الأمر الإلهى وهكذا أصبحت أعضاؤه الجنسية تحركها الشهوة ، والرغبات العنيفة لا الإرادة ، فى الوقت الذى تكون فيه جميع أعضاء الجسد تحت سيطرتنا ورهن إرادتنا يقول أوغسطين : « عندما يكون على الإنسان أن يقوم بوظيفته الكبرى فى إنجاب الأطفال فإن الأعضاء المكلفة صراحة بالقيام بهذا الغرض لا تطيع الإرادة مباشرة ، بل لابد من انتظار الشهوة كى تحرك هذه الأعضاء ، كما لو كان لها حق مشروع عليها ، بل إنها أحياناً ترفض أن تعمل عندما

يريدها العقل أن تعمل ، فى حين أنها كثيراً ما تعمل ضد إرادته[1] والواقع أن القديس أوغسطين يلجأ هنا مرة أخرى إلى القديس بولس الذى يفرق تفرقة اضحة فى رسالته إلى أهل رومية بين فعل الإرادة وفاعليتها لأن هذين الجانبين لا يسيران معاً باستمرار ، يقول :

« إننا نعلم أن الناموس روحى ، أما أنا فجسد مبيع تحت الخطيئة لأنى لست أعرف ما أنا فاعله إذ لست أفعل ما أريده ، بل ما أبغضه فإياه أفعل فإن كنت أفعل ما لست أريده ، فإننى أصادق الناموس أنه حسن فالآن لست بعد من أفعل ذلك بل الخطيئة الساكنة فى ، فإنى أعلم أنه ليس ساكن فى أى جسد شئ صالح ، لأن الإرادة حاضرة عندى ، أما أن أفعل الحسنى فلست أجد لأنى لست أفعل الصالح الذى أريده ، بل الشر الذى لست أريده فإياه أفعل » (الإصحاح السابع : ١٤ ـ ٢٠) .

ويعرض القديس أوغسطين الفكرة نفسها فى كتابه الشهير مدينة الله فيرى أن «شيشرن» وهو يناقش الأنماط المختلفة من الحكم ، عقد مقارنة بين الدولة من ناحية ، والطبيعة البشرية من ناحية أخرى ، ذهب فيها إلى أن أعضاء الجسد تحكم كما يحكم الأطفال ، لأنها سهلة الانقياد ، سريعة الطاعة ، أما العناصر الجامحة من النفس فهى أشبه بالعبيد وعلى الرغم من أن طبيعة النفس تعلو على طبيعة البدن فإن النفس ذاتها تجد أنه يسهل عليها أن تحكم البدن من أن تحكم نفسها والواقع أن الشهوة التى تفحصها الآن هى التى تخجل منها النفس ، فلا هى تحكمها تماماً حين تتعامل معها بحيث تأمرها فتطيع ، فتتحرر تماماً من سطوتها ، ولا هى تحكم البدن بحيث أن الأعضاء التى تخجل منها تحركها الإرادة بدلاً من الشهوة[2] .

---

(١) القديس أوغسطين عن الزواج والشهوة De Nuptis et Concpiscentia نقلاً عن الأفكار السياسية الاجتماعية للقديس أوغسطين تأليف هربرت ديفين ص٥٥ .

(٢) Augustine : The City of God " Transby Henery Bettenson, Pengiun Books, 1972, P.586 .

ومعنى ذلك أن النفس تخجل من الأعضاء الجنسية حين تكون جامحة نافرة فلا تخضع لإمرتها ، بحيث تحكمها الشهوة والرغبة العنيفة ، بدلاً من الإرادة التى توجهها نحو الخير ، أعنى إنجاب الأطفال فحسب بغير استمتاع جنس ولا اشتهاء ، فتكون العملية الجنسية وظيفة فحسب نؤدى بها غرضاً معيناً هو استمرار الذرية ولقد جاءت الشهوة كما سبق أن ذكرنا بسبب الخطيئة الأصلية التى وقع فيها آدم بعصيانه للأمر الإلهى ، ومن هنا حاقت الشهوة بالإنسان عقاباً له أو كجزء من العقاب أما فى الجنة فلا شك أن الزواج لن يشهد مثل هذا الصراع بين الإرادة والشهوة فلا مقاومة ولا تعارض بينهما (فقد جاء ذلك كعقوبة نتيجة للعصيان) وبدلاً من ذلك سوف تلقى الإرادة الطاعة الكاملة من جميع الأعضاء بما فى ذلك الأعضاء الجنسية وهكذا نجد أن الأداة المخلوقة لمهمة معينة سوف تبذر البذور فى حقل التناسل على نحو ما تبذر اليد الآن البذور فى الأرض .

ولن أصدم القارئ بما أقوله ولاسيما إذا لم يكن قد صدمه هجوم الرسول على رذائل النساء المرعبة حيث يقول : « لأن إناثهم استبدلن الاستعمال الطبيعى بالذى على خلاف الطبيعة » (رسالته إلى أهل رومية الإصحاح الأول : ٢٦) أما أنا فعلى خلاف بولس لا أذكر، ولا أدين الفواحش القذرة وعلى ذلك فإننى فى تفسيرى وتوضيحى لعملية التناسل البشرى سوف أحاول أن أتجنب الكلمات البذيئة الفاحشة قدر استطاعتى »[1] .

(٦) المساواة الروحية ، والخضوع الطبيعى :

فى استطاعتنا أن نقول إن علاقة التبعية بين الذكر والأنثى استمرت قائمة فى التراث المسيحى بصفة عامة مع تفسيرات جديدة لنصوص الكتاب المقدس ومع حلول القرن الرابع الميلادى كان القديس أوغسطين يقدم بعض التفسيرات الجديدة لقصة الخلق والسقوط فى

Ibid, P. 587 . (١)

سفر التكوين ، فالخلق على صورة الله ذكراً وأنثى فهناك إذن مساواة ، لكن المرأة هى التى أغوت الرجل ، وجعلته يسقط فهى أدنى منه ، وبالتالى لا بد أن تكون خاضعة وتابعة له والواقع أن هذا المركب الغريب عن المرأة فى فلسفة القديس أوغسطين جاء نتيجة لتركيبة مجموعة من التصورات استمد بعضها من الكتاب المقدس ، وبعضها من الفلسفة اليونانية ، فالمثل العليا اليونانية عن العقل كانت تقنعه بضرورة المساواة التى وجدها فى المسيحية ، لكن فكرة الخطيئة والسقوط كانت تقنعه من ناحية أخرى بالأصول الدنيوية للمرأة وبالتالى أن تكون موجوداً يحتاج إلى كبح جماحة !

وهو كثيراً ما يروى فى الاعترافات فى شئ غير قليل من الاستحسان والتأييد ما كان يدور من حواريين والدته ونساء زائرات ، يقول :

« لقد اتفق لى مراراً أن شاهدت بعض النساء ممن لهن رجال طباعهم فظة كن إذا اجتمعن بوالدتى يأخذن فى الشكوى من معاملة أزواجهن وكانت والدتى تجاوبهن عن طريق الجد الممزوح بالهزل بقولها : إنكن تستأهلن أكثر من ذلك ، لأن لسانكن هو الذى يجنى عليكن ، فما بالكن وهذه الشكوى ؟ أما سمعتن عن عقد الزواج من الكاهن وما أوصاكن به بقوله لكل واحدة منا : كونى خاضعة لزوجك فى كل شئ ماعدا الخطيئة ولا تراجعيه بكلام مر ، وادعيه لك سيداً إلى غير ذلك من النصائح[١] .

لكن على الرغم من أن القديس أغسطين عارض التأويل الخاص بالخلق المنفصل للمرأة الذى لابد أن يقلل من جدية الغرض الإلهى فى خلق الجنسين المختلفين كما لو أن وجود المرأة نفسه برز إلى السقوط ، وعلى الرغم من أن تأويل أوغسطين الخاص لرمز الجنسى فى سفر التكوين يفترض كما هو واضح الدفاع عن المرأة رغم ذلك كله فإن تفسيراته لاتزال تضع المرأة فى موقف ملتبس الدلالة فيما يتعلق بالعقل[٢] .

---

(١) القديس أوغسطين الاعترافات ترجمة الخورى يوسف العلم ص١٧٠ .

(٢) Genevieve Lioyd : The Man of Reason : Male and Female in Western Philosophy methuen & Co. L. T. D. 1984, P. 28 .

صحيح أن أوغسطين يذهب إلى أن وجود الأنثى فى حد ذاته لا يدل على فساد وإنما هو أمر طبيعى ، لكن العلاقة بين الذكر والأنثى يمكن أن تكون رمزاً للخضوع والسيطرة داخل الطبيعة البشرية ذاتها ، ومن ثم فقد راح يبحث بجد محاولاً العثور على مضمون خضوع المرأة ، ولدور الرفيق المعين الذى خصها به الكتاب المقدس وهو دور يخرج بها عن نطاق العقل ، حين يجعلها مجرد تابع أو أقرب إلى العبد الذى ينبغى عليه أن يطيع سيده ، لقد حاول القديس أوغسطين داخل مركب النصوص المقدسة مع تصورات الفلسفة اليونانية أن يعثر على المساواة بين الجنسين مع احترام العقل فى الوقت الذى يعثر فيه أيضاً على تأويل لنصوص سفر التكوين التى تجعل المرأة خاضعة للرجل ، وتلك كان مشكلته الحقيقية .

ويبدو أن هذه المشكلة كانت نابعة أساساً من حياة القديس أوغسطين نفسه ، ومن خبرته بالنساء ، فقد عرف منهن نوعين متناقضين : الغانية العشيقة التى لم تكن عنده سوى جسد فحسب ، ثم أمه القديسة مونيكا Monica المسيحية التقية التى كثيراً ما فاضت دموعها غزيرة فى إلحاحها عليه لينضم إلى كنيسة المسيح ، فالمرأة هى إذن هذا المخلوق المركب العجيب من شطرين واضحين : الجسد ، وفيه يكمن كل رموز السقوط والخسة والدناءة إلخ ، والروح ، ذلك الجانب النقى الطاهر الذى هو صورة الله والتى لا تختلف فيه عن الرجل فما تكونه المرأة كروح عاقل ينبغى أن يتميز عما ترمز إليه بجسدها أو باختلافها الجسدى عن الرجل وهذا الاختلاف الجسدى هو صاحب الثقل والوزن الرمزى ، وهو ما ينبغى علينا توضيحه دون الإضرار بمساواة المرأة بالرجل من حيث هى موجود عاقل(١) .

ولقد حاول القديس أوغسطين فى الاعترافات أن يحل المشكلة بقوله إن الله قد خلق الإنسان العاقل على صورته وجعله يسود على حيوانات البرية غير العاقلة ، كما خلق قوتين للنفس داخل الإنسان تستطيع أحدهما السيطرة على الأخرى بفضل التروى ، والثانية

(١) Ibid, P. 29 .

خاضعة، وتابعة للأولى ، ومن هنا كانت المرأة مساوية للرجل فى قدرتها الذهنية أو جانبها الرحى ، لكنها كانت خاضعة له بسبب جسدها ، فجسد الأنثى خاضع لجنس الذكر ، بنفس الطريقة التى تخضع بها الشهوة للإرادة[1] والمرأة مثل الرجل فيما يتعلق بجانبها الروحى خاضعة لله وحده وإن كان اختلافها الجسدى وخضوعها للرجل بسببه ، أمراً لا مندوحة عنه ، وهو جزء من طبيعتها ، ويستحيل أن يفارقها وهو من الناحية الرمزية يمثل علاقة التبعية الموجودة بين جانبى النفس وذلك كله لا يعنى أبداً أن المرأة لا تملك الوظيفة التأملية العليا للعقل التى أصبحت الموجودات البشرية بفضلها على صورة الله ، كما يقول سفر التكوين وإن كان الرجل بمفرده هو صورة الله كما سبق أن رأينا لكن المرأة لا تكون كذلك إلا إذا اتحدت بالرجل ، أعنى أنها صورة الله فقط من خلال زوجها والقديس أوغسطين يعود فى الواقع إلى الاعتماد على بولس الرسول أريد أن تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح ، أما رأس المرأة فهو الرجل ، ورأس المسيح هو الله .. إلخ (رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس » الإصحاح الحادى عشر : ٣ : ١٠) .

والواقع أن القديس أوغسطين فى هذه الفقرات والنصوص يحاول جاهداً أن يضع حداً فاصلاً بين القضايا التى تدور حول طبيعة الأنثى ودور المرأة بوصفها جسداً تابعاً خاضعاً للرجل ، بين القضية التى تقول إن المرأة مستبعدة من أن تتجدد فى المسيح القضايا الأولى يوافق عليها ، فى حين أنه يرفض الثانية ، إنه يريد تعزيز وتأكيد ذلك العنصر الموجود فى الطبيعة البشرية ، والذى كان به الإنسان شبيهاً بالله وأعنى به العقل Reason وهو جانب الروح حيث لا جنس هناك فليس ثمة روح مذكراً (وروح مؤنثاً ، وإنما الروح واحد فى الإنسان وإذا ما انحرفت المرأة بعض الوقت فإن ذلك لا يعنى أنها غير قادرة على ما هـو أعلى ، أعنى الصورة التأملية للعقل .

وعلى الرغم من أننا نحمد للقديس أوغسطين محاولاته فى الارتفاع بالمرأة من الناحية

(١) Ibid.

الروحية إلى صف الرجل ، فإننا نعيب عليه أن يصفها وحدها بأنها تحمل جانباً جسدياً بارزاً وكأن الرجل لا يحمل هذا الجانب الجسدى نفسه . ما أروع ما سيقوله الفلاسفة الوجوديون المعاصرون من أن الجنس يشير إلى حقيقة هامة وهى أن الفرد البشرى لا يمكن أن يكتمل بدون الآخر ، وأن تركيب الجسم البشرى يعبر عن هذه الحقيقة أوضح تعبير : فعلى الرغم من أن هذا الجسم يحتوى على أجهزة كاملة ومتعددة مثل : الجهاز العصبى ، الجهاز الهضمى ، الجهاز التنفسى .. إلخ فإن لديه نصف جهاز للتناسل ، وهو على هذا النحو لا يكتمل بدون شخص آخر من الجنس الآخر ومن هنا اتخذ الجنس عند الوجوديين بعداً إنسانياً بارزاً .

أما أوغسطين فهو رغم جهوده ، فقد انتهى إلى الربط بين الذكورة والسمو أو التفوق وبين الأنوثة والضعة أو الانحطاط ! » ومن هنا فقد كانت جينيفيف ليود على حق فى قولها إنه رغم التزامه بالمساواة الروحية فقد ترك الأنوثة على حافة الخطر عندما أدخلها فى تعقيدات حسية يحاربها العقل ، كما أكد فساد الإرادة فى تعاملها مع الحس ، ومن ثم فقد دعم التداعيات القديمة التى تربط بين الأنثى ، وضعف العقل[١]

إن النفس العاقلة عند القديس أوغسطين قادرة على السيطرة على الأمور الخارجية لكنها يمكن من ناحية أخرى أن تنجذب إليها عن طريق الحب الجارف العنيف وتلك هى نسخته الخاصة من السقوط التى تظل باستمرار مرتبطة بالمرأة رغم أنها تصور الآن على أنها استخدام سئ للعقل[٢] وهو استخدام يؤدى إلى كثير من الثغرات التى يصفها أوغسطين بأنها نقص فى الإرادة ، وهى لا تحدث فى عالم الواقع قط ، بل قد توجد أيضاً فى عالم الأحلام ويضرب بها مثلاً بالزنى فى الخيال يقول فى مناجاته :

---

(١) Genevieve Lioyd : The Man of Reason P. 31 .

(٢) Ibid .

« أنت تأمرني بكبح شهوات الجسد ، أنا بنعمتك قد انقطعت عن تلك الملكات الدنسة ، وعرفت أن العزوبة أفضل من الزواج » .

ولكن في المنام تتحرك بي جداً ، بحيث لا تحرك في عوامل الفكر واللذة فحسب بل تجرني بصولتها إلى شئ يصور كأنه شئ من القبول أو الفعل .

هذه التخيلات الكاذبة تؤثر في نفسي وجسدى بحيث تقودني إلى تلك التصورات الوهمية في المنام ، إلى ما لا تقدر أن تقودني إليه الحقائق في اليقظة[١] .

ألست أنا ، أنا ، في الحالتين : اليقظة والمنام : فما هذا الفرق بين زمان وزمان ؟ وأين عقلي الذى كان في حال اليقظة يقاتل تلك الوساوس ؟[٢] .

ولقد ظل استسلام الإرادة وضعفها يرتبط عنده رمزياً بالمرأة وهذا جانب واحد من ارتباط أوسع بين المرأة والعاطفة والانفعالات الطاغية مع شهوانية النفس التي هي نتيجة مباشرة لفقدان إرادة السيطرة والتحكم عندها وفقدان السيطرة هذا هو الذى يجعل شهوة الجسد في نظر القديس أوغسطين مزعجة إلى أقصى حد فيرفض الجسد الخضوع للنفس ومن جديد نراه يفسر هذا النزاع أو القتال بين الشهوة والإرادة على أنه نتيجة لسقوط الإنسان في الخطيئة الأصلية ، خطيئة العصيان التي بدونها كان عضو التناسل سوف يطيع الإرادة ، كما تفعل الأعضاء الجسدية الأخرى بحيث يقوم بزراعة البذور في حقل التناسل كما تبذر اليد البذور في حقل الأرض والمرأة بوصفها موضوع شهوة الرجل ترتبط بهذا الخضوع المؤلم : خضوع النفس للبدن[٣] .

---

(١) وهذا دليل على ضعف الرجل أيضاً وأوغسطين نفسه هو صاحب العبارة الشهيرة إذا كنت مخطئاً ، فأنا موجود Si Fallo, Sum .

(٢) القديس أوغسطين الاعترافات ترجمة الخورى يوسف العلم ص١٩٠ .

(٣) Ibid,P.33.

لقد حاول القديس أوغسطين أن يعارض الرمزية الجنسية القديمة ويضع مكانها المساواة الروحية إلا أنه فى الواقع عاد وأكد الموقف السابق كما هو فلا تزال المرأة ترتبط بالجسد ، بالاضطرابات الحسية فى معارضة العقل ، ومازالت بالطبيعة تتبع الرجل ، وله حق السيطرة العقلية عليها ، بحكم خضوع الجسد للروح الذى يفرضه النظام السليم للأشياء[1].

المرأة .. فى السماء :

بقيت مشكلة أخيرة أكد فيها أوغسطين المساواة التامة بين الرجل والمرأة وهى وجود الجنسين يوم القيامة حيث يطمس الجنس تماماً وتزول الشهوة نهائياً ولقد كانت هذه هى المشكلة التى شغلت القديس أوغسطين فى شيخوخته وراح يبحثها بجد واهتمام بالغين ولقد كانت الفكرة السائدة فى الكنيسة آنذاك قولهم إن صورة المرأة سوف تنقلب رجلاً يوم القيام فلا قيامة للسيدات مستندين إلى أقوال القديس بولس إننا ننتهى جميعاً إلى وحدانية الإيمان، ومعرفة ابن الله إلى إنسان كامل (رسالة بولس إلى أهل أفسس ٤ : ١٣) وكذلك قوله لأن الذين سبق وعرفهم : « سبق فعينهن ليكونوا مشابهين صورة ابنه ، ليكون هو بكراً بين إخوان كثيرين »[2] « فقد استنتج البعض من هذه الأقوال أن كل من يبعث حياً لابد أن يكون مشابهاً صورة ابنه فيكون مثل المسيح رجلاً ، فالنساء على هيئة الرجال ولاسيما وأن الله قد خلق الرجل من طين ، وخلق المرأة من جنب الرجل وأنا أعتقد أن كل من يأخذ بهذا الرأى يتصور الأمر تصوراً حسياً ، وينسى أنه فى الحياة الآخرة لن

---

(١) Augustine : The City of God,Trans. by Henry Bettenson, Pengium Books, 1979, P. 587 .

(٢) رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية الإصحاح الثانى : ٢٩ .

تكون هناك شهوة جنسية وهى مبعث الخجل لأن الموجودات البشرية الأولى قبل الوقوع فى الخطيئة كان كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يخجلان » .. تكوين ٢ : ٢٥ .

وهكذا نجد أنه على حين أن جميع النقائص والعيوب سوف تزال من جسديهما فإنهما سوف يحفظان بطبيعتهما الأساسية لأنه لن تكون هناك نقيصة فى جنس المرأة فى هذه الحالة بل ستكون جنساً طبيعياً كما أنه لن تكون هناك معاشرة جنسية يوم القيامة ، ولا إنجاب للأطفال وهكذا لن تكون الأعضاء الجنسية للأنثى مفيدة فى شئ ولن تستخدم كما كانت فى الاستخدام السابق ، بل سوف تصبح جزءاً من جمال جديد ، لن يثير شهوة الشاهد أو الناظر ، لأنه لن تكون هناك أصلاً شهوة فى هذه الحياة الآخرة بل سوف ترتفع التسابيح للرب وتمجيده بسبب حكمته ورحمته لا فقط لأنه خلق من عدم ، بل لأنه أيضاً خلص ما خلقه من الفساد[1] .

ويحاول القديس أوغسطين تأويل قصة خلق المرأة كما جاءت فى سفر التكوين تأويلاً جديداً فالله عندما خلق المرأة فى بداية النوع ، « بأن أخذ ضلعاً من جنب الرجل وهو نائم فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام ، فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً ، وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة » (تكوين ٢ : (٢ ـ ٢٣) .

لابد أن الخالق كان يقصد بهذا الفعل الإشارة إلى نبوءة المسيح وكنيسته ، « فنوم آدم يرمز بوضوح إلى موت المسيح وجنب المسيح اخترقته الحربة على الصليب ولكن واحداً من العسكر طعن جنبه بحربة ، وللوقت خرج دم وماء » (إنجيل يوحنا ١٩ : ٣٤) وتلك أسرار نعترف نحن أن الكنيسة تقوم عليها والواقع أن هذا هو التعبير الدقيق الذى استخدمه الكتاب المقدس فى خلق المرأة ، فهو لم يقل إن الله صور أو شكل المرأة بل قال وبنى الرب

---

(١) Augustine : The Cite of God, P.1057.

الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة ومن هنا نجد أن القديسيين لعمل الخدمة لبنيان جسد المسيح (رسالة بولس إلى أهل أفسس ٤ : ١٢) فالمرأة إذن ، هي مخلوق لله مثل الرجل ، وخروجها من ضلع الرجل يؤكد فكرة الحدة بينهما والطريقة التى تم بها خلقهما إشارة إلى المسيح وكنيسته[١] .

والقصة التى رواها إنجيل متى عن حوار الصدوقيين مع السيد المسيح حول القيامة والمرأة[٢] تسير على النحو التالى :

فى ذلك اليوم جاء إليه صدوقيون يقولون : ليس قيامة ، فسألوه قائلين : « يا معلم قال موسى إن مات أحد ، وليس له أولاد يتزوج أخوه بامرأته ويقيم نسلاً لأخيه فكان عندنا سبعة أخوة وتزوج الأول ومات وإذ لم يكن له نسل ترك امرأته لأخيه وكذلك الثانى والثالث إلى السبعة وآخر الكل ماتت المرأة أيضاً ففى القيامة ، لمن من السبعة تكون زوجة فإنها كانت للجميع فأجاب يسوع وقال لهم تضلون إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله ، لأنهم فى القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله فى السماء » (إنجيل متى ٢ : ٢٢ ـ ٣٠) .

وهكذا لم يكن جواب المسيح المرأة التى تسألون عنها لن تبعث امرأة بل رجلاً وإنما أنكر المسيح الزواج فى الحياة الآخرة ، لكنه لم ينكر وجود جنس الأنثى فى تلك الحياة ، لكنه على العكس أكد وجود الجنسين يوم القيامة قال إنهم لا يزوجون مشيراً إلى النساء ولا يتزوجون زوجات مشيراً إلى الرجال أى أن المتزوجين زواجاً طبيعياً فى هذه الحياة الدنيا

---

(١) Ibid .

(٢) الصدوقيون Sadducees طائفة من اليهود كانت مزدهرة فيما بين القرن الثانى قبل الميلاد والقرن الأول الميلادى أنكرت خلود الروح ، والبعث ، والقيامة ، ووجود الملائكة رفضت الاعتراف بغير الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس ـ كانت لها مناقشات كثيرة مع السيد المسيح .

سيكونون موجودين يوم القيامة ، لكن لن يكون هناك زواج في السماء[1] .

وأخيراً ماذا نقول فى رأى أوغسطين فى المرأة التى أمدته بشعاع من نور الروح بالدور الذى لعبته أمه فى حياته ، كما أمدته بمتعة الجسد فى شكل خليلاته ؟ تقول إن أوغسطين تأثر بقوة بفكرة الخطيئة الأولى ، وهى عقيدة لم يبتدعها ذلك لأن بولس وترتوليان وأمبروز وغيرهم قد علموها للناس لكن الخطايا التى ارتكبها هى من ناحية والصوت هده من ناحية أخرى ، قد غرسا فيه اعتقاداً مقبضاً بأن إرادة الإنسان نزع منذ مولده إلى عمل الشر وأن لا شئ يستطيع ردها إلى الخير إلا فضل الله الذى يهبه للناس من غير مقابل .

ولم يكن فى مقدور أوغسطين أن يفسر نزعة الإرادة البشرية إلى الشر بأكثر من أنها نتيجة لخطيئة حواء وحب آدم لها ويقول أوغسطين إننا ونحن جميعاً أبناء آدم نشاركه فى إثمه بل إننا فى الواقع أبناء هذا الإثم ، لأن الخطيئة الأولى كانت نتيجة شهوته ولا تزال هذه الشهوة تدنس كل عمل من أعمال التناسل ، وبفضل هذه الشهوة الجنسية كان الجنس البشرى جميعاً من الخاسرين وحلت اللعنة على الكثرة الغالبة من الآدميين نعم إن بعضنا سوف ينجو ، ولكن نجاة هؤلاء لن تكون إلا بنعمة ينالونها بسبب ما قاساه ابن الله من آلام ، بشفاعة الأم التى حملت فيه من غير دنس لقد حل بنا الهلاك بفعل امرأة ، وعادت إلينا النجاة بفضل امرأة !

---

(1) Augustine : The City of God, p. 1058 .

الفصل الخامس

القديس توما الأكوينى
St. Thomas Aquinas

« الرجل أعلى من المرأة ، كما أن السيد المسيح أعلى من الرجل . ومن الأمور الثابتة التى لا يمكن أن تتغير : أن مصير المرأة فى الحياة خاضع لتأثير الرجل ، ولا سلطان لها على سيدها » .

توما الأكوينى

« عصى الإنسان الله بسبب خطأ حواء فى الحكم على ما هو خير ، وهو يحمل الآن فى كل جيل وِزر هذه الخطيئة الأولى »

توما الأكوينى

القديس توما الأكوينى

تمهيد :

أعظم فلاسفة المسيحية فى العصر الوسيط على الإطلاق ، لُقِّب بالمعلم الجامع للكنيسة ، وكذلك « بالمعلم الملائكى » كما وُصِفَتْ فلسفته بأنها سيمفونية عقلية تتعاقب أنغامها فى اتساق وانسجام . وقيل عن مؤلفاته الغزيرة إنها كاتدرائية هائلة من الأفكار ؛ حتى أعلن البابا عام ١٣٢٣ أن الأكوينى « قديس » وأن التوماوية منحة إلهية ! فقد وجدت الكاثوليكية فى كتبه أسلحة فلسفية هامة لمحاربة الهرطقة والإلحاد واللاأدرية ، ولا يزال تأثيره عظيماً فى الكنيسة الكاثوليكية ، وفى الفكر المسيحى بعامة ؛ إذ لم تتوقف قيمته عند العصور الوسطى ، بل امتدت إلى العصور الحديثة ، بدليل أننا نشهد اليوم فى العالم الغربى حركات توماوية جديدة يحاول أصحابها الارتداد إلى نزعة القديس توما الإنسانية المسيحية ، ويسعون جاهدين فى سبيل حل مشكلات الإنسان الغربى المعاصر فى ضوء الأصول العامة للفلسفة اللاهوتية التى وضع دعائمها القديس توما الأكوينى[١] .

* * *

(١) الدكتور زكريا إبراهيم « المجموعة اللاهوتية للقديس توما الأكوينى » تراث الإنسانية ، المجلد الثالث ، عدد رقم ١٠ ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ص٧٨٤ .

(١) حياته :

ولد توما فى قصر روكاسيكا Roccasecca (أى الصخرة اليابسة) وهو قصر شبيه بالقلعة، على بعد ثلاثة أميال من أكوينو Aquino على الحدود الشمالية لمملكة صقلية القديمة جنوب إيطاليا بين روما ونابولى فى نهاية عام ١٢٢٤ أو بداية ١٢٢٥ [(١)] ، ومنها جاء لقبه « الأكوينى » فقد كان والده كونت مقاطعة أكوينو Count of Aquino ، وكان توما أصغر إخوته ، وعندما بلغ الخامسة من عمره أدخله والده عام ١٢٣٠ دير مونت كاسينو Monte Cassino الذى كان يشرف عليه عمه ، فظل يدرس فيه تسع سنوات إلى أن بلغ من العمر أربعة عشر عاماً . وفى هذا الدير تعلم الكثير من العلوم المدرسية المختلفة ، كما تعلم قواعد الحياة الروحية . وكان الدير من أملاك البابا ، لكن قوات الملك فردريك الثانى (١١٩٤ـ ١٢٥٠) ملك صقلية كانت قد احتلت منطقة الدير ، وإنْ ظل الرهبان على ولائهم للسلطة البابوية ، مما أغضب الملك ؛ فأمر جنوده باحتلال الدير احتلالاً عسكرياً ، وطرد الرهبان منه عام ١٢٣٩ ؛ فاضطر توما إلى خلع عباءة الدير ، والعودة إلى منزله لعدة أشهر .

على أنه لم يمكث مع الأسرة طويلاً ، بل أرسله والده فى خريف العام نفسه إلى جامعة نابولى التى كان الملك فردريك الثانى قد أسسها عام ١٢٢٤ ليستكمل دراسته فدرس الفنون الحرة السبعة : الشعر ، والنحو ، والمنطق ، والخطابة ، والهندسة ، والحساب ، والفلك .[(٢)] وفى مدينة نابولى تعرف الشاب على رهبانية الإخوة الوعاظ التى كان قد

---

(١) Fredrick Copleston : A History of philosophy Vol.2, Search press, p. 302 .

(٢) كانت هذه الجامعة تموج بالمؤثرات اليونانية ، والعربية ، والعبرية التى تصطدم فيها بالأفكار المسيحية ، وفضلاً عن ذلك فقد كان يقوم بالتدريس بجامعة نابولى أحد أساتذة توما وهو شديد الحماس لأرسطو ، وربما كان أول من لفت نظره إلى أهمية « المعلم الأول » أو «الفيلسوف » على حد تعبير القديس توما !

أسسها حديثاً القديس دومنيكو (١١٧٠ ـ ١٢٢١) وهو راهب كاثوليكى أسبانى عمل فى فرنسا وأنفق شطراً كبيراً من حياته فى محاربة الهرطقة ودعوة الهراطقة إلى العودة إلى حظيرة الكنيسة الرومانية، ثم أنشأ عام ١٢١٦ جماعة الرهبنة الدومانيكية التى دخلها توما الشاب ، رغم معارضة أسرته الشديدة[١] ؛ فقد كانت الأسرة قد أدخلته دير «مونت كاسينو» فى بداية حياته ليتعلم فقط ، لكنه الآن وقد بلغ سن العشرين أراد أن « يحترق » أعنى أن ينصرف تماماً عن الدنيا ، ويقبل على خدمة الله بالعلم والتعليم عن وعى كامل . وخشى رؤساء توما من معارضة أسرته فقرروا إبعاده إلى باريس غير أن اثنين من إخوته اعترضا طريقه ، وقبضا عليه ، بتحريض من أمهما وأعاداه إلى قصر روكاسيكا حيث وُضِعَ تحت الرقابة ، وأصبح البيت سجناً يتعرض فيه الشاب إلى الاضطهاد والسخرية ، وغوايات سخيفة[٢] . ودام هذا السجن سنة كاملة[٣] ، تمسك فيها توما بفكرته وأصر عليها ، بل استطاع أن يستميل إحدى أخواته واسمها ماركوتا Marcota بعد أحاديث كثيرة معها إلى الرهبنة البندكتية ؛ فما كان من أسرته إلا أن أطلقت سبيله ؛ فقد أدت شدة تقواه إلى انضمام أمه إلى جانبه ، فساعدته على الفرار ؛ فعاد إلى تنفيذ مخططه السابق ، وتوجّه إلى باريس[٤] حيث أقام فترة قصيرة ـ فيما يقال ـ ذهب بعدها إلى كولونيا فى ألمانيا .

---

(١) بدأت هذه الجماعة نشاطها فى البداية فى مدينة «تولوز» بفرنسا كانت أول رهبنة كاثوليكية أخذت على عاتقها التبشير بالعقيدة المسيحية وهى مهمة كانت تعتبر من قبل وقفاً على الأساقفة ومندوبيهم وقد تميز الدومينكان الأوائل بثقافة اسعة تخطت اللاهوت إلى محاولة التوفيق بين اللاهوت والفلسفة .

(٢) من ذلك أن فتاة حسناء أُدخلت إلى حجرته رجاء أن تغريه بالعودة إلى هذه الحياة الدنيا ، ولكنه اختطف من المدفأة شعلة ملتهبة أخرجها بها من الحجرة وحرق علامة الصليب التى كانت بالباب !

(٣) يرى بعض الباحثين أنه ظل فى قصر والداه طوال عامين يدرس الكتب المقدسة وكتاب الأقوال لبطرس اللمبارى ، ومنطق أرسطو د. عبد الرحمن بدوى «موسوعة الفلسفة» ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيرت عام ١٩٨٤ ـ الجزء الأول ص ٤٢٧ .

(٤) ميخائيل ضومط « توما الأكوينى » المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٥٦ ص ١٠ ـ ١١ .

وفى كولونيا تعرف توما على ألبير الكبير Albertus Magnus (١٢٠٠ـ ١٢٨٠)[١]. حيث كان هذا الفيلسوف واللاهوتى الألمانى يقوم منذ عام ١٢٥١ بالتدريس فى المعهد العام الذى أنشئ حديثاً لتأهيل الرهبان الدومانيكان ، وهنا تتلمذ عليه الشاب توما الأكوينى الذى أعجب به معلّمه إعجاباً شديداً لـما وجد عنده من رغبة عارمة فى المعرفة ؛ حتى لقبه « بالثور الصقلى »[٢] . وفى كولونيا أيضاً شهد وضع حجر الأساس فى كاتدرائيتها الشهيرة .

وفى عام ١٢٥٢ احتاجت مدرسة « دير سان جاك » التابع للدومينكان فى باريس إلى مساعد مدرس ؛ فأوصى ألبير الكبير بتعيين توما فى هذا المنصب ، وتم تعيينه بالفعل . وسافر إلى باريس فى صيف عام ١٢٥٢ ، وقام بالتدريس فى هذا الدير . وكانت دروسه تتناول شرح الكتاب المقدس وشرح كتاب الأحكام لبطرس اللمباردى Peter the Lombard اللاهوتى الإيطالى الأصل (١١٠٠ ـ ١١٦٠)[٣] .

فى ذلك الوقت قد أثيرت منازعات بين رجال الدين من غير الرهبان ، وبين الرهبان فيما يتعلق بحق التدريس فى كلية اللاهوت بجامعة باريس . وفى عام ١٢٥٧ وبأمر مباشر من البابا ألكسندر الرابع عُين توما أستاذاً بجاعة باريس . وفى سنة ١٢٦٠ وُكِلَتْ إليه مهمة

---

(١) ألبير الكبير : فيلسوف ولاهوتى ألمانى انضم عام ١٢٢٣ إلى الرهبان الدومينكان . حاول التوفيق بين اللاهوت المسيحى ، وفلسفة أرسطو ، وقد تأثر به القديس توما الأكوينى .

(٢) الواقع أن هذا اللقب كان يطلقه عليه أصدقاؤه ؛ فهو عندهم ثور صقلية الأبكم العظيم . انظر « ول ديورانت » « قصة الحضارة » المجلد السابع عشر ، ترجمة الأستاذ محمد بدران ص ١١٦ .

(٣) اسمه باللاتينية Petrus Lombardus وهو لاهوتى إيطالى كان كتاب « الأحكام » أشهر مؤلفاته حتى سُمى أستاذ الأحكام ، وقد رتب فيه موضوعات اللاهوت وعرض فى كل موضوع لحجج الإثبات ثم حجج النفى على ما يقتضى علم الجدل فى ذلك الوقت ، لكنه اقتصر على هذا التنظيم فحسب ، وكان هذا الكتاب هو أساس التعليم اللاهوتى فى القرن الثالث عشر .

الوعظ العام ، وفى عام ١٢٦١ مهمة القارئ فى دير أورڤيتو فى وسط إيطاليا ، ثم قام لعدة سنوات بوظيفة القارئ البابوى . وأثناء إقامته فى إيطاليا أنهى كتابه « الخلاصة ضد الأمم » . ثم شرع عام ١٢٦٦ فى تأليف كتابه الرئيسى « الخلاصة اللاهــوتية Summa Theo-logica »، وفى عام ١٢٧٢ قام بالتدريس فى جامعة نابولى ، ثم سافر فى فبراير ١٢٧٤ إلى فرنسا ليحضر مجمع ليون ، لكنه فى الطريق عرج على دير فوسا نوفا Fossa - Nova فأصيب بمرض غير معروف ، وتوفى فى هذا الدير وكانت وفاته فى ٧ مارس ١٢٧٤ عن عمر يناهز الثامنة أو التاسعة والأربعين . غير أن جثمانه نقل بعد ذلك إلى جامعة باريس ثم إلى تولوز حيث دفن . وفى عام ١٣٢٣ أعلن البابا يوحنا الثانى والعشرون أن توما قديس ، وأعلن البابا بيوس الخامس فى سنة ١٥٦٧ أن توما هو دكتور الكنيسة الكاثوليكية ، وفى عـام ١٨٨٠ خلع عليـه البـابا لى الثـالث عـشــر لقـــب حـامى أو راعى « المدارس الكاثوليكية »(١) .

(٢) العصور الوسطى .. والمرأة :

سبق أن ذكرنا أن القديس توما الأكوينى كان أعظم فلاسفة المسيحية فى العصور الوسطى ، فما المقصود بالعصور الوسطى التى جاء الأكوينى ليلخص فكرها وليكون أعظم فلاسفتها ؟ ما هى سماتها ، وماذا كان وضع المرأة فيها ؟

لا شك أن تقسيم العصور التاريخية أمر محفوف بالمخاطر دائماً ؛ ذ تستحيل فيه الدقة لتداخل العصور تداخلاً يصعب معه الفصل بينها ، فالتاريخ أشبه بمجرى النهر الذى ينساب سريعاً بلا توقف . ومن ثم فإن التقسيم المقترح هو باستمرار تقسيم « وهمى » ، أقرب إلى القسيم الجغرافى لخطوط الطول ، وخطوط العرض ـ حتى يسهل على الباحث فهم المجرى المتدفق لأحداث التاريخ .

(١) قارن د . عبد الرحمن بدوى « موسوعة الفلسفة » الجزء الأول ص٤٢٧ .

نستطيع أن نقول بعد ذلك إن مصطلح العصور الوسطى يطلق على وجه التقريب على تلك الفترة الممتدة من تاريخ أوربا الممتدة من سقوط الإمبراطورية الرومانية حتى عصر النهضة ، أى : حوالى ألف سنة (من القرن الرابع حتى القرن الرابع عشر) . وقد أحدث المفكرون فى عصر النهضة ميلاداً جديداً Renaissance للفكر والفن التراث اليونانى ـ الرومانى . ومن ثم فما حدث فيما بين العصر القديم ، وعصرهم هو وسط أو عصر وسيط ، أو هو حقبة العصور الوسطى[١] .

ولقد تجمعت فى الستة قرون التى أعقبت موت جوستنيان (٤٨٣ ـ ٥٦٥) ظروف كثيرة كان لها أثر هائل ـ وإنْ كان بطيئاً ـ فى التغير الأساسى الذى حدث فى المجتمع الأوربى من الجوانب الاقصادية ، والسياسية ، والأخلاقية .. إلخ أدى إلى ظهور تركيبة اقتصادية ، وسياسية ، واجتماعية هى التى سميت فيما بعد بعصر الإقطاع . ذلك أنه عندما تفككت الإمبراطورية الرومانية هبطت القبائل الشمالية وغزت الغال الرومانى (فرنسا الآن) ، وإيطاليا ، كما استقر الدانيون Danes فى بريطانيا[٢] .

ولما أصبحت مدن إيطليا والغال غير آمنة على نفسها أثناء الغارات الجرمانية انتقل أعيان هذه المدن إلى القصور الريفية ، وأحاطوا أنفسهم بأتباعهم من الزراع ، والموالى ، وأعوان من العسكر . وزادت حركة التفرقة التى تهدف إلى تكوين وحدات اقتصادية شبه مستقلة فى الريف ، وقيام الأديرة التى كان رهبانها يفلحون الأرض ، ويشتغلون ببعض الصناعات اليدوية . ولم تعد الطرق صالحة للاحتفاظ بوسائل النقل وتبادل التجارة فاضطرت قصور الأعيان فى الريف أن تسعى للاكتفاء الذاتى من الناحية الاقتصادية . وأضحت هذه

---

(١) Susan G. Bell : Women : from the Greeks to the french Revolution P.118 .

(٢) الدانيون ـ أو الدنماركيون ـ أبناء الدانمارك ، ويُطلق اسم الدانيين على جماعة الإسكندنافيين الذين غزو بريطانيا ، وفرنسا ، وهولندا .

الإقطاعات فى القرن التاسع وراثية وشبه مستقلة . ولما كان معظم المغيرين من الفرسان فقد كثر الطلب على المُدافعين الذين يملكون الخيل ، وأصبح الفرسان لهذا السبب أهم من المشاة . وهكذا نشأت فى فرنسا ، وإيطاليا ، وإنجلترا ، وأسبانيا - طبقة من الفرسان تقع بين الدوق والبارون من جهة ، والفلاحين من جهة أخرى . ولم ير الشعب حرجاً فى هذه التطورات ؛ فقد كان يتطلع إلى وجود نظام عسكرى يتولى حمايته مما يحيط به من رعب ، ومن الهجمات التى تنقض عليه فى أى وقت . وهكذا نشأ نظام الإقطاع الذى كان يعنى خضوع الرجل من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية إلى رجل أسمى منه منزلة فى مقابل تنظيم اقتصادى وحماية عسكرية .

أما المجتمع فى العصور الوسطى فقد كان يتكون من الأحرار (الأعيان ، ورجال الدين ، والجنود ، والتجار .. إلخ) ورقيق الأرض والعبيد . وكانت القوانين الكنسية تحرم على العبيد أن يكونوا قساوسة ، أو أن يتزوجوا من المسيحيات الحرائر ... كما كان القديس توما الأكوينى يفسر الاسترقاق بأنه نتيجة لخطيئة آدم ، وأنه وسيلة اقتصادية فى عالم يجب أن يكدح فيه بعض الناس لِيُمَكّنوا بعضهم الآخر من الدفاع عنهم ! وهى آراء تتفق تماماً مع نظرية أرسطو فى الرق[1] .

ولا شك أن القبائل الجرمانية قد حملت معها عاداتها ، وقوانينها ، وتقاليدها وفرضتها إلى حد ما على القوانين والعادات والتقاليد الموجودة عند الشعوب التى غزتها[2] . وإنْ كانت

---

(١) قارن فى نظرية الرق عند أرسطو كتابنا الطاغية : دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسى ص١٣٠ - ١٣١ وأيضاً أرسطو .. والمرأة .

(٢) ولهذا فإن سيمون دى بوقوار تذهب إلى أنه عندما إنتصر «البرابرة» ، ونجحوا فى العصور التالية ، فى فرض قوانينهم إنقلبت الأوضاع الاقتصادية والسياسية الاجتماعية رأساً على عقب ، وكان تأثيره سيئاً على وضع المرأة التى عانت من هذه المضاعفات . انظر كتابها .
Simone de Beavoir : The Second Sex. P. 128 .

ديانة الإمبراطورية الرومانية ، وهى الديانة المسيحية ، قد أصبحت الديانة الرسمية لكل أوروبا الغربية ، بل كان بابا روما لبعض فترات العصر الوسيط، يمثل الله على الأرض . كما كان يسمى الأب المقدس وكان أقوى من كثير من ملوك وأباطرة الأمم الأوربية ومن ناحية أخرى فقد أصبحت الكنيسة ونظرياتها جزءاً لا يتجزأ من الحياة اليومية لكل شخص فى أوروبا طوال العصور الوسطى . ومن ثم فقد كان موقفها من المرأة بالغ الأهمية ؛ لما يحمله من معنى ومغزى ؛ ولما له من تأثير قوى فى حياة الناس . ولقد ارتكزت نظريات الكنيسة فى بداية العصر الوسيط ـ فى الأعم الأغلب ـ على كتابات عصر الآباء[١] .

ولقد كانت قوانين ونظريات رجال الكنيسة بوجه عام معادية للمرأة ، بل غالت بعض قوانين الكنيسة في إخضاعها . فقد ظلت المرأة فى نظر القساوسة ورجال الدين كما كانت عند القديس يوحنا فم الذهب : شراً لابد منه ، وإغواء طبيعياً ، وكارثة مرغوباً فيها ، وخطراً منزلياً ، وفتنة مهلكة ، وشراً عليه طلاء . وكانت حواء لا تزال مجسدة فى كل مكان ، فحواء هى التى خسر بها الجنس البشرى جنات عدن ، وهى أداة الشيطان المحببة التى يقود بها الرجال إلى الجحيم[٢] . وكان توما الأكوينى وهو فى العادة رسول الرحمة يتحدث عنها كما يتحدث الرهبان ؛ فينزلها من بعض النواحى منزلة الرقيق .

« إن المرأة خاضعة للرجل لضعف طبيعتها الجسمية والعقلية معاً . والرجل مبدأ المرأة ومنتهاها ، كما أن الله مبدأ كل شئ ومنتهاه . وقد فرض الخضوع على المرأة عملاً بقانون الطبيعة ، أما العبد فليس كذلك . ويجب على الأبناء أن يحبوا آباءهم أكثر مما يحبون أمهاتهم»[٣] .

---

(١) Susan G. Bell : Ibid .

(٢) Dictionary of the History of Ideas, Vol. 4, P. 593 .

(٣) ول ديرانت « قصة الحضارة » المجلد السادس عشر ، ترجمة الأستاذ محمد بدران ص١٨٧ .

وإذا كان قانون الكنيسة قد أوجب على الزوج حماية زوجته ، فقد أوجب على الزوجة طاعة زوجها ، قد خلق الله الرجل ، لا المرأة ، على صورته هو ... ويعقب العالم الكنسى على ذلك بقوله : يتضح من هذا أن الزوجة يجب أن تكون خاضعة لزوجها ، بل يجب أن تكون له أقرب ما تكون إلى الخادمة[1] .

وكان القانون المدنى أشد عداء للمرأة من القانون الكنسى ، فقد كان كلا القانونين يجيز ضرب الزوجة ، وينص على ألا تُسمح للنساء كلمة فى المحكمة « لضعفهن » . ويعاقب على الإساءة للمرأة بغرامة تعادل نصف ما يُفرض على الرجل نظير هذه الإساءة نفسها . وقد حَرَّمَ القانون النساء ـ حتى أرقاهن مولداً ـ من أن يُمَثِّلنَ ضياعهن فى برلمان إنجلترا ، أو فى الجمعية العامة للطبقات فى فرنسا . وكان الزواج قد أعطى الزوج الحق الكامل فى الانتفاع بكل ما للزوجة من متاع وقت الزواج ، والتصرف فى ريعه[2] .

أضف إلى ذلك أن المفكرين فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر أعادوا اكتشاف أرسطو ودراسته ، من واقع كتبه التى ترجموها مباشرة عن اليونانيين ؛ إذ يروى المؤرخون عن الأكوينى أنه عهد إلى زميله الراهب الدومنيكان وليم موربيك (١٢١٥ ـ ١٢٨٦) بأن يزوده بترجمات من اليونانية إلى اللاتينية . ذلك أنه كان مهتماً بالرجوع إلى النصوص الأصلية ، وبغير هذه الطريقة ما كان من الممكن تمييز فلسفة أرسطو عن إضافات كبار مفكرى العرب ، وخاصة ابن سينا ، وابن رشد ، حيث كانت فلسفة أرسطو مختلطة بآراء من الأفلاطونية الجديدة . على أن ما يسمى بتعميد أرسطو لم يكن مجرد توفيق سطحى بينه وبين المسيحية ؛ فقد أراد الأكوينى أن يصل بالحجج الفلسفية إلى أعمق مستوياتها ، لا

(١) المرجع نفسه ص١٨٨ .
(٢) المرجع نفسه .

أن يكدس من المواد ما يمكن تطويعه تطويعاً يندرج به فى الإطار اللاهتى كما هو قائم[١].

أما نظرة القديس توما إلى المرأة فهى بغير جدال نظرة دونية ؛ فدورها الأساسى إنما يوجد فى التناسل ، وينبغى علينا أن نحافظ عليها لهذا السبب الرئيسى . وقد كتب يقول : إننا نحتاج للمرأة للمحافظة على الجنس البشرى ، ولإمدادنا بالطعام والشراب أيضاً ، وإنْ كان دورها الفريد الذى لا نظير له إنما يوجد فى الحمل ، مادامت الأهداف البشرية الأخرى يستطيع الرجل أن يقوم بها على نحو أفضل بمساعدة غيره من الرجال[٢] . ولهذا السبب فقد شعر توما أن المرأة تحتاج إلى حماية ، ولاسيما وأنها الحافظة للنوع البشرى . ومن هنا فإن على الرجال أن يهتموا بزوجاتهم ، فالزواج الحقيقى هو ذلك الذى يُعنى فيه الزوج بزوجته وأولاده . وهو بالغ الأهمية ، وجزء حيوى من واجب الرجل الاجتماعى[٣] .

غير أن ذلك كله إيجاز يحتاج إلى شرح وتفصيل .

(٣) الطبيعة البشرية :

كان القديس أوغسطين قد استفاد من التراث اليونانى ـ ومن أفلاطون بصفة خاصة ـ غير أن فكره ـ ومعه النغمات الأفلاطونية ـ بدأ يخفت فى القرن الثالث عشر ، فى الوقت الذى بدأ فيه تراث أرسطو يطل برأسه ، بل ظهر شعار « العودة إلى أرسطو » . وكان القديس توما الأكوينى أكبر فيلسوف يحقق هذا الشعار ، فقد حاول أن يخلق مركباً من الفكر

---

(١) « الموسوعة الفلسفية المختصرة » بإشراف الدكتور زكى نجيب محمود ، مكتبة الأنجلو المصرية ص٧١ ـ ٧٢ .

(٢) Quoted by SusanG. Bell Op. Cit. P. 119 .

(٣) Ibid .

المسيحى والفلسفة الأرسطية ظهر واضحاً فى مؤلفاته وعلى رأسها كتابه العظيم « الخلاصة اللاهوتية » .

وقد أخذ الأكوينى من أرسطو نظرية متكاملة عن الطبيعة البشرية ، ربما أكثر بكثير مما فعل أوغسطين مع أفلاطون الذى اكتفى باستلهام الروح الأفلاطونى فحسب .

لقد كان القديس أوغسطين يؤكد وحدة النفس البشرية رغم اختلاف عملياتها وتنوعها . غير أن تفرقة أرسطو بين الوجود بالقوة ، والوجود بالفعل ، وبين القوى ، والملكات ، والوظائف ، والذوات ، والمبادئ ... إلخ قد مكّن الأكوينى من السير فى نفس الطريق ، والتمييز بدقة بين القوى والملكات المختلفة التى تتألف منها الطبيعة البشرية(1) فهو مثلاً يساير أرسطو فى أن النفس ثلاث درجات : هى النفس النباتية (أى القدرة على النماء) ، والنفس الحاسة (أى القدرة على الشعر) والنفس العاقلة (أى القدرة على التعقل والاستدلال) . والأولى موجودة فى جميع الكائنات الحية ، أما الثانية فلا توجد إلا فى الحيوان والبشر ، وأما الثالثة فلا توجد إلا فى بنى الإنسان . لكنه يزيد الفكرة الأرسطية توضيحاً وتفصيلا(2) . فيرى أن النفس خمس صور أو قوى : النفس النباتية (وبها ننظم ونتمو ونتكاثر) ، والنفس الحاسة ، (وبها نستقبل المنبهات من العالم الخارجى) ، والنفس الشهوانية (وبها نرغب ونريد) ، والنفس المحركة (وبها تحدث الحركة) ، والنفس العاقلة (وبها نفكر)(3) . غير أن النفس وحدة واحدة رغم اختلاف قواها وملكاتها . وكذلك

---

(1) Genevieve, Loyd : The man of Reason : Male and female in western Philosophy " Methuen Co. L. T. D P. 33 .

(2) وهو هنا يرتكز أيضاً على تقسيم أرسطو لقوى النفس راجع :
Henry Osborn Tyalor : The ediavel Mind : A History of The Development to Thought and Emotion in the Midle Ages " Macmillan, 1911, Vol. 2 P. 464 .

(3) Thomas Aquinas : Summa Theologica, I, I, 28, 1 - 4 .

العقل فهو وحدة واحدة رغم اختلاف وظائفه ؛ فالنفس العاقلة تتضمن بداخلها الصور الدنيا أو الأقل كمالاً التي يُعزى إليها عمليات أقل نبلاً ، كالوظائف اللاعقلية في الطبيعة البشرية ، فليس للموجود البشرى سوى صورة جوهرية واحدة . ومن هنا كانت النفس العاقلة هي مبدأ الفهم والإرادة سواء بسواء . إن الإحساس لا يكون حاضراً في النفس ، بل في مركب النفس والبدن . إنه عن طريق النفس العاقلة يكون لهذا المركب قوة الإحساس(1).

لكن هل هذه الطبيعة البشرية هي طبيعة كل إنسان ؟ وبمعنى آخر : هل هذه القوى التي تتألف منها طبيعة الإنسان موجودة عند الرجل والمرأة على حدٍ سواء ؟ يجيب توما بالإيجاب مع بعض التحفظات :

فهو يرى أن قصة الخلق التي وردت في سفر التكوين تجيب بوضوح عن هذه الأسئلة ؛ فقد جاء فيها : « ... فخلق الله الإنسان على صورته ، على صورة الله خلقه ذكراً وأنثى خلقهم » (تكوين ١ : ٢٧) فصورة الله هنا هي - في مغزاها الأساسي - الطبيعة العاقلة ، وهي موجودة عند الرجل كما هي موجودة عند المرأة على حدٍ سواء(2)

---

(١) Genevieve LLoyd : The Man of Reason P p. 33 .

(٢) هنا يثير الأكويني اعتراضاً هاماً ويتولى الرد عليه : أما الاعتراض فهو أن التمييز بين الذكر والأنثى هو تمييز للجسد ، ومن ثم فإذا صح أن صورة الله موجودة في الجنسين فإن ذلك يعني أنها توجد في الجسد أيضاً لا في العقل فحسب ، وبالتالي فإن المغزى الأساسي ليس هو الطبيعة العقلية فقط ، بل الطبيعة الجسدية كذلك . وهو يرد على هذا الاعتراض بقوله : من الواضح أن ذلك كله خلف محال ؛ لأنه لو صح ذلك فما كان ينبغي للكتاب المقدس أن يذكر صورة الله إلا بعد وجود النسل ، لكنه يقول «على صورة الله خلقه » ، ثم أضاف « ذكراً وأنثى خلقهم » ، لا بمعنى أن صورة الله تأتي من خلال تمييز الجنس ، وإنما هي تنتمي إلى الجنسين معاً ، طالما أنه لا تمييز بين الجنسين في حالة العقل ؛ ولهذا يقول الرسول : « حسب صورة خالقه حيث ... لا ذكر ولا أنثى » (الرسالة إلى أهل كولوسي ٣ : ١٠) قارن ماري بريودي فلسفة المرأة : مقتطفات مختارة من الأفكار الشائعة والكلاسيكية ص٢٨٣ .

ولهذا فإن الكتاب المقدس يتحدث عن الإنسان في صيغة الجمع ؛ فيقول (ذكراً وأنثى خلقهم) خشية الظن أن الجنسين معاً قد اتحدا في فرد واحد[١] .

ولو أن القديس توما وقف عند هذا الحد لكان قد اتخذ خطوة كبرى نحو إنصاف المرأة ومساواتها بالرجل ، ولسار بعيداً عن فلسفة أرسطو ، لكنه ـ للأسف ـ يعود إلى « التحفظات » التي تنسف الفكرة من أساسها عندما يتساءل وكأنه اصطدم بكلمات أخرى للكتاب المقدس، وهي هنا من أقوال بولس الرسول : ماذا نقول في أقوال الرسول ؟ يبدو أن صورة الله لا توجد عند كل إنسان ؛ لأن القديس بولس يقول : إن الرجل هو صورة الله ، أما المرأة فهي صورة الرجل[٢] . ومن ثم فبما أن المرأة هي فرد من أفراد الجنس البشري ، فمن الواضح أن صورة الله لا توجد في كل فرد من أفراد البشر .

هنا يقدم الأكويني مخرجاً من هذا المأزق يجده فيما يسميه « المعنى الثاني » لصورة الله يقول : لكن هناك معنى ثانياً لصورة الله وجد في الرجل ، وليس في المرأة ؛ ذلك أن الرجل هو بداية المرأة ونهايتها وغايتها ، تماماً كما أن الله هو بداية الخلق ونهايته وغايته ؛ ولهذا فعندما قال الرسول : إن الرجل هو صورة الله ومجده في حين أن المرأة هي صورة الرجل ومجده فإنه قد أضاف السبب الذي جعله يقول ذلك وهو : « ... إن الرجل ليس من المرأة ، بل المرأة من الرجل ، ولم يخلق الرجل من أجل المرأة ، بل المرأة من أجل الرجل »[٣] .

---

(١) Quoted by Mary Briody : Philosophy of woman : An Anthology of classical and Current Concepts Hackett publishing Company, 1983, P. 282 .

(٢) رسالة القديس الأولى إلى أهل كورنثوس ١١ : ٧ .

(٣) Quoted by Mary Briody : " Philosophy of woman " Hackett publishing Company, 1983, P. 282 .

أيكون ذلك لأن المرأة خلقت من ضلع الرجل ، فكانت بذلك موجوداً ثانوياً ، في الوقت الذى يكون فيه الرجل هو المبدأ وهو الأصل والأساس ، وهو الغاية والنهاية بالنسبة للمرأة ؟ فلنقف قليلاً عند مشكلة خلق المرأة .

* * *

(٤) خلق المرأة :

يعرض القديس توما الأكوينى لخلق المرأة فى الخلاصة اللاهوتية فى أربع مقالات[١] . يتساءل فى المقالة الأولى : أكان ينبغى خلق المرأة مع بداية الخلق ؟ ويثير ثلاثة اعتراضات ضد خلق المرأة ، ثم يجيب عنها على النحو التالى :

الاعتراض الأول :

يبدو أنه ما كان ينبغى خلق المرأة مع بداية خلق الكائنات ؛ ذلك لأن الفيلسوف[٢] يقول : إن الأنثى نتاج مُشوَّه للرجل[٣] (وهو ما يوافق عليه الأكوينى ويردده مراراً) ، ولا ينبغى أن يكون هناك شئ ناقص أو مشوه أو عيب فى بداية الخلق ، ومن ثم فإن المرأة ما كان ينبغى أن تخلق مع بداية خلق الكائنات .

---

(١) Mary Briody : " Philosophy of woman : An Anthclogy of Classical and Current Concepts" Hackett Publishing Company, 1983, P. 276 .

(٢) الفيلسوف المقصود هنا هو أرسطو . والأكوينى ، فى معظم نصوصه يذكر المعلم الأول على هذا النحو ، وكأنه لا يوجد فيلسوف سوى أرسطو .

(٣) قارن كتابنا « أرسطو ... والمرأة » وهو العدد الثانى من سلسلة الفيلسوف والمرأة ، وقد أصدرتها مكتبة مدبولى بالقاهرة ص٥٧ وما بعدها .

الاعتراض الثانى :

خضوع المرأة وتقييدها إنما جاء نتيجة للخطيئة ؛ ولهذا قال لها الله بعد الخطيئة « فكثيراً أكثّر أتعاب حبلك ، بالوجع تلدين أولاداً إلى ، ورجلك يكون اشتياقك ، هو يسود عليك» (تكوين ٣ : ١٦) ويقول جريجورى : لو لم تكن هناك خطيئة ما كان هناك تفاوت ولا عدم مساواة ؛ ولهذا كان من الطبيعى أن تكون المرأة أقل قوة وأدنى كرامة من الرجل ؛ لأن الفاعل ـ كما يقول أوغسطين ـ هو باستمرار أعلى مقاماً ممن وقع عليه الفعل . ومن ثم فما كان ينبغى أن توجد المرأة فى بداية خلق الكائنات قبل الخطيئة .

الاعتراض الثالث :

كان ينبغى منع فرص الخطيئة أمام الرجل . غير أن الله استشّف أن تكون المرأة فرصة لوقوع الرجل فى الخطيئة ؛ ولهذا ما كان ينبغى أن توجد المرأة مع بداية الخلق ، لكن العكس هو الذى كان ؛ فقد جاء فى الكتاب المقدس « وقال الرب الإله ليس جيداً أن يكون آدم وحده، فأصنع له معيناً نظيره » (تكوين ٢ : ١٨) .

ويقول توما الأكوينى : جوابى على هذه الاعتراضات هو على النحو التالى :

فى اعتقادى أنه كان من الضرورى خلق المرأة لكى تكون معيناً نظيراً للرجل كما جاء فى الكتاب المقدس لا لكى تساعده فى الأعمال المختلفة كما يذهب بعض الباحثين ؛ إذ الواقع أن الرجل قادر على هذه الأعمال ، بل إنه يمكن أن يؤدى جميع الواجبات أفضل من أداء المرأة ـ لا نستثنى من ذلك العناية بالبيت ـ وهو يكون أكثر فاعلية عندما يساعده رجل آخر ، وإنما المقصود هنا أن تُعينَ الرجل وتساعده فى عملية التناسل ، ويمكن أن يتضح ذلك إذا ما لاحظنا أنواع التناسل فى مختلف الكائنات الحية : فبعض هذه الكائنات

لا تملك فى ذاتها القدرة على التناسل ؛ ولهذا فهى تتناسل عن طريق فاعل آخر ، فى حين أن هناك كائنات حية أخرى لديها القدرة التناسلية الإيجابية والسلبية معاً على نحو ما نرى فى النباتات التى تتناسل من البذور[1] .

وتعود القدرة الإيجابية فى عملية التناسل إلى جنس الذكر ، بينما تنتمى القدرة السلبية إلى جنس الأنثى ، وفى النبات تتحد القدرة الإيجابية والسلبية على نحو ضرورى . أما فى الحيوانات فلا يكون الذكر متحداً أو متصلاً بالأنثى إلا فى حالة الجماع فقط ، ومن ثم جاز لنا أن نقول إن الذكر والأنثى فى حالة الجماع يكونان شيئاً واحداً ، وهما فى النباتات يتحدان بصفة مستمرة ، حتى وإن كان أحدهما فى بعض الحالات يرجح الآخر ويتفوق عليه ، بينما تكون الغلبة للثانى فى الحالات الأخرى . أما الإنسان فهو معد ليقوم فى الحياة بدور أكثر نبلاً ، أعنى أن يقوم بالوظيفة العقلية ؛ ولهذا كان هناك مبرر قوى لتمايز هاتين القدرتين فى الإنسان ؛ فكان لابد أن تخلق منفصلة عن الرجل ، ومع ذلك فلابد من اتحادهما جسدياً من أجل التناسل[2] . ولهذا جاء فى الكتاب المقدس بعد خلق المرأة مباشرة « ... ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ، ويلتصق بامرأته ، ويكونان جسداً واحداً »(تكوين ٢ : ٢٤) .

وبعد هذه المقدمة الطويلة عن ضرورة خلق المرأة من أجل التناسل . يتولى الرد على الاعتراضات السابقة على النحو التالى :

---

(١) Mary Briody : Op. P. 277 .

(٢) هنا يتابع الأكوينى ما يقوله أرسطو فى كتاب «توالد الحيوان » من الأنواع المختلفة للتوالد عند النبات والحيوان الإنسان ، قارن كتابنا « أرسطو .. والمرأة » العدد الثانى من سلسلة « الفيلسوف ... والمرأة » الناشر مكتبة مدبولى بالقاهرة ص٥٠ وما بعدها .

الرد على الاعتراض الأول :

فيما يتعلق بالطبيعة الفردية للمرأة ، فإننا نجد أنها موجود ناقص ، ومُشوَّه ، ومعيب ؛ ذلك لأن القوة الإيجابية عند الذكر (وهى الأساس فى عملية التناسل) تتجه لإنتاج مولود يشبه الذكر تماماً . فإن جاءت المولودة أنثى دلَّ ذلك على نقص فى القدرة الإيجابية ، وقد يكون نتيجة بعض الانحرافات المادية (على نحو ما يحدث فى دماء الطمث) وربما كان نتيجة لبعض المؤثرات الخارجية ، ومنها رياح الجنوب التى تأتى محملة بالرطوبة كما لاحظ الفيلسوف(١) .

لكن فيما يتعلق بالطبيعة البشرية الكلية ، فإننا نجد أن المرأة ليست موجوداً ناقصاً أو مشوهاً أو معيباً ، بل هى تدخل ضمن مقاصد الطبيعة التى توجهها نحو عملية التناسل ، وتعتمد هذه المقاصد الكلية للطبيعة على الله الذى هو الخالق الكلى للطبيعة . ومن هنا فإن الله عندما خلق الكائنات لم يخلق الذكر فحسب ، بل الأنثى أيضاً(٢) .

علينا أن نلاحظ هنا أن الأكوينى يحاول التوفيق بين فكرة أرسطو التى تجعل من المرأة موجوداً شائهاً وناقصاً ومعيباً ؛ لأن الطبيعة لا تخلق الإناث إلا إذا انحرفت ؛ إذ تميل إلى خلق الذكر الذى يشبه الأب ، وبين الفكرة الدينية التى ترى أن الله الخير لا يخلق إلا ما هو خير فإذا كانت المرأة خلقاً لله ، فكيف تكون موجوداً ناقصاً ومعيباً ؟ وكيف يمكن أن نقول إنه مع بداية خلق الكائنات كان هناك موجود ناقص ومعيب ؟

والحل الذى يقدمه الأكوينى هو أن فكرة المعلم الأول تصدق على الإناث فُرادى : فهذه المرأة المعينة وتلك موجودات ناقصة ؛ لأنها جاءت عن طريق عملية التناسل التى هى

---

(١) Mary Briody : Op. Cit. P. 277 .

(٢) مرة أخرى الفيلسوف هو أرسطو ، انظر كتابه «توالد الحيوان» :
Aristotla : De Generation Animalium, IV, 2 (766 B- 33) .

جمع بين الحيوانات المنوية للذكر وطمث الأنثى ، وقد تكون نتيجة لضعف قوة التلقيح عند الأب ، أو لعامل آخر مثل رياح جنوبية رطبة ، فهى انحراف عن المجرى الصحيح الذى تسير فيه الطبيعة التى ترغب على الدوام فى أن تخرج ذكراً ؛ فالمرأة من هذه الزاوية ذكر أخطأه التوفيق ، ومن ثم كانت مخلوقاً عارضاً عاجزاً .

لكن المرأة من زاوية أخرى هى خلق مباشر لله ، ومن ثم فهى هنا ليست موجوداً فردياً ناقصاً أو عاجزاً ؛ لأننا فى هذه الحالة لا نتحدث عن أفراد النساء ، بل عن الطبيعة الكلية التى خلقها الله ؛ ووجهها نحو الحفاظ على النوع البشرى . ولما كان لابد من المحافظة على النوع فإن الله خلق الأنثى إلى جانب الذكر ؛ فالطبيعة الكلية للمرأة أو فكرة المرأة بصفة عامة لا هى معيبة ولا هى ناقصة . ولقد سبق أن رأيناه يقول : إننا نحتاج إلى المرأة لما تقوم به من دور فريد لا نظير له فى المحافظة على النوع البشرى .

الرد على الاعتراض الثانى :

يحمل خضوع المرأة للرجل معنى مزدوجاً : الأول : خضوع العبودية ، وبفضله يستخدم الأعلى من هو أدنى ويستغله لمصلحته ، ولقد بدأ مثل هذا النوع من الخضوع بعد الخطيئة . أما الثانى : فهناك نوع من الخضوع يسمى بالخضوع المدنى أو الاقتصادى يستخدم فيه الأعلى من هو أدنى لمصلحته الخاصة وللخير ، ومثل هذا النوع الثانى من الخضوع موجود حتى قبل الخطيئة ، فلابد أن يكون النظام الصالح أو الجيد فى الأسرة البشرية ناقصاً ومعيباً مالم يكن فيها من يحكم ويكون أكثر حكمة من بقية الأعضاء . ومن هنا كانت المرأة بطبيعتها خاضعة للرجل ، ويرجع ذلك الخضوع إلى أن ملكة العقل عند الرجل هى التى تسود ، أما المرأة فتتغلب عليها العاطفة والانفعال ، وهذا أمر طبيعى ؛ لأن الرجل تسوده قوة التمييز وفراسة العقل . وليس التفاوت بين الناس مستبعداً حتى فى حالة البراءة .

الرد على الاعتراض الثالث :

لو أن الله منع فرص الخطيئة ، وحرم العالم من جميع الفرص والمناسبات التى تجعل الإنسان يقع فى الخطيئة ـ لكان نظام الكون ناقصاً غير كامل ، ولما استطعنا أن نقول إن الشر الفردى كان يمكن تجنبه لصالح الخير العام ، لاسيما وأن الله قادر على كل شئ ، حتى أنه قادر على توجيه الشر لغاية خيِّرة[١] .

(٥) خلق المرأة من الرجل :

أما المشكلة الثانية التى يدرسها الأكوينى فتتمثل فى هذا السؤال : أكان ينبغى خلق المرأة من الرجل ؟ وهنا يثير كذلك ثلاثة اعتراضات ويقوم بالرد عليها على النحو التالى :

الاعتراض الأول :

يبدو أن المرأة كان ينبغى ألا تخلق من الرجل ؛ لأن الإنسان والحيوان ينتميان معاً إلى جنس واحد . ولما كانت الأنثى فى الحيوانات الأخرى لم تخلق من الذكر ، فكان يجب ألا يحدث ذلك أيضاً فى حالة الإنسان .

الاعتراض الثانى :

وفضلاً عن ذلك فإن جميع الكائنات التى من نوع واحد إنما تخلق من نفس المادة . ولما كان الذكر والأنثى فى الإنسان ينتميان إلى نوع واحد ، فلابد أن يكون خلقهما من نفس المادة . ولما كان الرجل قد خلق من صلصال أو طين لازب فكان ينبغى أن تخلق المرأة من نفس هذا الطين ، لا من الرجل[٢] .

Mary Briody : Philosophy of woman, p. 278 . (١)

Mary Briody : Ibid, P. 278 . (٢)

الاعتراض الثالث :

ومن ناحية ثالثة فقد خلقت المرأة لتكون نظيراً مُعِيْناً للرجل فى عملية التناسل . غير أن العلاقة الوثيقة الحميمة لا تجعل الشخص مُؤَهَّلاً للقيام بهذا الدور ؛ ولهذا السبب كان تحريم الزواج من ذوى القربى على نحو ما جاء فى الكتاب المقدس : « لا يقترب إنسان إلى قريب جسده ليكشف العورة ، أنا الرب ، عورة أبيك ، وعورة أمك لا تُكشف » اللاويين ١٨ : ٦ـ ٩) ولهذا لم يكن يجب أن تخلق المرأة من الرجل مع أن الكتاب المقدس «لقد خلق منه » « أى من الرجل » مُعِيْناً نظيراً له هو المرأة .

ويجيب الأكوينى إجابة عامة قبل أن يرد على كل اعتراض على حدة فيقول : «عندما خلقت الكائنات فى البدء كان من المناسب للمرأة أن تخلق من الرجل أكثر من أن يحدث ذلك بالنسبة للحيوانات الأخرى ، وذلك للأسباب الآتية :

أولاً : لكى تُعطى للرجل الأول كرامة معينة ، من حيث أن الله ـ بوصفه مبدأ الكون كله ـ قد خلق الرجل الأول على صورته ليكون مبدأ النوع البشرى كله . ومن هنا فقد كان بولس الرسول يقول : إن الله صنع الجنس البشرى من دم واحد (أعمال الرسل ١٧ ـ ٢٦) .

ثانياً : لقد أحب الرجل الأول المرأة حُباً شديداً ، والتصق بها كما جاء فى الكتاب المقدس « وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة ، وأحضرها إلى آدم فقال آدم : هذه الآن عظم من عظمى ولحم من لحمى ، هذه تدعى امرأة لأنها من امرئ أخذت . ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ، ويكونان جسداً واحداً » (تكوين ٢ : ٢٣ ـ ٢٤) ولقد كان ذلك بالغ الضرورة فى الجنس البشرى الذى يعيش فيه الذكر والأنثى معاً فى حياة مشتركة ، وليس الأمر كذلك مع الحيوانات الأخرى .

ثالثاً : كما قال الفيلسوف فإن الذكر البشرى والأنثى البشرية لايتحدان من أجل التناسل فقط ، كما هى الحال فى الحيوانات الأخرى ، وإنما يتحدان بغرض تكوين حياة أليفة يؤدى فيها الزوج والزوجة واجباتهما ، ويكون فيها الرجل رأس المرأة[1] . ولهذا السبب كان من المناسب للمرأة أن تخلق من الرجل ؛ لأنها فى هذه الحالة تخرج من مبدئها .

رابعاً : هناك سبب آخر يتعلق بالأسرار المقدسة (سر الزواج) وذلك يعنى أن الكنيسة تستمد أصلها من المسيح ، ومن هنا قال الرسول « أيها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب ؛ لأن الرجل هو رأس المرأة ، كما أن المسيح أيضاً هو رأس الكنيسة وهو مخلص الجسد ، ولكن كما تخضع الكنيسة للمسيح ، كذلك النساء لرجالهن فى كل شئ » .
(رسالة بولس الرسول إلى أهل أفْسُس ٥ : ٢٢ ـ ٢٤) .

وعلى هذا النحو يكون الأكوينى قد رد فى ثنايا هذه الإجابة العامة على الاعتراض الأول الذى يقول : إنه كان ينبغى ألا تخلق المرأة من الرجل فذلك لم يحدث فى الحيوانات الأخرى ، فالقياس هنا خاطئ ؛ لأننا فى حالة الأنثى البشرية نجد أن دورها الأساسى إنما يَكْمُنُ فى تكوين الأسرة المحافظة على النوع ، الأمر الذى يحتاج إلى ارتباط وثيق بينها وبين الرجل : وهل يمكن أن يكون هناك ارتباط أشد وثوقاً من أن تُخلق من الرجل ؟ !

أما رد الأكوينى على الاعتراض الثانى الخاص بالمادة الواحدة التى يخلق منها النوع ، فيتلخص فى أنه كانت المادة المعينة تنتج شيئاً معيناً ، فإن القوة الإلهية مادامت لامتناهية فإنها قادرة على خلق كائنات منوعة من أى مادة ، فهى ليست مقيدة بنمط معين من الخلق ، وهذا واضح فى خلق الإنسان : فقد خلق الله الرجل من طين الأرض فى الوقت الذى خلق فيه المرأة من ضلع الرجل .

---

(١) Aristotle : Ethics VIII, 17, (1162 A - 19) .

أما الاعتراض الثالث الذى يحرم الزواج من ذوى القربى ، فإنه مردود عليه بأن الألفة ، والمودة والقربى تنشأ من التناسل الطبيعى ؛ ولهذا تكون مانعاً من الزواج . لكن المرأة ـ فى عملية الخلق الأولى ـ لم تنتج من الرجل عن طريق التناسل الطبيعى ، بل بواسطة القوة الإلهية وحدها ؛ ولهذا السبب فإننا لا نقول عن حواء إنها ابنة آدم . وهكذا يكون قد تمت البرهنة على ضعف هذا الاعتراض(١) .

(٦) المرأة .... وضلع الرجل :

أما المشكلة الثالثة التى يدرسها الأكوينى فهى : إذا سلمنا بأنه كان من المناسب أن تخلق المرأة من الرجل ، فهل كان من المناسب أيضاً أن تخلق من ضلعه ؟ يثير الأكوينى كالمعتاد ثلاثة اعتراضات ثم يقوم بالرد عليها على النحو التالى :

الاعتراض الأول :

يصعب أن نصدق أن المرأة خُلقت من ضلع الرجل لأن ضلع الرجل ؛ أصغر كثيراً فى حجمه من جسد المرأة . صحيح أنه يمكن أن ينتج أكبر الأشياء من أصغرها ، لكن بإحدى طريقتين : الأولى : عن طريق الإضافة ، أعنى أن نضيف مواد أخرى إلى هذا الشئ الصغير ، لكن إذا قلنا إنه قد أضيفت أشياء أخرى فى حالة خلق المرأة فإنه لا يمكن أن يقال إنها فى هذه الحالة قد خلقت من ضلع الرجل وحده . والثانية : عن طريق الخلخلة(٢) ؛ لأن الجسد لا يمكن زيادة كتلته ـ كما قال أوغسطين ـ إلا عن طريق تخلخل الهواء ، لكن الملاحظ أن جسد المرأة ليس فيه من تخلخل الهواء أكثر مما هو موجود فى جسد الرجل ، أو على الأقل ليس بنسبة الضلع إلى جسم حواء ، من ثم فإن حواء لم تخلق من ضلع آدم .

---

(١) Briody : Ibid, P. 279 .

(٢) Rarefacion أى تخلخل الهواء ، بمعنى أن تكون هناك مسافة بين الأجزاء بعضها وبعض ؛ فيزيد بذلك حجم الجسم .

الاعتراض الثانى :

وفضلاً عن ذلك فلم يكن هناك فى بداية الخلق شئ زائد عن الحاجة ، ومن ثم فإن ضلع آدم يؤثر فى سلامة جسمه وصحته ، وعلى ذلك فلو أزيل هذا الضلع لكان جسد آدم ناقصاً غير كامل ، وهو أمر غير معقول ؛ لأنه لا يتناسب مع الغرض الذى خلقه الله من أجله .

الاعتراض الثالث :

ومن ناحية ثالثة : لا يمكن إزالة ضلع من الرجل بغير ألم ، لكن لم يكن ثمة ألم قبل الخطيئة ، ومن ثم فليس من الصواب أن يؤخذ ضلع من الرجل لكى تُخلق منه حواء ، لكن ما حدث هو العكس تماماً ، فقد جاء فى الكتاب المقدس « وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة » (تكوين ٢ : ٢٢) .

ويتولى الأكوينى الرد على هذه الاعتراضات فيقول ـ بصفة عامة ـ لقد كان من المناسب أن تخلق المرأة من ضلع الرجل وذلك للأسباب الآتية :

أولاً : للتعبير عن الوحدة الاجتماعية بين الرجل والمرأة ، فلا ينبغى أن يكون للمرأة سلطان على الرجل ؛ وهى لهذا لم تخلق من رأسه . وليس من الصواب من ناحية أخرى أن تتعرض المرأة لاحتقار الرجل باعتبارها جارية ؛ وهى لهذا السبب لم تخلق من قدمه ، وهكذا كان أنسب مكان هو : ضلع الرجل ؟

ثانياً : لسبب يتعلق بالأسرار المقدسة ؛ ذلك لأنه من جنب المسيح الذى نام على الصليب، نبعت الأسرار المقدسة : أعنى الدم والماء اللذان أقيمت عليهما الكنيسة[١] .

ثم يقوم الأكوينى بالرد على الاعتراضات فرادى :

---

(١) Mary Briody : phiolophy of woan, p. 280 - 281 .

الرد على الاعتراض الأول :

من الصواب أن نقول إن المرأة خلقت من ضلع آدم دون حاجة إلى إضافة مادة زائدة على أى نحو ، وهناك مثال جيد على ذلك : عندما استطاع المسيح أن يستخرج من خمسة أرغفة أعداداً هائلة من الخبز أطعمت آلافاً من الناس[١] ؛ لأن مثل هذه الزيادة إما أن تكون عن طريق تغيير جوهر المادة نفسها ، أو تغيير أبعادها . وإذا كان جوهر المادة غير قابل للتغير فإن الكثرة، والتعدد ، والحجم هى مسائل خارجية بعيدة عن جوهر المادة ذاتها ، ومع ذلك فإننا نستطيع أن نقول إنه يمكن إضافة عناصر إلى المادة عن طريق الخلق . ومن هنا قال أوغسطين إن المسيح أشبع خمسة آلاف رجل بخمسة أرغفة من الخبز ، بنفس الطريقة التى تنتج بها بذور قليلة محصول كبير من القمح ، بنفس الطريقة التى نقول بها إن الجموع تغذت من خمسة أرغفة نقول أيضاً إن المرأة خلقت من ضلع الرجل ، وربما كانت هناك مواد أضيفت إلى ما هو موجود بالفعل فى الحالتين ، أعنى : الخبز ، والضلع .

الرد على الاعتراض الثانى :

يرتبط الضلع بسلامة جسم آدم وصحته ، لا بوصفه فرداً بل مبدأ للنوع البشرى ، مثلما يرتبط الحيوان المنوى بسلامة الفاعل وتطلعه لعملية اللذة الطبيعية ؛ ولهذا كان من الصواب أن نقول إنه بواسطة القدرة الإلهية خرج جسد المرأة من ضلع الرجل . وهذا هو ردى أيضاً على الاعتراض الثالث[٢] .

---

(١) تروى بعض الأناجيل أنها خمسة أرغفة ويقول مرقس فى إنجيله إنها كانت سبعة : «فسألهم كم عندكم من الخبز ؟ فقالوا سبعة . فأمر الجمع أن يتكئوا على الأرض وأخذ السبع خبزات وشكر ، وكسَّر، وأعطى تلاميذه ليقدموا إلى الجميع ، فأكلوا وشبعوا ، ثم رفعوا فضلات الكسر سبع سلال . وكان الآكلون نحو أربعة آلاف ... » (إنجيل مرقس ٨ : ٥ ـ ٩) .

(٢) M. Briody : Ibid .

(٧) المرأة .. والخلق المباشر :

خلقت المرأة من الرجل ومن مكان محدد فى جسمه هو ضلعه ، فهل تم هذا الخلق على نحو مباشر ؟!

يورد الأكوينى هنا أيضاً ثلاثة اعتراضات ويقوم بالرد عليها :

الاعتراض الأول :

يبدو أن الله لم يخلق المرأة على نحو مباشر ؛ لأنه ليس ثمة فرد خلقه الله خلقاً مباشراً من فرد آخر يشبهه فى النوع . ومن ثم فإن الله لم يخلق المرأة خلقاً مباشراً .

الاعتراض الثانى :

من ناحية أخرى فإن أوغسطين يقول إن الأشياء المادية يحكمها الله من خلال الملائكة . ولما كان جسد المرأة مادة فقد تمّ خلقه تحت رعاية الملائكة ، لكنه لم يخلق المرأة خلقاً مباشراً.

الاعتراض الثالث :

ومن ناحية ثالثة فإن الأشياء التى وجدت فى عملية الخلق وجوداً يسبق مبادئها السببية، فإن إنتاجها إنما يكون عن طريق بعض المخلوقات وليس عن طريق الله مباشرة . ولما كان جسد المرأة قد خلق من مبادئه السببية بين أول المخلوقات ـ كما قال أوغسطين ـ فإنه لم يكن خلقاً مباشراً لله .

ويتولى الأكوينى الرد على هذه الاعتراضات إجمالاً فيقول : إن التناسل الطبيعى لكل نوع إنما يكون من مادة معينة . والمادة التى ينسل منها الإنسان على نحو طبيعى هى الحيوانات المنوية للذكر مع الأنثى . وهكذا نجد أن الفرد فى النوع البشرى لا يمكن أن ينشأ على نحو طبيعى من أية مادة أخرى ، غير أن الله وحده الذى تدين له الطبيعة بوجودها قادر

على خلق المرأة من ضلع الرجل على نحو مباشر ؛ فهو القادر على الخروج عن المجرى المألوف للطبيعة . ومن ثم فهو وحده الذى يستطيع خلق الرجل من طين لازب ، وخلق المرأة من ضلع الرجل على نحوٍ مباشر .

الرد على الاعتراض الأول :

الواقع أن هذا الاعتراض لا يكون جيداً إلا إذا كان الحديث عن نسل الفرد بواسطة التوالد الطبيعى ممن يشبهه فى النوع ، أما خلق حواء فهو فريد لا قياس عليه ، وبالتالى ليس ثمة ما يمنع من خلقها خلقاً مباشراً .

الرد على الاعتراض الثانى :

يقول أوغسطين إننا لا نعرف ما إذا كان الله قد استخدم الملائكة فى خلق المرأة أم لا ، لكن يكاد يكون من المؤكد أنه كما أن الملائكة لم تشترك فى خلق الرجل من طين الأرض، فإنها لم تشترك كذلك فى خلق المرأة من ضلع الرجل .

الرد على الاعتراض الثالث :

كما يقول أوغسطين : لم يكن الخلق الأول للكائنات يتطلب بالضرورة أن تخلق المرأة على هذا النحو . ومن هنا فقط كان من الممكن بالنسبة لها أن تخلق على هذا النحو ؛ ولذلك فقد كان لجسد المرأة وجود سابق طبقاً لهذه المبادئ السببية فى أول أعمال الخلق ، لا طبقاً للإمكان الإيجابى ، بل للإمكان السلبى التى تنظمه القوة الإيجابية لله .

(٨) المجتمع ... والأسرة :

الكون عند توما الأكوينى ـ كما كان عند أرسطو ـ نظام مرتب يمتد فى درجات تبدأ من الله أسمى الموجودات ، وتنتهى هابطة عند أدنى المخلوقات . ويعمل كل كائن منها

بدافع داخلى مستمد من طبيعته ، مجاهداً فى سبيل الخير أو الكمال الملائم لطبقته من المخلوقات ويستمر مجاهداً حتى يأخذ مكانه فى هذا النظام الهيراركى التصاعدى حسب درجة الكمال التى وصل إليها ويسيطر الأعلى فى جميع الأحوال على الأدنى ويفيد منه ، ولكل كائن حى قيمته مهما كانت تفاهته . وفى مثل هذا النظام يكون للطبيعة البشرية مركز فريد . بين المخلوقات كافة ؛ لا لأن الإنسان يملك جسداً فحسب ، بل لأن له عقلاً وروحاً كان بفضلهما أقرب المخلوقات إلى الله . وهو الوحيد الذى يتكون من بدن وروح فى وقت واحد، وترتكز على هذه الحقيقة الأساسية جميع الأنظمة والقوانين التى تحكم حياته وتوجهها .

وللمجتمع ـ كالطبيعة ـ أهداف وغايات تقضى على الأدنى بأن يخدم الأعلى ، وأن يطيعه ، فى حين أن على الأعلى أن يسود الأدنى . وعلينا أن نلاحظ أن الأكوينى يساير أرسطو عندما يستعير مصطلحات السياسة ليطبقها على الكون ، أو يأخذ من تسلسل مراتب الموجودات (أعنى هيراركية الكون) ـ مبدأ يطبقه على الدولة بحيث لا نعرف على وجه الدقة أيهما يسبق الآخر ، مع أن فكرة التسلسل التصاعدى هى فى الواقع فكرة ميتافيزيقية[1] .

وقد اقتدى الأكوينى أيضاً بأرسطو فوصف المجتمع بأنه عبارة عن تبادل خدمات ومنافع بُغية الوصول إلى حياة طيبة تسهم فى بنائها مهن وحرف كثيرة ؛ فالزارع والصانع يمدان هذا المجتمع بالاحتياجات المادية ، والقسيس يسهم بالصلوات وإقامة الشعائر ، كما تسهم كل طائفة بالعمل الذى تزاوله وتجيده ويقضى الخير العام أن يكون لهذا النظام هيئة حاكمة

---

(١) قارن كتابنا « الطاغية : دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسى » ص١٣١ (العدد ١٨٣ من سلسلة عالم المعرفة) .

تُسَيِّر شؤونه كما تسير الروح الجسد[1] .

أما الأسرة فقد رأى الأكوينى أنها نموذج طبيعى معقول للمجتمع الصغير هدفها الإنجاب وتربية الأطفال والخير المتبادل بين الزوج والزوجة ، فنظرته إلى الأسرة توجهها أساساً وظيفتان جوهريتان هما : الإنجاب ، وتربية الطفل . ولهذا ينبغى أن يكون الزواج واحدياً ، فلا يكون ثمة سوى زوج واحد وزوجة واحدة ؛ حتى يتمكن الاثنان من الإشراف على نمو الأطفال ، وتعليمهم ، وتربيتهم ، وأن يكون رائد التعامل بينهما الأمانة ، وتعاطف كل منهما مع الآخر . وهو فى هذا كله يتأثر تأثراً قوياً بالحجج التى يسوقها أرسطو عن الزواج الواحدى فى فلسفته السياسية [2] .

أما بالنسبة لوضع المرأة فى الأسرة فقد كان الأكوينى يؤمن ببساطة شديدة بدونية المرأة، فهى موجود أدنى من الرجل ، ونحن نحتاج إليها للمحافظة على النوع ، ودورها الفريد فى الأسرة إنما يوجد فى الحمل ؛ ولهذا فينبغى علينا أن نحافظ عليها ؛ لأن إنجاب الأبناء هى المهمة الأولى للأسرة ؛ ولهذا فإن الزواج لا يصبح صحيحاً حتى يتم اتصال الزوجين بالمعاشرة الجنسية بقصد إنجاب الأطفال ؛ ولهذا فإن منع الحمل يعد محرماً . ويرى القديس توما أنه جريمة لا تزيد عنها شناعة إلا جريمة القتل العمد .

ويتابع القديس توما أرسطو فى القول بأن الأساس فى عملية تشكيل الجنين هو منىّ الرجل وحده ؛ فهو العامل المؤثر الفعال فى اللقاح ، ولا يتعدى دور المرأة ضم الجنين فى رحمها ، وإمداده بالطعام ، وبالمواد المغذية للجسم . ولما كان الذكر هو سبب تكوين

---

(١) جورج سباين « تطور الفكر السياسى » ترجمة حسن جلال العروسى ، ومراجعة فتح الله الخطيب ، دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثانية سبتمبر ١٩٦٩ ـ الكتاب الثانى ص٣٥١ ـ ٣٥٢ .

(٢) Encyclopedia of philosophy, Vol. 8, P. 113 Ed, by Edwards ,Macmillan 1967 .

الجنين ، فإن أصل الأجنة كلها هو الذكورة ، وإنما يتحول بعضها إلى إناث إذا ما علت المواد السفلية الأنثوية ، وطغت على المواد العلوية التى يقذفها الذكر . وهذا يعنى أن المرأة ذكر ناقص التكوين . ولقد أفاض الأكوينى فى شرح هذه الفكرة ، واستشهد على صواب رأيه بقرائن عديدة ، منها : أن جسد المرأة يتغير ويميل إلى النقصان بعد الجماع ؛ وذلك لفقدانها بكارتها، كما أن مؤدى الجماع هو الحمل والولادة ، وما يصاحبهما من مشاق وتعب .

الوظيفة الأساسية للمرأة هى الإنجاب ، وهذا هو السر فى الخلق المنفصل للمرأة الذى يرمز إلى التوالد ، ودورها فى عملية الإنجاب هو الذى يجعلها نظيراً معيناً للرجل . أما فى مجالات الحياة الأخرى ـ غير التوالد ـ يمكن للرجل أن يكون أشد فعالية بمساعدة رجل آخر .

وعلى الرغم من أن الأكوينى يصر على أن المرأة خلقت على صورة الله احتراماً لمبدأ العقل ، فإنه يضعها خارج النشاط العقلى للإنسان[١] . ورغم أنه يصر أيضاً على أن ثانوية المرأة فى سفر التكوين ينبغى ألا تفهم على أنها تعنى أن للمرأة قدراً أدنى من العقلانية ، فإن هناك إشارات كثيرة فى الخلاصة اللاهوتية . توضح أن ذلك ليس بسبب اعتقاده أن النساء متساويات ـ من الناحية العقلية ـ بالرجال . وعلى الرغم من أنه يذهب إلى أن الوجود الأدنى أو الثانوى للمرأة لا يعنى ـ كما ذهب أحد معارضيه ـ أن وجودها ذاته ينسب إلى النتائج الفاسدة للسقوط أكثر مما ينسب إلى الوضع الأصلى للخلق ، فإنه يذهب ـ مع أوغسطين ـ إلى القول بوجود طبيعة دنيا للمرأة ، وأيضاً بثانويتها ، ويرى أن السبب

---

(١) ولهذا السبب ذهب كثير من الباحثين إلى القول بأن هناك تناقضاً أساسياً فى فلسفته فيما يتعلق بهذا الموضوع ؛ إذ يتضح عدم اتساق تفكيره عند هذه النقطة بشكل ظاهر . انظر مثلاً :
Dictionary of the History of Ideas, P.P. 525.

هو سيادة العقل عند الرجل ، ومن ثم فلابد أن يكون النظام الصالح الجيد فى الأسرة البشرية ناقصاً ، ما لم يكن فيها من يحكم ويكون أكثر حكمة من بقية الأعضاء[١] .

والقانون الصارم الذى يسرى على الطبيعة والمجتمع : يسرى كذلك على الأسـرة ، وهو : أن الأدنى يكون فى خدمة الأعلى . وإذا كانت المرأة بطبيعتها أدنى من الرجل ، فإنه من الطبيعى أيضاً أن يحكمها الرجل ، وهكذا يكون الرجل هو البداية ، والمرأة هى النهاية تماماً مثلما أن الله هو البداية والنهاية لجميع المخلوقات ؛ وذلك لأن الرجل لم يخلق من أجل المرأة ، لكن المرأة خلقت من أجل الرجل[٢] .

وفى قسم أخير من الخلاصة اللاهوتية يقتبس الأكوينى ـ باستحسان ـ تأكيد أرسطو على أن النساء لا يمكن وصفهن بأنهن عفيفات ؛ لأنهن « يتأرجحن » لعدم استقرار العقل وسهولة الانقياد ؛ فهن يتبعن العواطف والانفعالات الطاغية . وهو يجمع النساء مع الأطفال والمرضى والبُلْه ؛ ليقدم دليلاً مؤكداً على نقص العقل عندهن ، وفضلاً عن ذلك فإن الأكوينى يقبل نظرية أرسطو فى التوالد ، ولا يجعل للمرأة سوى دور سلبى تقبلى فى تقديم المادة التى يتكون منها الجنين ، فى حين يقوم الذكر بالدور الإيجابى بما يقدمه من بذور على هيئة الحيوانات المنوية . ومن ناحية أخرى فإن التوالد يتجه إلى إنتاج الذكور ، فإن كانت المولودة أنثى دلّ ذلك على نقصٍ ما . يقول الأكوينى مردداً نظرية أرسطو :

يتجه التوالد إلى التشابه التام بجنس الذكر . ومن هنا فإن مولد المرأة يُعبرّ عن نقص فى القوة الإيجابية ، أو نقص فى المادة ، أو ربما يأتى من بعض العوامل الخارجية : كرياح

---

(١) Quoted by, Genevieve Liody : " The Man of Reason : Male and Female in western philosophy " P. 34 .

(٢) Ibid, P. 35 .

الجنوب الرطبة (كما لاحظ الفيلسوف)[1] . والذكر كما قال أرسطو هو الصورة ، والمرأة هى الهيولى ، ومن ثم فإن انطباع الصورة انطباعاً قوياً على المادة يعطينا الذكور . فإن كان هناك نقص فى المادة أو ضعف فى الصورة أُنْتِجَت الإناث . ومرة أخرى أيد الأكوينى فكرته عن نقص الأنثى وعجزها بالإشارة إلى أن كل امرأة هى من حيث طبيعتها البيولوجية مخلوق مشوّه ومعيب وناقص ومن ناحية أخرى فإن الأكوينى يعتقد أن المرأة ليست لديها القدرة على استخدام اللغة التى هى وسيلة هامة يستطيع الإنسان بواسطتها أن يعبر للآخرين عن تصوراته وأفكاره . والوضع الاجتماعى للمرأة كان يفرض عليها الكثير من ألوان الصمت فرضتها عليها قوة أعلى لا تعترف اعترافاً ثابتاً بالمشاركة الاجتماعية ؛ ولهذا كانت المرأة عاجزة عن استخدام اللغة والتعبير الكامل عن الأفكار والتصورات ونقلها إلى الآخرين ، كما أنها محرومة من المفردات اللغوية التى تنقل خبرتها الاجتماعية ـ بما فى ذلك مشاعرها ـ إلى غيرها ؛ ولهذا فإن المرأة عند الأكوينى تفتقر إلى الوضوح الذى يراه أساسياً لطبيعة الحديث ذاته ؛ لهذا السبب فإنها لا تستطيع المشاركة فى الحياة العامة ، وعليها أن تمارس نشاطها داخل المجال الخاص ، أى الأسرة ولهذا المجال الخاص قداسته ، فهى هنا تعبر عن فضائل وقيم مسيحية كثيرة وفى هذا المجال الخاص أيضاً (أى الأسرة) ؛ تنتمى الزوجة إلى زوجها ، وتحتفظ مع ذلك بشخصية خاصة ؛ فهى فرد منفصل عن زوجها أكثر مما ينفصل العبد عن سيده ، أو الابن عن والده . لأنها تشارك فى لون من الحياة الاجتماعية هى حياة الزوجية التى تسودها العدالة المنزلية أكثر من العدالة المدنية . وقد كان الأكوينى على حق فى قوله : إن الزوج والزوجة يرتبطان برابطة مباشرة داخل مجال خاص ، لكن هناك فرقاً : فليس هناك سوى وضع خاص متاح أمام الزوجة ، فى حين أن الزوج يشارك فى الأسرة ، كما أنه يشارك فى المجال العام بوصفه مواطناً ، وهو فى هذا المجال يتمتع بالعدالة المدنية ويشارك فى أبعادها العامة[2] .

---

(١) G. Liody : Ibid, P. 36 - 37 .

(٢) J . B. Elshtian : " public Man, private woman" Martin Robertson, Oxford, P. 78

الخــاتمة

الرحلة الطويلة التى قطعناها فى هذا الكتاب تؤكد ما سبق أن ذكرناه مراراً من أن العادات والتقاليد كثيراً ما تطغى على الأفكار الدينية الجديدة وتطمسها تماماً ، بل وتحل محلها لتكتسب هى صفة القداسة الدينية وهذا واضح فيما جاءت به المسيحية من أفكار جديدة إذ لا شك أن الأناجيل تضمنت نفحات من المحبة ، والإحسان والإخاء ، والمساواة ـ فيما تقول سيمون دى بوقوار ـ امتدت إلى المرأة ، كما امتدت إلى المجذوم ، والمساكين ، والعبيد ومع ذلك لم تسهم الأيديولوجيا المسيحية فى تحرير المرأة ولم تعمل على إنصافها أو إنقاذها من الوضع المتردى الذى كانت ترزح تحته ولم تحاول قط أن ترفع عنها نير العبودية الذى فرضه عليها الرجل الوثنى أو اليهودى من قبل على الرغم من أن النساء إندفعن للدخول فى هذه الديانة الجديدة ، بسبب النفحات السالفة الذكر ، وصرن شهيدات جنباً إلى جنب مع الرجال ، ومع ذلك فإنهن لم يستطعن المساهمة ، ولا المشاركة فى شؤن العبادة إلا بصفة ثانوية فلم تكن الكنيسة تصرح للشمامسة من النساء إلا بالأعمال البسيطة كرعاية مريض ، أو مساعدة فقير ، ولأن الزواج اعتُبر نظاماً يتطلب الإخلاص من الزوجين فإن المرأة كان عليها كما رأينا أن تكون خاضعة خضوعاً تاماً لزوجها[1] .

ولقد أكد القديس بولس هذا الخضوع الذى استمده من التراث اليهودى من ناحية ومن التراث اليونانى والرومانى من ناحية أخرى ، أكثر مما استمده من أفكار المسيح ومواقفه وأقواله . ثم سار اللاهوتوين وآباء الكنيسة على نفس الدرب وراحوا يتلمسون أسانيد من العهد القديم تارة ، ومن مذاهب فلاسفة اليونان تارة أخرى ، حيث وجدوا زاداً جيداً لتدعيم

(١) Sione de Beavoir : The Second Sex p. 129 .

أفكارهم ، ثم لخصوا ذلك كله فى مركب يشمل مجموعة الخصائص الأساسية للمرأة أو نموذجاً للأنثى هى صفات : « التقلب وسيطرة الزواج ، والأهواء ، والسطحية ، والضعف والتهور ، والثرثرة ، الانفعال الطاغى ، مع بطء الفهم وعدم استقرار الذهن ونقص فى رجاحة العقل[1] .

وهكذا كانت العادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية أقوى من الأفكار الجديدة وهى عادات وتقاليد ترتد فى نهاية تحليلها إلى موقف الرجل من الملكية الخاصة ـ مادية كانت أو معنوية[2] والتى يحرص الأب أن يرثها أبناء من صلبه . ثم جاء الفيلسوف المسيحى ليقنن هذا الوضع المتدنى للمرأة أو يضفى عليه مسحة دينية وما الذى فعله القديس بولس عندما قال « يا أيها النساء اخضعن لرجالكن ، كما للرب[3] » سوى أنه عمد الوضع الاجتماعى المتردى للنساء فى مجتمعه وجعله فريضة يأمر بها الدين[4] فليس المطلوب سوى إضفاء صبغة دينية على ما هو قائم بالفعل ، وما أسهل العثور على هذه الأصباغ ولا سيما إذا كانت هناك خطيئة أولى ، وغواية ، وجسد ، وشهوات ، وتجارب جنسية مريرة مع عشاق

---

(١) Dictionary of the History of Ideas, Vol. 4, p. 525 .

(٢) الملكية المادية هى الأموال والعقارات إلخ والملكية المعنوية هى امتيازات طبقة أو جماعة إلخ كما كانت الحال عند اليونان والرومان قديماً ، وطبقة البراهمة فى الهند أو اللوردات فى إنجلترا . إلخ مما يورثه الأب لأبنائه، يحرص ألا ترثها دماء « غريبة » .

(٣) رسالة بولس الرسل إلى أهل أفسس ٥ : ٢٢ .

(٤) من أعجب العجب أن الإمام الخمينى الذى كان يقود ثورة روحية عارمة ، وكان المسلمون ينتظرون منه تقديم صورة نقية ناصعة للإسلام بعد أن حملوه على رؤوسهم من باريس إلى طهران تكون هى صورة الإسلام فى القرن الحادى والعشرين ، نراه ينقل آراء رجل الشارع وأفكاره إلى القمة فيركز فى أحاديثه على الحجاب والنقاب . وغيرها من أمور فرضتها العادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية ، ولا علاقة لها بالإسلام ـ إذ تظل المرأة مسلمة محجبة كانت أو منقبة أو سافرة .

وغوانى أو إذا كانت هناك تجربة حب فاشلة أو إحباط هنا أو هناك والنتيجة أن يقول تورتليان : « أيتها المرأة أنتِ الباب المفضى إلى الشيطان وكأنها تمارس الخطيئة أو تستمتع بالجنس بمفردها وما أسهل أن يقال : إنها هى التى تغوى الرجل وتستدرجه إلى بوابة الرذيلة تماماً مثلما فعلت حواء حين أغوت آدم والسؤال المهم هو : إذا كانت حواء قد أغوت آدم وأوقعته فى الخطيئة ، كما تواصل غابته أبنائه من بعده إلى الآن ، ألا يدل ذلك على ضعفه وسذاجته وسهولة انقياده ؟ وأين ذهبت قوة الرجل وصلابته ، ورجاحة عقله واتزانه ، وقدرته على الحكم ، والتمييز بين الخير الشر وهى صفات لا تنسب عادة إلى المرأة ، ألا يمكن أن نجد فى هذا التفسير مبرراً لخضوع المرأة لسيطرة الشهوة والانفعال وهذا المبرر هو ضعفها لكننا لا نجد مثل هذا المبرر للرجل الذى يصفه بالقدرة على السيطرة على شهواته والتحكم فى انفعالاته ؟ ألا يعنى خضوعه السهل ، وانقياده المسلسل للغواية أنه يخضع بدوره لسيطرة شهواته وأهوائه وانفعالاته كالمرأة سواء بسواء ؟ وإذا قلنا ، من ناحية أخرى إن آدم ـ أو الرجل الأول ـ كان قبل الغواية موجوداً بريئاً وصالحاً ثم كانت حواء ذلك المخلوق الشرير، رسول الشيطان وسفير الرذيلة الذى أخرجه من حالة البراءة الأولى فهل يمكن أن ننسى أن ذلك المخلوق الشرير خلق من ضلع من أضلاعه ؟ أى أنها جزء لا يتجزأ من هذا الموجود الخير الصالح ، أو هى عظم من عظامى ، ولحم من لحمى ، هذه تدعى امرأة ، لأنها من امرئ أخذت (تكوين ٢ : ٢٣) كما قال آدم عندما عرضها عليها الرب الإله بعد أن بناها من ضلعه ؟ بل ألم يُشتق اسم المرأة نفسه من هذا الخلق لأنها من امرئ أخذت ؟

والغريب ، حقاً ، أنهم كثيراً ما وقعوا بلا وعى فى دور فاسد Vicious Cirele ! فهم يعتبرون دونية المرأة ونقصها .. إلخ واقعة قائمة تشهد عليها التجربة ويؤكدها نموذج الأنثى

كما هو موجود فى المجتمع البشرى ، مما يدل على أن هذه الدونية طبيعية غريزية ثابتة لا تتغير ، لا هى مكسبة ولا من صنع البشر وبذلك يذهبون إلى تأكيد صحة القصة التى رواها سفر التكوين ، غير أن هذه القصة نفسها تساعد من ناحية أخرى ، على تفسير الواقعة القائمة والتجربة المألوفة ، والفكرة الشائعة عن النساء من حيث إنهن موجودات بشرية ناقصة وأدنى من الرجال ـ فالتجربة تؤكد القصة ، والقصة تفسر التجربة وتدعمها ـ وهو دور بالغ الفساد[1] .

ومن العادات والتقاليد التى تحرص فى النهاية على صيانة الملكية الخاصة صاغ الفلاسفة والمفكرون واللاهوتيون ما أطلقوا عليه اسم الأنثى الخالدة أو النموذج الأزلى للأنثى وهو نموذج يجمع فى مركب واحد الأفكار العادية للمرأة ، والتى تجعلها فى مرتبة دنيا من مراتب الحياة الإنسانية وطبقاً لهذا النموذج لا تستطيع المرأة أن تنجز شيئاً ذا بال خارج مجال الأسرة من ثم فإذا ما حاولت أن تحقق ذاتها من خلال الإبداع الفنى ، أو النشاط العقلى ، أو المشاركة فى الحياة العامة سواء أكانت سياسية أم اجتماعية ، أم اقتصادية ... إلخ فسوف يكون سقوطها مدوياً وفشلها ذريعاً ؛ لأن مصيرها ـ الذى هو قدرها ولا محيص عنه قد ارتبط بالتناسل وشؤن المنزل !

والواقع أنه ليس ثمة ما يمكن أن نسميه بنموذج الأنثى وإن صح وكان هناك مثل هذا النموذج الأنثوى ، فمن الطبيعى أن يكون نتيجة للأبحاث التى يقوم بها علم الإنثروبولوجيا ، التى تقول واحدة من أشهر علمائه إن كثرة كثيرة من السمات إن لم يكن جميع السمات التى تنسبها عادة إلى الشخصية البشرية ، ونسميها أنثوية أو ذكورية لا ترتبط

(١) Dictionary of the History of Ideas Vol. 4 P. 523 .

بالجنس أدنى ارتباط ، بقدر ما يرتبط بالعادات ، والتقاليد ، والأعراف الاجتماعية مثلها مثل غطاء الرأس الذى يفرضه المجتمع على الجنس فى حقبة معينة من تطوره[١] .

وفضلاً عن ذلك فإن البحوث الحديثة فى علم النفس التجريبى تتجه لدحض الفكرة القائلة بأن مجموعة الصفات التى تنسب عادة إلى نموذج الأنثى الخالدة هى صفات طبيعة أو فطرية خاصة بالنساء جميعاً[٢] بل إن صفات الأنثى الخالدة هى صفات الشخصية المستقلة التى لابد أن تكون فريدة Unique وتعمل على تطوير نفسها وتنمية ملكاتها[٣] الغريب أن العبء البيولوجى المرتبط بالتناسل والأمومة ، وتربية الأطفال ، والقيود التى فرضتها العادات والتقاليد والأوضاع الثقافية المختلفة ، قد عطلت المرأة ، وأخرت إنجاز وضعها الإنسانى الكامل ، ثم كانت المكافأة التى قدمها لها المجتمع البشرى نظير تلك القيود المفروضة عليها فى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والتربوية ، والأخلاقية هى : السجن فى قلاع حصينة[٤] .

وما حدث فى المجتمع المسيحى فى العصور الوسطى هو نفسه ما يحدث فى المجتمع الإسلامى الآن فعلى الرغم من أن الإسلام العظيم أشاد برجاحة عقل المرأة ، وقدرتها بل ومهارتها فى إدارة دفة الحكم وشؤن الدولة فقد توارى ذلك كله تحت وطأة التقاليد القديمة والأعراف البالية ليظهر نموذج الأنثى الخالدة . استمع إلى القرآن الكريم وهو يروى قصة بُلقيس ملكة سبأ لتجد أنه يصورها على أنها امرأة حكيمة ، تتسم برجاحة العقل واتزان

---

(١) M. Mead : Sex and Temperiment in three prmitive Society penguin Books, P. 279 .

(٢) Dictionary of the History of Ideas Vol. 4 P. 573 .

(٣) Simone de Beavoil : " The Second Sex " P. 49 .

(٤) Dictionary of the History of Ideas Vol. 4 P. 573 .

الحكم ، فهى لا تنفرد باتخاذ القرارات ، كما يفعل الحاكم الشرقى عادة ، بل عندما تكون على وشك اتخاذ قرار خطير أو بحث مشكلة هامة تمس شأناً من شؤون المملكة ، أو يتوقف عليها مصير الدولة ـ تدعو عليه القوم فى مجتمعها للتشاور معهم ، ولبحث الموضوع ، وتبادل الرأى ، وتضع بذلك مبدأ سياسياً مهماً هو أنه لا يجوز للحاكم أن يتخذ قراراً خطيراً إلا بعد روية ، وتدبر ، وإمعان ، ومشاورات مكثفة مع المختصين فعندما ألقى إليها كتاب سليمان ، جمعت المستشارين ، وكبار رجالات الدولة ، لتعرض عليهم الكتاب قالت ﴿ **يا أيها الملأ افتونى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون** ﴾ (آية ٣٢ : سورة النمل) فماذا كان موقف الرجال الأفاضل الذين يرجحونها عقلاً ؟ الاندفاع ، والتهور ، وسرعة الانفعال ، والتلويح ، فى الحال ، باستخدام القوة « قالوا نحن أولو قوة ، وألوا بأس شديد ، والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين ، أما المرأة بلقيس فكانت أرجح منهم عقلاً ، وأبعد نظراً ، وأكثر روية ، وأشد فراسة ولهذا أشارت عليهم بالتريث فى استخدام القوة ، فالمسألة ليست بهذه البساطة لأن ﴿ **الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون**﴾ (آية ٣٤ : سورة النمل) وهكذا راحت المرأة التى تدير شؤن المملكة بعقل وحكمة ، تبحث عن وسيلة أخرى لمواجهة الموقف العصيب الذى تتعرض له الدولة وكانت هذه الوسيلة هى الالتجاء إلى الهدايا أولاً : ﴿ **إنى مرسلة إليهم بهدية ، فناظرة بما يرجع المرسلون** ﴾ ـ(آية ٣٥ : سورة النمل)[1] .

هذا ما يقوله القرآن الكريم فى آيات بينات لا تحتاج إلى شرح ، ولا تحتمل التأويل فإذا جاء بعد ذلك كله من يقول : إن جنس الإناث رقيق حساس عاطفى ، سريع التأثر ، ينقاد لعوامل الشعور أكثر مما يسترشد بنور العقل ، ولهذا فهو جنس أقل استعداداً للرئاسة من

---

(١) قارن ما سبق أن ذكرناه فى كتابنا أرسطو والمرأة مكتبة مدبولى بالقاهرة ص١١٤

جنس الرجال ، لأن الرئاسة تستوحى العقل لا الشعور[1] ، فإنه فى الواقع يردد نموذج الأنثى الخالدة الذى تشكل على مر العصور بفضل عادات وتقاليد وأعراف كانت فى معظمها جاهلية أو أنه يردد ربما دون أن يدرى أفكار فلاسفة اليونان الوثنيين وهو فى الحالتين لا علاقة له بالإسلام تماماً كما فعل اللاهوت المسيحى ، فى العصر الوسيط ، عندما تشرب مذهب أرسطو وتمثله ، وتزود منه بأدوات جديدة ، ومبررات نظرية لتحديد مكانة المرأة فى الكون !

لكن ماذا تقول ـ هكذا يرد أصحاب نموذج الأنثى الذين يحرصون على إضفاء القداسة الدينية على هذا النموذج فى أمر الآيات القرآنية الصريحة الواضحة أيضاً التى تجعل من المرأة موجوداً أدنى تابعاً للرجل ؟ ماذا تقول فى آيات مثل : ﴿ **للرجال عليهن درجة** ﴾ (آية ٢٢٨ :سورة البقرة) و ﴿ **الرجال قوامون على النساء** ﴾ (آية ٣٤ : سورة النساء) ؟

نقول إن هذه الآيات تتحدث عن علاقة الرجل بالمرأة (أو بدقة أكثر الزوج بزوجته) داخل الأسرة وهو وضع مختلف أتم الاختلاف عن الحديث عن الرجل والمرأة بصفة عامة ، أو علاقتهما داخل المجتمع أو الدولة فالآية الأولى ، مثلاً ، سبقتها آيات تتحدث عن المطلقات ، ومتى يحل لهن الزواج (آية ٢٢٧) وتبعتها آيات أخرى تتحدث عن الطلاق أيضاً (آية ٢٢٩) وقل الشئ نفسه فى الآية الثانية التى تتحدث هى ذاتها عن الزوجة الناشز، وما ينبغى أن يحيق بها من عقاب ، أو ضرورة تحكيم الأهل للإصلاح بين الزوج وزوجته فى حالة الخوف من الفراق .

---

(١) قارن د.. محمد يوسف موسى نظام الحكم فى الإسلام دار الكتاب العربى ص٥٤ وهذه هى الفكرة التى ترددها للأسف جميع الكتب التى تتحدث عن نظام الحكم فى الإسلام

ولتوضيح هذه الفكرة نقول : ليس للمرأة ـ أو الرجل وضعاً ثابتاً ودائماً فى جميع مناحى الحياة ، ذلك لأن هذا الوضع يختلف باختلاف المجالات المتنوعة ومن ثم فإن علينا أن نحذر الخلط ، وهو كثيراً ما يحدث بين مجال الأخلاق ومجال السياسة بين الرجل والمرأة كعضو فى الأسرة التى هى مفهوم أخلاقى أساساً وبين المرأة ـ أو الرجل كمواطنة فى الدولة التى هى مفهوم سياسى وإذا كانت الأسرة مفهوماً أخلاقياً ، فإنها تحتاج بالضرورة إلى فرد واحد يكون مسؤلاً مسؤلية أخلاقية عنها هو الأب عادة ، فهو المسؤول عن الأسرة التى أوجدها فيها ، كما أنه مسؤول عن الأطفال الذين وهبهم الحياة وهى كما قلنا مسؤلية أخلاقية بالدرجة الأولى ، بغض النظر عما يستتبع ذلك من مسؤولية قانونية أو جنائية . ومن هنا جاءت الدرجة التى للزوج على زوجته كما جاءت القوامة التى تستلزمها قيادة الأسرة ، وليس فى هذا التصور أى حط من قدر المرأة وإنما هو توزيع لأولوية المسؤولية فإذا تساءلنا : ولم تكن المسؤلية الأولى للرجل ؟ لكانت الإجابة : لأن الرجل هو الذى يقدم على الزواج عادة ، ويختار الزوجة ، وينشئ لنفسه أسرة جديدة منفصلة عن أسرته الأولى فالأقرب إلى الصواب أن يكن هو المسؤول الأول أخلاقياً عن أسرته الجديدة .

أما المجال الثانى فهو مختلف تمام الاختلاف ، ونعنى به مجال الحياة العامة ، وهو مجال المساواة التامة بين الرجل والمرأة : فى الحقوق السياسية ، والواجبات الاجتماعية ، وفرص التعليم والعمل ، والمشاركة فى حياة الجماعة بشتى السبل : فلا تقل واجبات المدرسة ، أو الطبيبة ، أو المهندسة ، أو عضوة المجلس النيابى .. إلخ أو حقوقها عن واجبات المدرس أو الطبيب أو المهندس .. إلخ أو حقوقه ؛ فنحن هنا أمام مواطن ذكراً أو أنثى ، له نفس الحقوق وعليه نفس الواجبات .

غير أننا كثيراً ما نخلط وتلك سمة المجتمع المتخلف عموماً بين مجالى الأخلاق

والسياسة خلطاً معيباً ، يوقعنا فى كثير من الأخطاء التى لا نتبين بوضوح مصدرها من رجل الشارع الذى يظن أنه أعلى منزلة من المرأة ؛ لأن له القوامة فى المنزل ، فلابد أن تكون له القوامة فى المجتمع أيضاً - إلى الحاكم الذى يعتقد أنه أب لجميع المواطنين فينقل بذلك الفكرة الأخلاقية من الأسرة عن الأب واجب الاحترام إلى ميدان السياسة الذى يجيز للمواطنين نقده وعزله عن منصة الحكم و. قد تخلط المرأة أيضاً بين المجالين عندما تنقل المفهوم السياسى للمواطنة إلى الأسرة فتطالب الزوج بالمساواة التامة ، وبالديمقراطية . إلخ[1] أو أن تقول لزوجها أنا مهندسة ، أو مدرسة ، أو طبيبة ، أو حتى وزيرة .. إلخ لأن المرأة فى الأسرة زوجة فقط[2] .

هذه أمثلة قليلة ، وغيرها كثير ، لحالات تطغى فيها العادات والتقاليد التى ترسخت مع مرور الأيام لتثبت فى أذهان الناس دونية المرأة ، وقصورها ونقص ملكاتها ... إلخ ، ثم يأتى رجال الدين ، واللاهوتيون ، ومن لفَّ لفَهم ليضفوا عليها مسحة دينية ولتصبح جزءاً لا يتجزأ من التراث الدينى ، بل قد يرتفعوا بها لتبلغ حد القداسة ، ويوصف من ينكرها بأنه كافر مارق ، مع أن الدين منها برئ !

* * *

(١) من الأفكار البالغة الساذجة الحديث عن دمقراطية الأسرة فهو خلط واضح بين الأخلاق والسياسة !

(٢) إمام عبد الفتاح إمام « مسيرة الديمقراطية رؤية فلسفية دراسة فى مجلة عالم الفكر - المجلد الثانى والعشرون - العدد الثانى عام ١٩٩٣ (تصدر عن وزارة الإعلام - دولة الكويت) .

مراجع البحث

أولاً : المراجع الأجنبية :

1 - Donaldson, James: woman : Her Position and Influence in Ancient Greece and Rome Among Early Christians Gar-don Press, New York, 1983 .

2 - Sarah B. Pomperoy : " Goddess, Whores, Wifes and Slaves : Women in Classical Antiquity. Shocken Books,New York .

3 - Simone de Beauvoir. " The Second Sex " Eng. Trans by Parshley, Penguin Books 1987 .

4 - Simone de Beauvoir : " Old Age " Penguin Bookss .

5 - Charles Seltman : " Women in Antiquity, London Thomas and Hudson, 1965 .

6 - Dictionary of the History of Ideas Charlas Scribner's Sons, New York, 1974 .

7 - Fredrick Copleston : " A History of Philosophy " Vol.2 Search Press .

8 - Susan G. Bell : " Women : From The Greeks toThe French Revolution " Stanford University Press, Stanford California, 1973 .

9 - Katherine M. Rogers : " The Troublesome Helpmate : A History of Misogy in Literature " Seattle, Washington University Press, 1966 .

10 - Herbert A. Defane : " The Political and Social Ideas of St.. Augustine " Columbia University Press, 1963 .

11 - Mary Briody (ed) Philosophy of Woman An Anthology of Classic and Current Concepts .

12 - Mary Daly : " Beyond God the Fathen Towards a Philosophy of Women's Liberaries Press London, 1985.

13 - St. Augustine : " The City of God, Against The Pagans " Eng. Trans. by Henry Bettenson, Penguin Books, 1972.

14 - Genevieve Loyed : " The Man of Reason : Male and Female in Western Philosophy " Metheun & Co. L. T. D. 1984 .

15 - Kennedy, Ellen & Susan Mendus " Women in Western Political Philosophy" The Harvest Press. 1987 .

16 - Henry Osborn Taylor : The Mediaeval ind : A History of the Development of Thought and Emotion in the Middle Ages" Macmillan, 2 Vols. 1911

17 - M. Mead : Sex and Temperament in Three Primitive Society " Penguin Books .

18 - The Encyclopedia of Philosophy, Vol.8 Ed. by Edwads. Macmillan, 1967 .

19 - Encyclopedia Americana, Vol. 7 .

20 - Twentieth Century Encyclopedia, Vol. 2, Barker Books House, 1955 .

ثانياً : المراجع العربية :

١ ـ أبو حامد الغزالى « إحياء علوم الدين » المجلد الثانى ـ دار الريان للتراث القاهرة عام ١٩٨٧

٢ ـ أحمد خواجة : « الآداب التعاملية فى فكر الإمام الغزالى » المؤسسة الجامعية للتراث النشر بيروت عام ١٩٨٦ .

٣ ـ أحمد الحوفى « المرأة فى الشعر الجاهلى » نهضة مصر بالقاهرة عام ١٩٨٠ .

٤ ـ إمام عبد الفتاح إمام « أفلاطون .. والمرأة » العدد الأول من سلسلة « الفيلسوف.. والمرأة » أصدرتها مكتبة مدبولى بالقاهرة .

٥ ـ إمام عبد الفتاح إمام « أرسطو .. والمرأة » العدد الثانى من سلسلة « الفيلسوف ... والمرأة » أصدرتها مكتبة مدبولى بالقاهرة .

٦ ـ إمام عبد الفتاح إمام « مسيرة الديمقراطية ... رؤية فلسفية » دراسة فى مجلة عالم الفكر ـ المجلد الثانى والعشرون العدد الثانى يناير ١٩٩٣ .

٧ ـ إمام عبد الفتاح إمام « هيباشيا : فيلسوفة الإسكندرية » دراسة فى مجلة عالم الفكر ـ المجلد الثانى والعشرون ـ العدد الثالث عام ١٩٩٤ .

٨ ـ إمام عبد الفتاح إمام « الطاغية ... دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسى سلسلة عالم المعرفة عدد ١٨٣ .

٩ ـ ول ديورانت « قصة الحضارة » مجلد ٩ ، و ١٢ ، و ١٧ ترجمة الأستاذ محمد بدران ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة .

١٠ ـ عبد الهادى عباس : « المرأة الأسرة فى حضارات الشعوب ، وأنظمتها » فى ثلاثة أجزاء ـ دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر بدمشق عام ١٩٨٧ .

١١ ـ مونبيك بيتر « المرأة عبر التاريخ » ترجمة هنريت عبود ـ دار الطليعة بيروت .

١٢ ـ فكور سحاب : « العرب .. وتاريخ المسألة المسيحية » دار الوحدة ـ بيروت عام ١٩٨٦ .

١٣ ـ « مدونة جوستنينان فى الفقه الرومانى » نقلها إلى العربية عبد العزيز فهمى عالم الكتب بيروت .

١٤ ـ د . ثروت الأسيوطى « نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين : الجماعات البدائية ـ بنو إسرائيل » دار الكاتب العربى ـ القاهرة .

١٥ ـ إدوارد جيبون « اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » ـ ترجمة لويس إسكندر ومراجعة أحمد نجيب هاشم ـ الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة عام ١٩٦٩ (المجلد الأول) .

١٦ ـ يوسف كرم « تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط » دار القليم ، بيروت ، لبنان عام ١٩٧٩ .

١٧ ـ برتراند راسل « تاريخ الفلسفة الغربية » الجزء الثانى ترجمة د . زكى نجيب محمود ، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة عام ١٩٦٨ .

١٨ ـ « اعترافات القديس أوغسطينوس » نقلها إلى العربية الخورى يوحنا الحلو ـ دار المشرق بيروت الطبعة الرابعة عام ١٩٩١ .

١٩ ـ القديس أوغسطين « الاعترافات » ترجمة الخورى يوسف العلم القاهرة .

٢٠ ـ الدكتور زكريا إبراهيم « المجموعة اللاهوتية للقديس توما الأكوينى » ـ تراث الإنسانية ، المجلد الثالث عدد رقم ١٠ ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر .

٢١ ـ ميخائيل ضومط « توما الأكويني » المطبعة الكاثوليكية بيروت عام ١٩٥٦ .

٢٢ ـ چورچ سباين « تطور الفكر السياسى » ترجمة حسن جلال العروسى ومراجعة فتح الله الخطيب دار المعارف بمصر الطبعة الثانية سبتمبر ١٩٦٩ . الكتاب الثانى .

٢٣ ـ د . محمد يوسف موسى « نظام الحكم فى الإسلام » دار الكتاب العربى بالقاهرة .

٢٤ ـ « الموسوعة الفلسفية » المختصرة ، بإشراف الدكتور زكى نجيب محمود ـ مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة عام ١٩٦٣ .

٢٥ ـ د . عبد الرحمن بدوى « موسوعة الفلسفة » فى مجلدين ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ الطبعة الأولى بيروت عام ١٩٨٤ .

٢٦ ـ چورچ طرابيشى « معجم الفلاسفة » دار الطليعة بيروت عام ١٩٨٧ .

٢٧ ـ الكتاب المقدس .

* * *

الفهـــرس

* * *

سلسلة « الفيلسوف .. والمرأة »

بإشراف الأستاذ الدكتور إمام عبد الفتاح إمام

تصدرها مكتبة مدبولى بالقاهرة

صدر منها :

(١) « أفلاطون .. والمرأة » بقلم د . إمام عبد الفتاح إمام

(٢) « أرسطو .. والمرأة » بقلم د . إمام عبد الفتاح إمام

(٣) « الفيلسوف .. والمرأة » بقلم د . إمام عبد الفتاح إمام

يصدر فى الأعداد القادمة :

« جون لوك .. والمرأة » بقلم د . إمام عبد الفتاح إمام

« نساء ... فلاسفة » بقلم د . إمام عبد الفتاح إمام

رقم الإيداع ١٠٨٩٦ / ٩٥

الترقيم الدولى
977 - 208 - 160 - 1

المطبعة الفنية ت : ٣٩١١٨٦٢

هذه السلسلة

« **الفيلسوف .... والمرأة** » – موضوع بالغ الأهمية فى مسيرة التنوير ؛ لأنه يُلقى الأضواء على وضع المرأة فى مجتمعنا العربى ، ويبيّـن السبب فى وصفها « بالرئة المعطلة » أو « ذلك الجنس الآخر » الذى يختلف عن جنس الرجال ! والواقع أن الصورة السيئة عن المرأة المنتشرة بيننا هى التى رسمها الفلاسفة ، وهم يعبّرون بذلك عن التراث السائد فى مجتمعاتهم ، مصداقاً لقول هيجل : « إن كلاً منا هو ابن عصره ، وربيب زمانه .. وأن الفلسفة هى عصرها ملخصاً فى الفكر ».. فأفلاطون ، وأرسطو ، وغيرهما من فلاسفة اليونان لخصوا فى أفكار نظرية مجردة « كراهية المرأة » ، ووضعها المتدنى الذى ساد التراث اليونانى .

وكذلك فعل فلاسفة المسيحية : كلمنت السكندرى ، وترتليان ، والقديس چيررم والقديس أوغسطين ، والقديس توما الأكوينى .. إلخ – مع إضافة مسحة من القداسة الدينية على أفكار اليونان . وقل الشىء نفسه فى تراثنا العربى الذى نقل الفكر اليونانى وتأثر به تأثراً قوياً ..

ولم تبدأ هذه الصورة السيئة فى التحسن إلا عندما تغيرت ظروف المجتمع الحديث سياسياً واقتصادياً ، فظهر فلاسفة من أمثال : مونتسكيو ، وجون ستيوارت مل وغيرهما ، ودعوا إلى تحرير المرأة ، وإعطائها حقوقها كاملة .

وهذه السلسلة تهدف إلى تعديل الصورة السيئة التى استمرت فى بلادنا سنوات طويلة ، بالكشف عن أفكار رُوج لها فلاسفة وثنيون عبَّروا عن تراثهم ، ثم ثبتت فى أذهاننا . فمن منا لم يقرأ أو يسمع عن طيش المرأة ، وضعف العقل عندها وتغلب العاطفة والانفعال ، ونقص الذكاء ، وعدم قدرتها على القيادة والإدارة والحكم ، ووجوب خضوعها الكامل للرجل .. إلخ ؟ هذه كلها أفكار أرسطو لكننا أصبحنا نرددها على أنها أفكار مقدسة لا يأتيها الباطل !

الناشر



٢٢ شارع الشفقاتيه ــ أمام جامع ساحة عابدين
القاهرة ــ تليفون ٣٩١١٨٦٢